



سلسلة العلوم الاجتماعية

# سر راس المال

لماذا تنصر الرأسمالية في الغرب وتفسد في كل مكان آخر؟



ترجمة: كمال السيد

لهرناندى سوتو

# سِرُّ رَأْسِ الْمَنَانِ

لماذا تنهض الرأسمالية في الغرب وتقتل في كل مكان آخر؟



برعاية السيد  
وزير التعليم

المشرف العام  
د. ناصر الأنصاري

الجهات المشاركة  
جمعية الرعاية الشاملة المركبة  
وزارة الثقافة  
وزارة الإعلام  
مؤسسة التربية والتعليم  
وزارة التنمية المحلية  
المجلس القومي للشباب  
وزارة التنمية الاقتصادية

تصميم الغلاف  
د. مديحت متولي

التنفيذ  
الهيئة المصرية العامة للكتاب

# سِرُّ رَأْسِ الْمَالِ

لماذا تنصر الأسهم في الغرب وتقتل في كل مكان آخر؟

هرناندو دي سوتو



٢٠٠٩

## سر رأس المال

لوحة التلايف من أعمال الفنان : هاروق شحاتة

دي سولو ، هرناندو .

سر رأس المال ، لماذا تنتشر الرأسمالية في  
القرب وتفشل في كل مكان آخر/ هرناندو دي  
سولو ، ط ١ ، - القاهرة: الهيئة المصرية العامة  
للكتاب ، ٢٠٠٩ .

٢٨٨ هـ : ٢٤ سم (أسرة ٢٠٠٩ - ع . اجتماعية).

تدقيق: ٠ - ١٤٤ - ١٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .

١ - الرأسمالية .

أ - المتوان .

ب - التسلسلة .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٧٦ / ٢٠٠٩

I.S.B.N 978-977-421-044-0

ديوى ١٢٢ ، ٣٣٠

*Amly*

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

## توطئة

انطلقت فعاليات الحملة القومية للقراءة للجميع فى دورتها التاسعة عشرة هذا العام تحت شعار «مصر السلام». هذا الشعار الذى ظلت السيدة الفاضلة سوزان مبارك تطرحه منذ بداية تنفيذ حلمها ليصير الكتاب زادًا متاحًا للجميع، وتصبح القراءة عادة لدى الأجيال الجديدة. لقد ظلت الدعوة للسلام تحلق فى فلك دورات المهرجان السابقة، فهى جزء من تاريخ مصر العريقة، التى بدأت الحضارة على أرضها، منذ وقع رمسيس الثانى أول معاهدة سلام. لم يكن هناك حينئذ من يضاهيه تقدمًا أو قوة، ولكنه كان يُعلم العالم أن من شيم الأقوياء التوق إلى السلام.

لقد جرت فى النهر مياها كثيرة منذ حازت السيدة الفاضلة سوزان مبارك جائزة التسامح الدولى لعام ١٩٨٨ من الأكاديمية الأوروبية للعلوم والفنون التى جاء فى تقريرها «إن الأكاديمية منحت الجائزة للسيدة سوزان مبارك عرفانًا بدورها الكبير فى إذكاء روح التسامح وطنيًا وإقليميًا وعالميًا، وتقديرًا لجهودها الجادة»، وأصبحت القراءة للجميع من أهم المشروعات الثقافية

المعلاقة في العالم العربي، وتم اتخاذه نموذجًا يحتذى به في بلاد أخرى.

وما زالت مكتبة الأسرة، كرافد رئيسي من روافد القراءة للجميع، تقوم بدورها في إعادة الروح إلى الكتاب كمصدر مهم وخالد للمعرفة في زمن تزحف فيه مصادر الميديا المختلفة. فالكتاب هو الجسر الراسخ الذي يربط ذاكرة الأمة وتاريخها وإنجازاتها بأبنائها، وهو الفضاء الساحر الذي يلتقى به المثقفون والمفكرون والمبدعون بالأجيال المختلفة.

وتواصل مكتبة الأسرة هذا العام نشر أمهات الكتب، وستستكمل نشر تراث الأمة الإبداعي، وستعمل على ربط الكتاب بمصادر المعرفة الحديثة كالإنترنت، وعلى التوسع في إصدار كتب الفنون المختلفة كالمرسح والموسيقى إيماناً منها برسالة الفنون الرفيعة لتنمية وتطوير وتهذيب روح المجتمع، وحمايته من ضروب التعصب والكراهية والعنف الدخيلة عليه.

وتصدر مكتبة الأسرة هذا العام من خلال سلاسلها المختلفة.. الأدب والفكر العلوم الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيا والفنون والمثويات والتراث وسلسلة الطفل، وستشكل هذه السلاسل بانوراما معرفية وتاريخية وعلمية وإبداعية وفكرية، وتمثل مرآة لاجتهادات الفلاسفة والشعراء والعلماء والمفكرين عبر قرون لتحقيق السلام للبشرية من خلال حلمهم الدائم بتحقيق الخير والعدل والجمال.

مكتبة الأسرة

## المحتويات

١	الفصل الأول : أسرار رأس المال الخمسة
١٥	الفصل الثاني : سرّ المعلومات الفائبة
٣٩	الفصل الثالث : سرّ رأس المال
٦٩	الفصل الرابع : سرّ الوعي السياسي
١٠٥	الفصل الخامس : الدروس الفائبة عن التاريخ الأمريكي
١٥٣	الفصل السادس : سرّ الفشل القانوني
٢٠٧	الفصل السابع : من قبيل الخاتمة
٢٢٩	الهوامش
٢٤١	شكر وتقدير
٢٤٩	التنبيهات
٢٥٩	المهرس



## الفصل الأول

# أسرار رأس المال الخمسة

إن المشكلة الأساسية هي التوصل إلى السبب في أن هذا القطاع من مجتمع الماضي، الذي لن أتريد في أن ادعوه بالراسمالي، كان لابد وأن يعيش في ناقوس زجاجي، معزولا عن الباقى حوله؟ والسبب في أنه لم يكن يستطيع التوسع ويهزو المجتمع كله؟... (ما هو السبب) في أن معدلا كبيرا من تكوين رأس المال لم يكن ممكنا إلا في قطاعات معينة، وليس في كل اقتصاد السوق في ذلك العصر؟

... فيرناند برول، «عجلات التجارة»

إن اللحظة التي تحقق فيها أكبر انتصار للراسمالية هي لحظة أزمتها. فقد أنهى سقوط سور برلين ما يزيد على قرن من المنافسة السياسية بين الراسمالية والشيوعية. وبرزت الراسمالية وحدها باعتبارها الطريق العملى الوحيد لتنظيم اقتصاد حديث على نحو رشيد. وفي هذه اللحظة من التاريخ، لم يكن هناك خيار لأى دولة مسؤولة. ونتيجة لذلك، وبدرجات متباينة من الحماس، حققت بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة توازن ميزانياتها، وخفضت الدعم، ورحبت بالاستثمار الأجنبى، وقللت حواجزها الجمركية.

وكانت ثمرة جهودها خيبة أمل مريرة. فمن روسيا إلى فنزويلا، كان نصف العقد الماضى زمنا للمعاناة الاقتصادية، والدخول المذاهرة، والقلق، والسخط: زمنا «من الموت جوعا وأعمال الشغب والسلب»، على حد تعبير الكلمات القارصة لمحاضر محمد رئيس وزراء ماليزيا. وقد ذكرت «النيويورك تايمز» في

افتتاحية أخيرة لها أنه «في كثير من أنحاء العالم، تم فرض قيام السوق الذي مجده الغرب في زهو الانتصار في الحرب الباردة، مع ما صاحب ذلك من قسوة الأسواق، وحذر من الرأسمالية، ومخاطر عدم الاستقرار». إن انتصار الرأسمالية في الغرب وحده يمكن اعتباره طريقا لوقوع كارثة اقتصادية وسياسية.

وبالنسبة للأمريكيين الذي يتمتعون بالسلام والازدهار على حد سواء، كان من السهل تماما تجاهل الاضطرابات التي تحدث في أماكن أخرى. فكيف تعاني الرأسمالية متاعب في الوقت الذي يتصاعد فيه مؤشر داو جونز الصناعي بقدر يفوق مؤشر سير ادموند هيلاري؟ إن الأمريكيين ينظرون إلى الدول الأخرى ويرى أنها تحقق تقدما، حتى وإن كان بطيئا وغير متكافئ. إلا تستطيع أن تأكل سندوتشات «بيج ماك» في موسكو، وتستأجر شريط فيديو من «بلوكباستر» في شنغهاي، وأن تتصل بالإنترنت في كراكاس؟

ومع ذلك، فحتى في الولايات المتحدة، لا يمكن تبديد الهواجس كلبية. فالأمريكيون يرون أن كولومبيا تقف على شفا حرب أهلية كبرى بين عصابات مهربي المخدرات، والميليشيات الساعية لقمعها، وأن هناك عصيانا مستعصيا على الحل في جنوب المكسيك، وأن جزءا مهما من النمو الاقتصادي المفروض بالقوة في آسيا يستنزفه الفساد والفسوض. وفي أمريكا اللاتينية، يضمحل التعاطف مع الأسواق الحرة: فقد انخفض التأييد للخصخصة من ٤٦ في المائة من السكان إلى ٣٦ في المائة في مايو ٢٠٠٠. ومما ينفذ بشر مستطير أكبر، أنه تبين أن الرأسمالية غائبة في البلدان الشيوعية السابقة، وأن الأشخاص المرتبطين بالنظم القديمة متأهبون لتولى السلطة. ويعتقد بعض الأمريكيين أيضا أن من أسباب ازدهارهم الذي استمر عقدا من الزمان هو أنه كلما بدا باقي العالم أكثر تقلقا، زادت جاذبية الأوراق المالية والسندات الأمريكية كملاذئ آمن للنقد الدولي.

ويشور في مجتمع الأعمال في الغرب، قلق متزايد من أن فشل باقي العالم في إقامة الرأسمالية سيدفع في نهاية الأمر الاقتصادات الغنية إلى الكساد. وإن يستخلص الملايين من المستثمرين دروسا مؤلمة من تبخر أموالهم في

الأسواق الناشئة، تعدو العولة طريقا مربوح المسار فإن لم تستطع بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة الإهلات من تأثير الغرب، فإن الغرب نفسه لا يستطيع أن يعزل نفسه عنها كما طفقت ردود الأعمال السلبية تجاه الرأسمالية ترداد قوة هي البلدان الغنية نفسها وتلقى أعمال الشعب التي وقعت في سياتل في اجتماع منظمة التجارة العالمية في ديسمبر ١٩٩٩، وبعد ذلك بضعة شهور في أثناء اجتماع صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي في واشنطن العاصمة، بغض النظر عن تباين الشكاوى، الضوء على الغضب الذي تثيره الرأسمالية الأحدة في الانتشار وبدأ كثيرون يتذكرون تحذيرات المؤرخ الاقتصادي كارل بولاناي من أن الأسواق الحرة قد تتعارض مع مصلحة المجتمع وتؤدي إلى الفاشية وتصارع اليابان من خلال أطول هبوط شهدته منذ «الكساد الكبير» ويقترع الناس في أوروبا الغربية لصالح السياسيين الذي يعدوهم «طريق ثالث»، الذي يرفض ما أسماه واحد من أكثر الكتب الفرنسية مبيحا «الرعب الاقتصادي»

وحتى الآن لم تؤدِ همسات التحذير هذه، وإن كانت تدعو للقلق، إلا إلى حث القادة الأمريكيين والأوروبيين على أن يكرزوا على مسامح باقي العالم نفس المحاضرة المملة ثبتوا عملاكم، تشددوا، تجاهلوا أعمال الشغب المطالبة بالطعام، وانتظروا في أناة أن يعود المستثمرون الأجانب

بالطبع إن الاستثمار الأحسى أمر طيب للغاية وكلما زاد، كان ذلك أفضل والعملات المستقرة أمر طيب، هي أيضا، مثلها مثل التجارة الحرة والممارسات المصرفية الشفافة وخصخصة الصناعات المملوكة للدولة وكل علاج آخر في مجموعة الأدوات الغربية ومع ذلك، فنحن ننسى باستمرار أن الرأسمالية العالمية قد اختبرت من قبل فعلى أمريكا اللاتينية مثلا، جرت الإصلاحات الرامية لإقامة نظم رأسمالية أربع مرات على الأقل منذ الاستقلال عن إسبانيا في عشرينيات القرن التاسع عشر وفي كل مرة، وبعد نوبة الحماس الأولى، ارتد أهل أمريكا اللاتينية عن السياسات الرأسمالية وسياسات اقتصاد السوق ومن الواضح أن هذا العلاج غير كاف والواقع أنه قاصر لحد أن يصبح يعير معنى

وعندما يفشل هذا العلاج، فإن رد فعل الغربيين عادة لا يتمثل في التساؤل عن مدى كفاية العلاج المقترح وإنما في إلقاء اللوم على شعوب العالم الثالث، ويتهمونهم بالافتقار إلى القدرة على تنظيم المشروعات وروحها والتوجه نحو السوق فإن أخفقوا في تحقيق الإزدهار رغم ما يقدم لهم من نصائح رائعة، فإن ذلك يعود لعيب أساسي فيهم الافتقار إلى «الإصلاح البروتستانتي»، أو أن الميراث الذي يكبلهم والذي ورثوه عن أوروبا الاستعمارية يقعدهم عن الحركة، أو أن معدل ذكائهم جد منخفض لكن القول بأن الثقافة هي التي تفسر نجاح أماكن حد مختلفة مثل اليابان وسويسرا وكاليفورنيا، وأن الثقافة أيضا هي التي تفسر الفقر النسبي لأماكن متباينة بالمثل كالصين، وإستونيا، وباجا كاليفورنيا، هو قول غير إنساني بل أسوأ من ذلك، وهو قول غير مقنع إن التباين في الثروة بين الغرب وباقي العالم أكبر كثيرا من أن تفسره الثقافة وحدها فمعظم الناس يريجون ثمار رأس المال - لدرجة أن كثيرين، ابتداء من أبناء سانشين إلى ابن خروشوف، يندفعون أفواجا للبلدان الغربية

إن مدن بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة تعج بمنظمي المشروعات فلا يمكنك أن تحول في سوق في الشرق الأوسط أو تمضي في نزهة إلى قرية في أمريكا اللاتينية، أو تركب سيارة أجرة في موسكو دون أن يحاول شخص ما أن يبرم صفقة معك إن سكان هذه البلدان يملكون الموهبة والحماس والقدرة المذهلة على اعتصار الرياح من لاشئ عمليا وفي مقدورهم استيعاب التكنولوجيا الحديثة واستخدامها وفي غير هذا، لم تكن دوائر الأعمال الأمريكية لتجاهد للسيطرة على الاستخدام غير المرخص به لبراءات الاختراع التي تملكها في الخارج، ولم تكن حكومة الولايات المتحدة لتصارع بصورة يائسة للإبقاء على تكنولوجيا الأسلحة الحديثة بعيدا عن متناول أيدي بلدان العالم الثالث إن الأسواق تقليد قديم وعالمى فقد طرد السيد المسيح التجار من المعبد قبل ألفى عام، وكان المكسيكيون يذهبون لمنتجاتهم إلى السوق قبل وصول كولمبس لأمريكا بزمان طويل

ولكن إذا لم يكن الناس في البلدان التي تحقق الانتقال إلى الرأسمالية، شحاذين جديرين بالشعقة، وإن لم يكونوا قد وقعوا في إسار الطرق المتقادمة

بصورة لا أمل فيها، وإن لم يكونوا أسرى ثقافات عجرت عن أداء مهامها بحيث لا ينتقدونها، مما الذي يحول دون أن تقدم لهم الرأسمالية نفس الثروة التي قدمتها للغرب؟ لماذا تدهر الرأسمالية في الغرب وحده، كما لو كانت قد غلفت بنافوس زجاجي؟

اعتزم في هذا الكتاب أن أبين أن حجر العثرة الأساسي الذي يحول دون استفادة باقي العالم من الرأسمالية يتمثل في عجزه عن إنتاج رأس المال فرانس المال هو القوة التي تزيد إنتاجية العمل وتخلق ثروة الأمم إنه شريان الحياة بالنسبة للنظام الرأسمالي، أساس التقدم، والشئ الذي يبدو أن بلدان العالم الفقيرة لا تستطيع أن تنتج لنفسها، مهما كان الحماس الذي تنحدر به شعوبها في كل الأنشطة الأخرى التي تميز الاقتصاد الرأسمالي

كما سابين، بمساعدة الحقائق والأرقام التي جمعها فريق البحث المعاون لي، من حي سكني بعد آخر، ومن مزرعة تعد مزرعة في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية، أن معظم الفقراء يملكون بالفعل الأصول التي يحتاجونها لتحقيق نجاح الرأسمالية ذلك أن الفقراء يدخرون حتى في أكثر البلدان فقرا إن قيمة المدخرات لدى الفقراء، هائلة في الواقع - أربعون مثل كافة المعونات الأجنبية التي تم تلقيها في كافة أنحاء العالم منذ ١٩٤٥ ففي مصر مثلا، تساوى الثروة التي تراكت لدى الفقراء خمسة وخمسين مثل مبلغ كافة الاستثمارات الأجنبية المباشرة التي سجلت فيها، بما في ذلك قناة السويس وسد أسوان وفي هايتي، وهي أفقر بلد في أمريكا اللاتينية، يزيد مجموع الأصول لدى الفقراء على مائة وخمسين مثل كافة الاستثمارات الأجنبية المتلقاة منذ استقلال هايتي عن فرنسا في ١٨٠٤ ولو كانت الولايات المتحدة قد رفعت ميزانية المعونة الخارجية التي تقدمها إلى المستوى الذي أوصت به الأمم المتحدة - ٠,٧ في المائة من الدخل القومي - لاستغرق الأمر من أغنى بلد في العالم أكثر من ١٥٠ سنة لتحويل لفقراء العالم موارد تساوى تلك التي يملكونها فعلا

لكنهم يحتفظون بهذه الأصول في شكل معيب بيوت بنيت على أراض ملكيتها ليست مسجلة بالشكل السليم، ودور أعمال لا تأخذ شكل الشركات

ومسؤوليتها غير محددة، وصناعات قائمة حيث لا يستطيع المولون والمستثمرون رؤيتها ونظرا لأن الحقوق في هذه الممتلكات ليست موثقة على النحو السليم، فإن هذه الأصول لا يمكن تحويلها بسهولة إلى رأس مال، ولا يمكن مبادلتها خارج الدوائر المحلية الضيقة التي يعرف الناس فيها بعضهم ويثقون في بعضهم البعض، ولا يمكن استخدامها كرهن لضمان القروض، ولا يمكن استخدامها كحصة في استثمار ما

وعلى العكس من ذلك في الغرب، فإن كل قطعة أرض، وكل بناية، وكل قطعة من المعدات، أو مخزن للموجودات، تمثلها وثيقة للملكية تشكل دليلا مرئيا على عملية مستترة شاسعة تربط كل هذه الأصول بباقي الاقتصاد وبفضل هذه العملية الوصفية التمثيلية، فإن الأصول يمكن أن تكتسب حياة غير مرئية موازية إلى جانب وجودها المادي إذ يمكن استخدامها كرهن ضمان لائتمان ما إن أهم مصدر وحيد للأموال بالنسبة لمشروعات الأعمال الجديدة في الولايات المتحدة هو الرهن على مؤسسات منظمى المشروعات، ويمكن لهذه الأصول أيضا أن توفر رابطة بتاريخ المالك الائتماني، وغنوان مختار خاضع للمساغة لتحصيل الديون والضرائب، وأساس لإقامة مرافق عامة يعول عليها وشاملة، وأساس لإنشاء الأوراق المالية (مثل السندات المستندة إلى رهن) والتي يمكن عندئذ إعادة خصمها وبيعها في الأسواق الثانوية وبهذه العملية يبعث الغرب أنفاس الحياة في الأصول ويجعلها تولد رأس المال.

ولتتوافر لبلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة هذه العملية الوصفية التمثيلية ومن جراء ذلك، فإن معظمها يشكو من نقص الرسملة، بنفس الطريقة التي تعاني بها شركة ما من نقص الرسملة عندما تصدر أوراقا مالية أقل مما يبرره دخلها وأصولها إن مشروعات الفقراء تشبه كثيرا الشركات التي لا يستطيع أن تصدر أسهما أو سندات للحصول على استثمار وتمويل جديدين ذلك أنه بدون توافر الوصف التمثيلي، تعد أصولها رأسمالا ميتا غير منتج

إن لدى سكان هذه البلدان من الفقراء - وهم خمسة أسداس البشرية - أشياء يملكونها، لكنهم يفتقرون إلى العملية التي تصف وتمثل ملكيتهم وتخلق

رأس المال ذلك أن لديهم بيوتاً، لكن ليس لديهم سندات حقوق ملكية، لديهم محاصيل لكن ليس لديهم صكوك ملكية؛ ولديهم دور أعمال لكن ليس لديهم النظام الأساسي للشركات إن عدم توافر هذه الأنواع الأساسية من الوصف والتمثيل هو الذي يفسر السبب في أن الناس الذين طوعوا كل الاختراعات الغربية الأخرى، من مثبك الورق إلى المفاعل النووي، لم يستطيعوا أن ينتحوا ما يكفي من رأس المال لجعل رأسماليتهم المحلية تثمر ذلك هو سر رأس المال. ويتطلب حلّه فهم السبب في أن الغربيين استطاعوا عن طريق وصف وتمثيل الأصول سندات ملكية، أن يروا فيها رأس المال وأن يستخلصوه منها إن من أكبر التحديات التي تواجه العقل البشري فهم، والوصول إلى، الأشياء التي نعرف أنها موجودة ولا نستطيع أن نراها ليس كل ما هو حقيقي ومفيد، ملموس ومرئي فالرمن مثلاً حقيقي، ولكن لا يمكن إدارته بصورة كفه إلا عندما تمثل الساعة والتقويم الرمزي وعلى مرّ التاريخ، اخترع البشر أنظمة وصفية تمثيلية - الكتابة، النوتة الموسيقية، إمساك الدفاتر ذات القيد المزدوج - ليدركوا ما لعقل ما لا يمكن لأيدي البشر أن تلمسه أبداً وبفلس الطريقة، فإن الممارسين العظام للرأسمالية، من منشئي نظم سندات الملكية المتكاملة وأسهم الشركات إلى مايكل ميلكن، استطاعوا أن يكتشفوا رأس المال وأن يستخلصوه، حيث لم ير الآخرون فيه سوى سقط المتاع، وذلك باستنباط طرق جديدة تمثل الإمكانيات غير المرئية المخبوءة في الأصول التي نراكها.

وفي نفس هذه اللحظة التي تحيط بك فيها موجات التليفزيون الأوكراني والصيني والبرازيلي التي لا تستطيع أن تراها، تحيط بك أيضاً أصول تخفي رأسمالاً على نحو غير مرئي وتماثلها أن موجات التليفزيون الأوكراني الأضعف كثيراً من أن تجعلك تشعر بها بصورة مباشرة، يمكن فك شفرتها بمساعدة أجهزة تليفزيونية ورؤيتها وسماعها، فإن رأس المال يمكن استخلاصه ومعالجته من الأصول لكن الغرب وحده لديه عملية التحويل المطلوبة لجعل غير المرئي مرئياً وهذا التقابن هو الذي يفسر السبب في أن الدول الغربية تستطيع أن تخلق رأس المال، وأن بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة لا تستطيع ذلك

إن غياب هذه العملية في المناطق الأفقر هي العالم - حيث يعيش ثلثا البشر - ليس نتيجة نوع من المؤامرة الاحتكارية الغربية، بل الأحرى أن الغربيين اعتبروا هذه الآلية أمرا مسلما به بصورة كاملة إلى حد أنهم فقدوا الوعي بوجودها ورغم ضخامتها، فإن أحدا لا يراها، بما في ذلك الأمريكيون والأوروبيون واليابانيون الذي يدينون بكل ثروتهم إلى قدرتهم على استخدامها - إنها بنية أساسية قانونية ضمنية مخبوءة في أعماق نظم الملكية لديهم - لاتمثل الملكية فيها سوى قمة جبل الجليد ويتمثل باقي جبل الجليد في عملية معقدة من صنع الإنسان يمكنها تحويل الأصول والعمل إلى رأس مال - ولم يتم خلق هذه العملية من طبة أصلية، ولا يرد وصفها في الكتيبات المصقولة فاصولها غامضة ودلائلها مطمورة في اللاوعي الاقتصادي للبلدان الرأسمالية الغربية

كيف يغيب عن ذهننا شيء بهذه الأهمية؟ ليس من غير الشائع بالنسبة لنا معرفة كيفية استخدام الأشياء دون فهم السبب في أنها تجدى فقد استخدم البحارة البوصلة المغناطيسية قبل زمن طويل من اكتشاف نظرية مرضية عن المغناطيسية

وتوافرت لمربي الماشية معرفة عملية بالجينات قبل أن يفسر جريجور مندل مبادئ الوراثة بزمان طويل. وحتى عندما يرد الغرب من جراء وفرة رأس المال، هل يدرك الناس حقا أصل رأس المال؟ وإذا لم يدركوا ذلك، فستظل هناك دوما إمكانية لأن يدمر الغرب مصدر قوته ذلك أن توافر الوضوح بشأن أصل رأس المال، يؤهل الغرب أيضا لحماية نفسه وباقي العالم فور أن يسلم الزدهار الحاضر نفسه لازمة لأرب في أنها ستحل ومن ثم، فإن السؤال الذي يثور دوما في الأزمات الدولية سيتردد مرة ثانية فلوس من هي التي ستستخدم لحل المشكلة؟

وحتى الآن، كانت البلدان الغربية سعيدة لاعتبار نظامها لإنتاج رأس المال أمرا مسلما به بصورة كلية، وترك تاريخه دون توثيق لابد من استعادة ذلك التاريخ وهذا الكتاب محاولة لإعادة استكشاف مصدر رأس المال، ومن ثم تفسير كيفية تصحيح الإخفاق الاقتصادي للبلدان الفقيرة وهذا الإخفاق



لا يرتبط بعيوب في الثقافة أو الميراث الخاص بالوراثة هل يقول أحد بوجود عموميات «ثقافية» مشتركة بين أهل أمريكا اللاتينية والروس؟ ومع ذلك، ففي العقد الأخير، ومنذ أن بدأت المنطقتان في بناء الرأسمالية بدون رأس مال، تشاركنا في نفس المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية عدم مساواة صارخ، اقتصادات سرية، تفشى المافيا، عدم الاستقرار السياسي، هروب رأس المال، عدم احترام القانون على نحو فاضح. ولاترجع هذه الاضطرابات باصولها إلى اديرة الكنيسة الأرثوذكسية أو تمتد على مسارات حضارة الإنكا

ولكن لم تعان بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة وحدها من كل هذه المشكلات إذ كان الأمر نفسه يهدق على الولايات المتحدة في ١٧٨٣، عندما اشتكى الرئيس جورج واشنطن من أن «الصوص» يقشرون ويستعوزون على زبدة البلاد على حساب الكثرة. وكان هؤلاء «الصوص» هم واضعي اليد وسفار منظمي المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون الذين يحتلون أرضا لا يملكونها. وخلال المائة عام التالية، قاتل واضعو اليد هؤلاء للحصول على حقوق قانونية في أراضيهم، وحارب المشتغلون بالتعدين من أجل حقوقهم المدعى بها. لأن قوانين الملكية كانت تختلف من مدينة لأخرى، ومن مخيم إلى مخيم وخلق إنعاز حقوق الملكية مستنقعا للقلق والعداوات الاجتماعية في كافة أرجاء الولايات المتحدة الفتية، لدرجة أن قاضي قصاة المحكمة العليا، جوزيف ستوري، تسامل في ١٨٢٠ عما إذا كان رجال القانون سيستطيعون تسويتها في أي وقت

هل يبدو واضعوا اليد والصوص وعدم الاحترام الصارخ للقانون أمرا مألوفا؟ لقد طفق الأمريكيون والأوروبيون يخبرون بلدان العالم الأخرى أنه «ينبغي لكم أن تكونوا أكثر شجها بناءً والواقع أنها تشبه كثيرا حدًا الولايات المتحدة منذ قرن مضى عندما كانت هي أيضا بلدا غير متطور لقد واجه السياسيون الغربيون ذات مرة نفس التحديات المثيرة التي يواجهها اليوم قادة البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لكن خلفاهم مقدوا الصلة بالأيام

التي كان فيها الرواد الذين فتحوا الغرب الأمريكي يعانون نقصا في رأس المال لأنهم نادرا ما كانوا يحوزون حقوق الملكية للأراضي التي استوطنوها، والسلع التي امتلكوها، عندما كان آدم سميث يتسوق في الأسواق السوداء، وكان اولاد الشوارع الإنجليز الصغار والفقراء يحتالون للحصول على ما يلقي به إليهم السياح الضاحكون من بنسات في أحوال صفى التيمس، عندما أعدم تكنوقراطيو حان بابتيست كولبير ١٦ ألفا من أصحاب المشروعات الصغيرة التي تمثلت كل جريمتهم في صناعة واستيراد الأقمشة القطنية، في انتهاك للقوانين الصناعية لفرنسا

إن ذلك الماضى هو حاضرا كثير من الدول لقد أدمجت الدول الغربية فقراها في اقتصاداتها بنجاح بدرحة جعلتها تفقد حتى ذاكرتها من كيف تحقق ذلك، وكيف بدأ خلق رأس المال ومتى بدأ، عندما «كان شيء هائل يحدث في المجتمع والثقافة، ويطلق الطاقات والطموحات لدى الناس العاديين مثلما لم يحدث أبدا في التاريخ الأمريكي»<sup>(١)</sup>، مثلما كتب المؤرخ الأمريكي جورج بوند. وكان «الشيء الهائل» هو أن الأمريكيين والأوروبيين كانوا على شفا إنشاء قانون رسمى واسع الانتشار للملكية، واختراع عملية التحويل في ذلك القانون التي سمحت لهم بخلق رأس المال كانت هذه هي اللحظة التي عبر فيها الغرب الخط الفاصل الذي افضى بقيام رأسمالية ناجحة - عندما كفت عن أن تكون ناديا خاصا، وأصبحت ثقافة شعبية، عندما تحول «لصوص» جورج واشنطن المروعين إلى رؤاد محبوبين تفخر بهم الثقافة الأمريكية حاليا.

\* \* \*

والمفارقة واضحة بقدر ما هي غير قابلة للحل. فراس المال، وهو اهم مكونات التقدم الاقتصادى الغربى، هو المكون الذى حظى بأقل قدر من الاهتمام وقد غلفه الإهمال بالأسرار - فى الواقع، بسلسلة من خمسة أسرار

## سر المعلومات القافية

ركزت المنظمات الحيرية على بؤس وانعدام حيلة فقراء العالم إلى الحد الذي لم يجعل أحدا يوثق على نحو ملائم قدرتهم على مراكمة الأصول وحلال السنوات الخمس الماضية، أغلقت أنا ومائة من الرماء من ستة بلدان مختلفة كتبنا وفتحنا أعينا - وخرجنا إلى الشوارع والأرياف في أربع قارات لنحسب قدر ما ادخرته أفقر قطاعات المجتمع وكانت المقادير هائلة، لكن معظمها كان رأسمالا ميتا غير منتج.

## سر رأس المال

ذلك هو السر الرئيسي وحجر الزاوية في هذا الكتاب إن رأس المال موضوع اغوى المفكرين في القرون الثلاثة الماضية فقد قال ماركس إنك تحتاج إلى الماضي لما وراء الماديات لتلمس «الدجاجة التي تبيض البيضات الذهبية»، وكان آدم سميث يعتقد أنه يتعين عليك أن تخلق «نوعا من طريق العربات عبر الهواء» لتصل إلى نفس الدجاجة ولكن لم يخبرنا أحد أين تختبئ الدجاجة ما هو رأس المال، كيف يتم إنتاجه، وكيف يرتبط بالنقود؟

## سر الوعي السياسى

إذا كان هناك هذا القدر الكبير من رأس المال غير المنتج في العالم، وفي أيدي مثل هذا العدد الكبير من الفقراء، فلماذا لم تحاول الحكومات استغلال هذه الثروة المحتملة؟ إن ذلك يرجع ببساطة إلى أن الأدلة التي تحتاجها لم تصبح متوافرة إلا في الأربعين عاما الماضية، حيث انتقل المليارات من الناس في كل أنحاء العالم من الحياة المنظمة على نطاق صيق إلى الحياة المنظمة على نطاق واسع وسريع ما أدت هذه الهجرة إلى المدن إلى تقسيم العمل، وأفرخت

ثورة صناعية - تحارية صحة في البلدان الأكثر فقرا - ثورة تم تجاهلها فعليا على نحو لا يصدق

### الدروس الغائبة للتاريخ الأمريكي

إن ما يجري في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، حدث من قبل في أوروبا وأمريكا الشمالية وللأسف، فقد نؤمن مغناطيسيا فشل مثل هذا العدد الكبير من البلدان في تحقيق الانتقال للرأسمالية لدرجة استمنا كيف بحثت البلدان الرأسمالية في تحقيق ذلك عمليا لقد ظللت سنوات طوال، التقى بالكنوقراطيين والسياسيين في البلدان المتقدمة، من لاسكا إلى طوكيو، لكن لم تكن لديهم إجابة لقد كان ذلك سرّا وأخيرا، وجدت الإجابة في كتب التاريخ الخاصة بهم، وأكثرها صلة بالموضوع تاريخ الولايات المتحدة

### سرّ الإخفاق القانوني، لماذا لا يجدى قانون الملكية خارج الغرب

منذ القرن التاسع عشر، أحدثت الدول تسخ وتقلد قوانين الغرب لتوفر لمواطنيها الإطار المؤسسي للارم لإنتاج الثروة وما رالت تسخ وتقلد مثل هذه القوانين حتى الآن، ومن الواضح أن ذلك لا يجدى فلايران معظم المواطنين غير قادرين على استخدام القانون لتحويل المدحرات لراس مال ويطل السبب في ذلك، وما هو مطلوب لجعل القانون يحدى سرا إن حل كل من هذه الأسرار هو موضوع فصل في هذا الكتاب

لقد حار الوقت لحل مشكلة السحب في أن الرأسمالية انتصرت في العرب  
 وجمدت عمليا في كل مكان غيره وحيث إن كل البدائل المعقولة للرأسمالية قد  
 تسدت حاليا، فقد أصبحنا في النهاية في وضع يطوع لنا دراسة رأس المال  
 متحرر وحرص



## الفصل الثاني

# سرّ المعلومات الغائبة

«صيحت المسائل الاقتصادية، على مرّ السنين، أكثر تجريدًا وانفصالًا عن أحداث العالم الحقيقي والاقتصاديين هموماً لا يدرسون اليات عمل النظام الاقتصادي الفعلي بل يفوضون بالتنظير عنه ومثلما قال ايلي ديوي، وهو حبيب الاقتصادي بيجليري، ذات مرة في أحد الاجتماعات، «لو أراد الاقتصاديون دراسة الحصار، فلي يذهبوا وسطروا إلى الجيول. من سيسجلسون في مكاتبهم التي يجلسون إلى أنفسهم فيها ويقولون لأنفسهم ماذا سالف لو كنت حصاراً؟»

— روبرت هـ كوبيس، مهمة المجتمع.

تحليل بلد لا يستطيع فيه أي إنسان أن يحدد من يملك ماذا، ولا يمكن فيه تحديد العناوين بسهولة، ولا يمكن فيه جعل الناس يسددون ديونهم، ولا يتيسر فيه تحويل الموارد إلى نقود على نحو ملائم، ولا يمكن فيه تقسيم الملكية إلى أسهم، ولا يكون فيه وصف الأصول نمطياً ولا يتيسر المقارنة بينها بسهولة، وتتباين فيه القواعد التي تحكم الملكية من مجاورة إلى مجاورة، بل حتى من شارع إلى شارع. لو تصورت هذا، فأبكت بذلك تضع نفسك فحسب في خضم حياة بلد نام أو بلد شيوعي سابق وعلى وجه أكثر تعديداً، فأبكت بذلك تحليل حياة ٨٠ في المائة من سكانه، والذين يتمايرون بصورة حادة عن الصفوة التي تم تعريفها فيه، مثلما كان الفصل العنصري يفرق من قبل بين السود والبيض في جنوب إفريقيا

وهذه الغالبية التي تشكل ٨٠ في المائة لا تعاني من الفقر على نحو يدعو

للناس كما يتصور العربيون عادة فبالرغم من فقرهم المادى للعيان، فإنه حتى الذين يعيشون منهم فى ظل أشد بطم عدم المساواة عطلة، يملكون ما يريد كثيرًا على ما أدركه الجميع فى أى وقت ومع ذلك، فإن ما يملكونه لا يتم وضعه وتمثله بطريقة تجعله ينتج قيمة إضافية فعندما تخرج من باب هيلتون النيل، فإن ما تتركه وراءك ليس عابث التكنولوجيا الراقية الذى يضم آلات الماكس وأجهزة صنع الثلج والتليفيزيون والمصائد الحيوية ذلك أن فى مقدور أهل القاهرة الوصول لهذه الأشياء كلها

إن ما تتركه حقًا وراءك هو عالم الصعقات القاتلة للإبعاد قانونيا بشأن حقوق الملكية إن الرهن والعباوين المختارة، الحاضنة للمساواة والالزمة لتوليد ثروة إضافية لا يتوافران حتى لأهل القاهرة الذين قد يبدون لك أغنياء تماما فى أطراف القاهرة، يعيش بعض من أفقر الفقراء فى مناطق المقابر القديمة و«مدن الموتى» وفى هذا الجزء من المدينة لا يمكن استخدام أى من الأصول حتى تمامها إذ لا توجد هناك المؤسسات التى تلجأ الحياة على رأس المال التى تكفل للمرء ضمان مصالح الطرف الثالث بالعمل والأصول

ولكى يفهم المرء كيف يمكن ذلك، يتعين عليه أن ينظر إلى القرن التاسع عشر، عندما كانت الولايات المتحدة تحت محتمعا من براريها فلم تترك الولايات المتحدة من بريطانيا قانونها المنعقد على نحو غريب الحاص بالاراضى محسب، بل ورثت عنها أيضا نظاما شاسعا لمسح الاراضى المتداخلة بنفس العداد كان يمكن أن يخص شخصا ما حصل عليه كجزء من منحة من الاراضى الشاسعة من التاج البريطانى، وإن يخص شخصا آخر يدعى أنه اشتراه من قبيلة هندية، وشخص ثالث قبله محل الأجر من الهيئة التشريعية للولاية - ولم يقع عليه نصر أى من هؤلاء الثلاثة وفى الوقت نفسه، كانت البلاد قد أخذت تمتلئ بالمهاجرين، الذين أقاموا الحدود، وحرثوا الحقول، وبنوا الديار، ونقلوا ملكية الاراضى، وأدبروا القروض قبل وقت طويل من قيام الحكومة بخلق حق القيام بهذه التصرفات عليهم كانت هذه هى أيام الرواد و«الغرب البرى» ومن أسباب أنه كان يراد لهذا الحد أن هؤلاء الرواد، الذين لم تكن غالبيتهم سوى وأضعى يد، أنصروا على أن عملهم، وليس سندات الملكية الرسمية المسجلة على الورق



أو خطوط الحدود التحكيمية، هو الذى أضفى قيمة على الأرض وأقام الملكية<sup>(١)</sup> كانوا يؤمنون بأنهم إذا احتلوا الأرض وحسبوها بإقامة البيوت والمزارع، تصبح ملكا لهم وكانت حكومات الولايات والحكومة الاتحادية تؤمن بغير هذا فقد بحث المسؤولون بالقوات لإحراق المزارع وتدمير المبانى، وقاتل المستوطنون للحيلولة دون هذا وعندما كان الحنود يرحلون، كان المستوطنون يعيدون البناء ويعيدون إلى استنساخ وسائل الحياة إن ذلك الماضى هو جاضر العالم الثالث

## ثورة مباغثة

قبل ١٩٥٠، كانت بلدان العالم الثالث فى معظمها مجتمعات رراعية منظمة بطرق تجعل سكان أوروبا القرن الثامن عشر يشعرون أنهم أحسنوا صنعا فى بلادهم إذ كان معظم الناس يشتغلون فى الأرض، التى كانت تملكها قلة صغيرة من كبار الملاك، البعض منهم من الأوليغاركية المحلية، والبعض الآخر من المزارعين المستعمرين وكانت المدن صغيرة وتعمل كأسواق وموانئ وليس كمراكز صناعية وكانت تسيطر عليها طبقة تجارية ضئيلة تحمى مصالحها بغلاف سميك من القواعد واللوائح

وبعد ١٩٥٠، بدأت فى العالم الثالث ثورة اقتصادية شبيهة بالاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التى وقعت فى أوروبا فى ١٨٠٠ وطفقت الماكينات الحديدية تقلل الطلب على العمل الريفى، مثلما أخذت الأدوية الجديدة وأساليب الصحة العامة الحديثة تقلل معدلات وميات الأطفال الرضع وتمد أجل الحياة وسرعان ما تدفق مئات الآلاف من الأشخاص على الطرق السريعة التى تم بناؤها موحدا إلى المدن التى كان يتم وضعها على نحو مفر فى برامج الإداعة الحديثة وبدأ سكان المدن يتزايدون سريعا معى الصين وجمها، انتقل ما يزيد على ١٠٠ مليون نسمة من الريف إلى المدن منذ ١٩٧٩ وبعيدا بين ١٩٥٠ و١٩٨٨، ارتفع عدد سكان العاصمة بورت أو برنس من ١٤٠ ألفا إلى مليون و٥٥٠ ألفا وبحلول ١٩٩٨، اقتربوا من المليونين ويعيش نحو ثلثى هؤلاء فى مدن الأكواخ وقد أصيب الحبراء بالإحباط بالفعل من جراء هذا التصاعد فى سكان

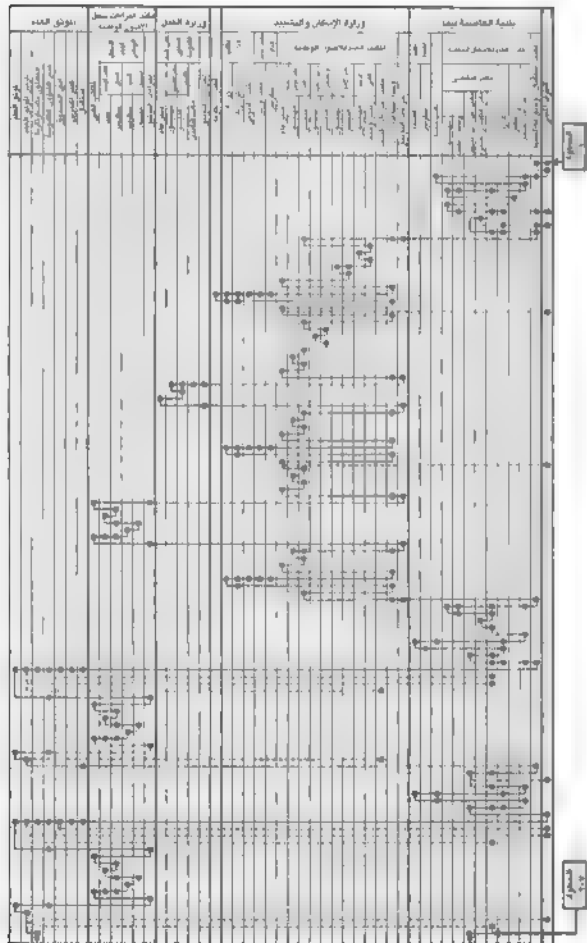
المدن منذ وقت مبكر يرجع إلى ١٩٧٢، قبل حدوث أكثر تدفق بزمان طويل وكما كتب أحد خبراء الحضرة، «فإن كل شيء يحدث كما لو كانت المدينة تنهار» وأصاف «إن البناء بلا ضوابط، يسود في كل مكان ويتم بأى شكل ونظام الصرف الصحى عاجز عن المساعدة في تصريف مياه الأمطار، وينسد كل يوم ويترك السكان في مناطق معينة لا تتوافر فيها بنية أساسية للصرف الصحى ويحتل الباعة الصغار بالمعنى الحرفى أرصفة شارع ديسالينس العريض لقد أصبحت المدينة غير قابلة للحياة فيها»<sup>(٧)</sup>

ولم يتوقع هذا التحول الهائل في الطريقة التي يعيش بها الناس ويعملون، سوى القلة وسعت النظريات التي تساير المودة هي ذلك الوقت بشأن «التعمية» إلى جلب الحدائق إلى الريف فلم يكن مفروصاً أن يجرى الفلاحون إلى المدن بحثاً عن القرن العشرين بيد أن عشرات الملايين حاصوا على أية حال، رغم رد الفعل لذلك المتمثل في العداء المتزايد لهم فقد واجهوا سداً لا يمكن اختراقه من القواعد التي حالت دون وصولهم إلى الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الراسخة قايوماً وكان من الصعب بصورة هائلة على هؤلاء الوافدين الجدد للمدن، الحصول على مسكن قانوني، أو دخول مجال الأعمال الرسمية، أو العثور على عمل قانوني

### عقبات أمام المشروعات

للحصول على مجرد فكرة عن مدى صعوبة حياة المهاجر، فتحنا - أنا والفريق المعاين لي في البحث - ورشة صغيرة للثياب في ضواحي ليما، بيرو وكان هدفنا هو إقامة مشروع جديد وقايومي على نحو كامل، وعندئذ بدأ الفريق في استيفاء الاستثمارات اللازمة، والوقوف في الطوابير، وقاموا برحلات بالحافلات إلى وسط ليما للحصول على كافة الشهادات المطلوبة لتشغيل مشروع صغير في بيرو، حسب نص القانون وكانوا يمضون ست ساعات في اليوم في ذلك وأجيرا سجلوا المشروع - بعد ٢٨٩ يوماً ورغم أنه كان من المستهدف تشغيل ورشة الثياب بمعدل واحد فحسب، فقد بلغت تكلفة

شكل ٢.٧ (١) إجراءات إقامة مدبرل بصورده قانونية في مدبرل بمكور الإجراءات من ٥ مراحل تضم الأولى منها وحدها ٢٠٧ خطوات



التسجيل القايومي ١٢٣١ دولاراً - واحد وثلاثون مثل الحد الأدنى للأجر شهرياً وللحصول على ترخيص رسمي لبناء بيت على أرض مملوكة للدولة، استغرق الأمر ست سنوات وأحد عشر شهراً، وتطلب ٢٠٧ خطوات إدارية في اثنين وخمسين مكتباً حكومياً (انظر الشكل ٢ - ١) وللحصول على سند ملكية قانوني بشأن قطعة الأرض هذه، اقتضى الأمر ٧٢٨ خطوة كما وجدنا أنه لكي يحصل سائق أتوبيس خاص، أو أتوبيس صغير، أو سائق تاكسي على اعتراف رسمي بمساره، فإنه يواجه خطوات روتينية تستغرق ستة وعشرين شهراً

وقد كرر فريق البحث المعاون لي، بمساعدة من زملاء محليين، إجراء تجارب مماثلة في بلدان أخرى ولم تكن العقبات أقل شأناً منها في بيرو، بل كانت عادة أشد ترويعاً ففي الفلبين، إذا بنى شخص ما مسكناً في مستوطنة إما على أرض حضرية مملوكة للدولة أو مملوكة للقطاع الخاص، فإنه يتعين عليه لشرائها أن يقيم رابطة مع جيرانه بغية التأهل للحصول على مساعدة برنامج تمويل الإسكان الحكومي وقد تقتضى العملية بأسرها ١٦٨ خطوة، تتضمن ثلاثاً وخمسين هيئة عامة وخاصة، وتستغرق ما بين ثلاث عشرة وخمسة وعشرين سنة (انظر الشكل ٢ - ٢) هذا بافتراض أن برنامج تمويل الإسكان الحكومي لديه تمويل كاف وإذا حدث أن أقيم المسكن في منطقة لا تزال تعتبر «زراعية»، فإنه يتعين على المستوطن أن يتحلى حواجز إضافية أخرى لتحويل الأرض إلى الاستخدام العمراني - ٤٥ إجراء بيروقراطية إضافية أمام ثلاث عشرة هيئة، مما يضيف إلى مساعاه عامين آخرين

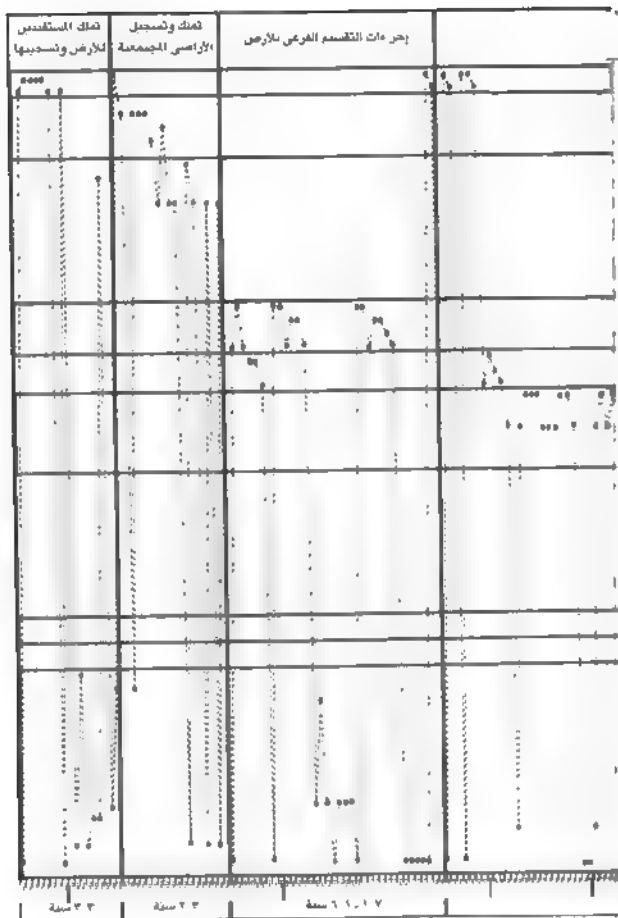
وفي مصر، يتعين على الشخص الذي يرغب في الحصول على قطعة أرض من الصحراء المملوكة للدولة، ويسجلها قانوناً، أن يشق طريقه خلال ٧٧ إجراء بيروقراطية على الأقل في إحدى وثلاثين هيئة عامة وخاصة (انظر الشكل ٢ - ٣) وقد يستغرق هذا في أي مكان ما بين خمس سنوات وأربع عشرة سنة ويتطلب بناء مسكن قانوني على أرض زراعية سابقة من ست سنوات إلى إحدى عشرة سنة من المشاحنات البيروقراطية، وربما أطول من ذلك ويفسر هذا السبب في أن ٤,٧ مليون مصري احتاروا بناء مساكنهم

بصورة غير قانونية وإذا قرر المستوطن بعد بناء بيته أنه يرغب في أن يكون مواطنا ملتزما بالقانون ويشتري الحقوق الخاصة بمسكنه، فإنه يخاطر بهدمه ويقع غرامة باهظة، وأن يمضى في السحب ما يصل إلى عشر سنوات وفي هاييتي، هناك طريق واحد أمام المواطن العادي لتسوية وضعه قانونيا بشأن الأرض الحكومية، يتمثل في أن يستأجرها أولا من الحكومة لمدة خمس سنوات ثم يشتريها بعد ذلك، وعن طريق العمل مع الزملاء في هاييتي، وجد باحثونا أن الحصول على مثل هذه المؤامرة يقتضى ٦٥ خطوة بيروقراطية - تتطلب في المتوسط ما يزيد قليلا على العامين - جميعها لمجرد الحصول على امتياز استئجار الأرض لمدة خمس سنوات وقد تطلب شراء الأرض عبور ١١١ حاجزا بيروقراطيا آخر - واثنى عشرة سنة أخرى (انظر الشكل ٢ - ٤) وإجمالى القرض اللازم للحصول على الأرض بصورة قانونية في هاييتي يبلغ تسع عشرة سنة. ومع ذلك، فحتى اجتياز هذه المحنة الطويلة، لا يكفل أن تبقى الملكية قانونية

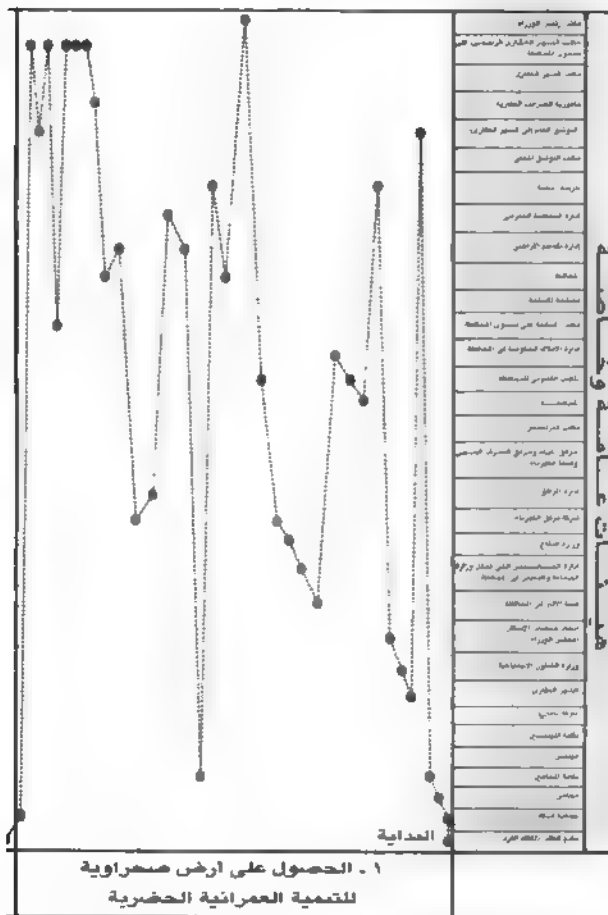
والواقع أننا وجدنا في كل بلد تقصينا أوضاعه، أن بقاء الوضع قانونيا يماثل في صعوبته اكتسابه الصفة القانونية ومن المحتمل، أن المهاجرين لا يحظون القانون بقدر ما يحظهم القانون - ويؤثرون الخروج على النظام وفي ١٩٧٦، كان ثلثا من يعملون في فنزويلا مستخدمين في مشروعات مستقرة قانونا، وتقل النسبة حاليا عن النصف ومنذ ثلاثين عاما خلت، كان القصد من إنشاء أكثر من ثلثي المساكن الجديدة في البرازيل هو تأجيرها. واليوم، فإن نحو ٣ في المائة فقط من الإشاءات الجديدة مسجلة رسميا باعتبارها مساكن للإيجار. أين ذهبت هذه السوق؟ إلى المناطق غير القانونية في المدن البرازيلية المسماة *فافيلا*، التي تعمل خارج الاقتصاد الرسمي المحكم التنظيم، والتي تسير العرض والطلب في عملها. وليس هناك تحديد للإيجارات في *الفافيلا*، وتدفع الإيجارات بالدولار، ويتم طرد المستأجرين الذين لا يدفعون الإيجار سريعا.

ويمجرد أن يهجر هؤلاء الوافدون الجدد للنظام، يصبحون «خارجين على القانون» والبديل الوحيد أمامهم هو أن يعيشوا ويعملوا خارج القانون الرسمي، وأن يستخدموا ترتيباتهم الملزمة بصورة غير رسمية لحماية وتحتة

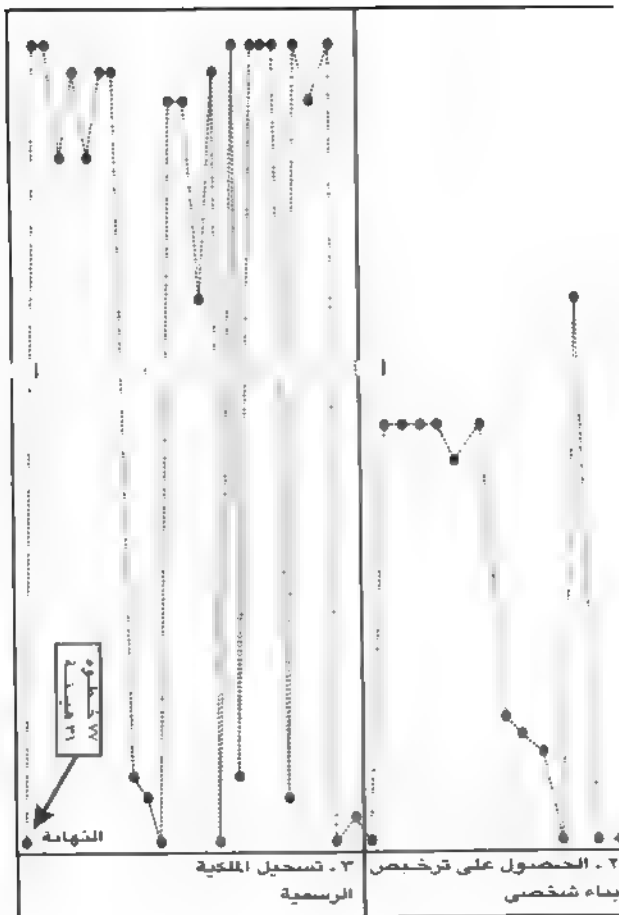




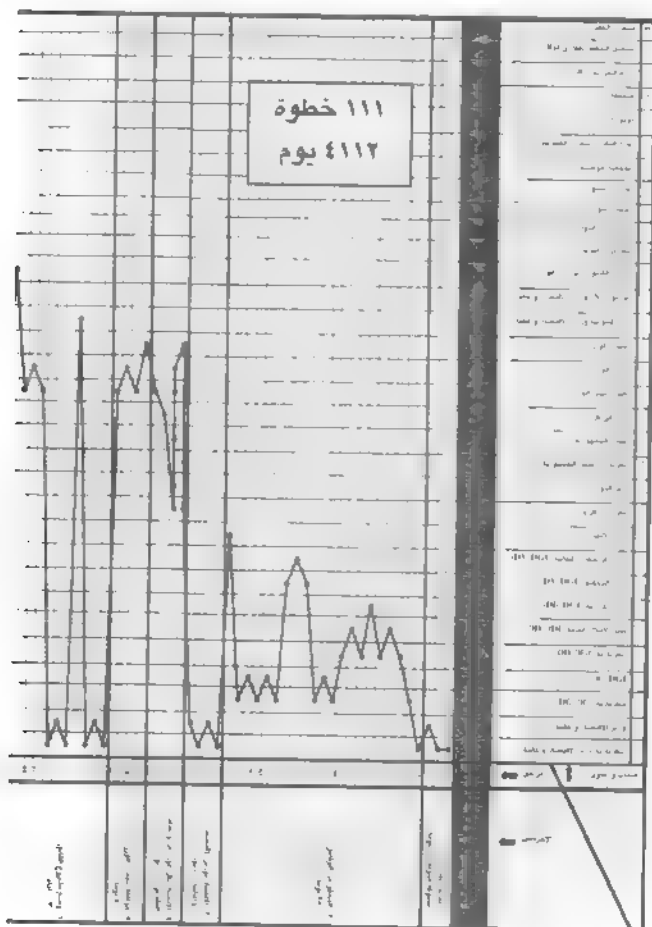
شكل (٣ - ٢) إجراءات اكتساب فرص الحصول على الأراضي الصحراوية لأغراض البناء وتسجيل حقوق الملكية هذه في مصر (٦ - ١٤ سنة)







شكل (٢. ٤) إجراءات إبرام عقد بيع عقلي إبحار لمدة خمس سنوات في هايتي





أصولهم وتتجم هذه الترتيبات من توليفة من القواعد المستعارة بصورة انتقائية من النظام القانوني الرسمي، والارتجال حسب الأحوال، والأعراف المجلوبة من مواطنهم الأصلية والمستنبطة محلها هؤلاء الناس يرتبطون معا بعقد اجتماعي يدعم المجتمع بأسره وتنفذه السلطات التي انتخبها المجتمع وقد خلقت هذه العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بجماعية القانون قطاعا نابضا بالحياة، وإن كان يشكو من عدم كفاية رأس المال، وهو مركز عالم الفقراء

### قطاع يشكو من عدم كفاية رأس المال

رغم أن المهاجرين هم لاجئون من القانون، فنادرا ما انسحبوا إلى التبطل إذ تعج القطاعات التي تشكو عدم كفاية رأس المال في كل أنحاء بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، بالعمل الشاق والإبداع فقد قامت الصناعات الصغيرة المنتشرة على جانبي الشوارع في كل مكان، تصنع كل شيء، من الملابس والأحذية إلى تقليد ساعات «كارتيه»، وحقائب «هويتون»، وهناك ورش تصمم وتعيد تصنيع الآلات والسيارات، بل الحافلات لقد خلق فقراء الحضر الحديد صناعات ومحاورات تأكملها تعمل على وصلات سرية للكهرباء والمياه بل وهناك حتى أطباء أسنان يحشون المجوهرات دون الحصول على ترخيص

ولمست هذه مجرد قصة عن الفقراء الذين يحرمون الفقراء ومنظمو المشروعات الجدد هؤلاء يسدون الثغرات في الاقتصاد الرسمي أيضا إذ تشكل الحافلات، والحافلات الصغيرة وسيارات الأجرة غير المرخص بتسييرها معظم النقل العام في كثير من البلدان النامية وفي أجزاء أخرى من العالم الثالث، يوفر الماعة القادمون من مدن الأكواخ معظم الأعباء المعروضة في السوق سواء من العربات التي تنزع الشوارع أو الأكشاك والنصصات القائمة في البنايات التي يشيّدونها

وهي ١٩٩٢، قدرت غرفة التجارة المكسيكية عدد مصبات الباعة الجائلين في المنطقة الاتحادية لمكسيكوسيتي بمائة وخمسين ألفا، إضافة إلى ٢٩٣ ألفا أخرى في ثلاثة وأربعين مركزا مكسيكيا آخر ويبلغ متوسط عرض هذه الأكشاك الصغيرة ١,٥ متر محسوب ولو صفّا الباعة في مكسيكوسيتي

اكشاكهم ومنصاتهم في شارع واحد دون أن يتركوا فراغا بينهم في نقاط التقاطع، لشكلت صفًا مستمرًا يزيد طوله على ٢١٠ كيلومترات إن الاقفا فوق الآلاف من الأشخاص يعملون في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون - في الشوارع، من بيوتهم، وفي الحوانيت والمكاتب والمصانع غير المسجلة في المدن وقد توصلت محاولة قام بها المعهد الوطني المكسيكي للإحصاء في ١٩٩٤ لحساب عدد «مشروعات الأعمال الصغيرة جدًا» غير الرسمية في البلاد كلها إلى ما مجموعه ٢.٦٥ مليون مشروع

وتلك أمثلة كلها ماضية بالحياة الحقيقية للحياة الاقتصادية في القطاع الذي يشكو عدم كفاية رأس المال في المجتمع بل قد تشاهد في البلدان الشيوعية السابقة أنشطة اقتصادية أكثر تطورًا حارِجة عن المقوف، من إنتاج معدات الكمبيوتر والبرامج الحاضرة له إلى صناعة المقاتلات النفاثة لبيعها في الخارج بالطبع إن لروسيا تاريخًا يختلف عن تاريخ بلدان العالم الثالث مثل هايتي والفلبين ومع ذلك، فبعد سقوط الشيوعية، انزلت الدول السوفيتية السابقة إلى نفس أوضاع الملكية غير الرسمية وفي ١٩٩٥، أوردت مجلة «بيزنس ويك» أنه بعد أربع سنوات من انتهاء الشيوعية، فإن «نحو ٢٨٠ ألف مزارع (مقط) من بين ١٠ ملايين، يملكون أراضيهم» في روسيا ويرسم تقرير آخر صورة مألوفة في العالم الثالث «في الاتحاد السوفيتي السابق» لم تكن حقوق التملك الحاص للأرض واستخدامها ونقل ملكيتها محددة بصورة كافية، ولم يكن القانون يحميها بصورة واضحة ولا ترال الوكالات المستخدمة في اقتصادات السوق لحماية حقوق الأرض تحمو وتواصل الدولة نفسها تقييد استخدام الحقوق المتعلقة بالأرض التي لا تملكها»<sup>(٢٠)</sup> وتبين التقديرات المستندة إلى استهلاك الكهرباء، أنه فيما بين ١٩٨٩ و١٩٩٤، زاد نصيب النشاط غير الرسمي في الدول السوفيتية السابقة من الإنتاج الإجمالي من ١٢ في المائة إلى ٣٧ في المائة بل إن البعض يقدر النسبة بأعلى من ذلك

لا شيء من هذا يعد حديدًا بالنسبة لمن يعيشون خارج الغرب فكل ما تحتاجه هو أن تفتح نافذة أو تترك ناكسيا من المطار إلى فندقك لتشاهد محيطات المدن مكتظة بالبيوت وجيوش الباعة ينادون على بصاعتهم في

الشوارع، وتلمح الورش الصاخبة خلف أبواب الحارات، وتلتقي بالحافلات التي تقاطع مساراتها في شوارع كابية إن عدم التمتع بحماية القانون ينظر إليه عادة باعتباره قصية «هامشية»، تماثل الأسواق السوداء في البلدان المتقدمة، أو الفقر أو البطالة إن العالم القائم خارج نطاق القانون ينظر إليه بصورة نموذجية باعتباره مكانا تتجول فيه العصامات، والشخصيات الهامسة التي لا نهم سوى الشرطة وعلماء الأنثروبولوجيا وبعثات التنشير

والواقع أن مشروعية والتمتع بحماية القانون هي الهامشية، فقد أصبح عدم التمتع بحماية القانون هو القاعدة وسيطر الفقراء بالفعل على مقادير هائلة من العقارات والإنتاج إن تلك الوكالات الدولية التي تدفع بمستشاريها إلى الأبراج الزجاجية التي تومض في الدوائر الأليقة من المدن للقاء مع القطاع الخاص، المحلي، لا تتحدث إلا لحره فقط من عالم تنظيم الأعمال إن القوى الاقتصادية البارعة في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة هم حامعو القمامة، وصناع الأدوات المربلة، وشركات التشييد غير القانونية القائمة في الشوارع المعيدة والاحتياز الحقيقي الوحيد المتاح لحكومات هذه البلدان هو ما إذا كانت ستندمج هذه الموارد في الإطار القسائوي المنظم والمتعاسل، أم تتركها لتستمر في العيش في حالة موصى

### كم يبلغ مقدار رأس المال الذي لا يدرك عائد؟

خلال العقد الماضي، أخرى الباحثون المعاونون لي، بمساعدة المهنيين المحليين العارفين بالأوضاع، مسوحا لحمس من مدن العالم الثالث القاهرة، ليما، مايبلا مكسيكوسيتي، وبورت أو بريس في محاولة لتقدير قيمة ممتلكات هؤلاء الأشخاص الذين استعنتهم القوانين التمييزية عن الاقتصاد الرأسمالي (وقد لحصت هذه النتائج في صورة نياية في الأشكال الواردة في التذييل من ص ٢٤١ - ٢٤٥) ولترداد ثقة في النتائج التي توصلنا إليها، ركزنا انتباهنا على الأصول الثموسة والتي يمكن اكتشافها بدرجة أكثر العقارات وعلى خلاف بيع الأعدية أو الأحذية، وإصلاح السيارات، أو صناعة ساعات كارتيه الرائعة - وهي أنشطة يصعب حصرها، بل يعد تقدير قيمتها

امرا أكثر صعوبة فإن الماسى لا يمكن إخفاؤها ويمكنك أن تحدد قيمتها بمجرد حساب تكاليف مواد البناء، وملاحظة أسعار بيع الماسى المائلة وقد امصيا الآلاف كثيره من الابام ونحن نعدّ الماسى صفا بعد صف وحيثما صُرِّح لنا بذلك، بشرى النتائج التى حصلنا عليها فى كل بلد، حتى يمكن مناقشتها وانتقادها علانية وقمما بالتعاون مع أشخاص فى المواقع، باختصار وإعادة اختبار مناهجنا ونتائجنا

وقد اكتشفنا أن الطريقة التى يبنى بها الناس فى القطاع الذى يعانى عدم كفاية رأس المال تتعدد أشكالها بقدر تعدد العقبات القابولية التى يلتهمون حولها والشكل الأوضح هو الكوخ الذى يتم بناؤه على أرض مملوكة للحكومة ولكن الباحثين المتعاونين معنا اكتشفوا طرقا أكثر إبداعا للالتفاف حول القوابى العقارية وفى بيرو مثلا، شغل الناس تعاونيات رراعية لشراء الممتلكات من ملاكها القدامى وتحويلها إلى مستوطنات سكنية وصناعية وبحرا لعدم وجود طرق قانونية سهلة لتغيير حيازة الأرض، قام المزارعون فى التعاونيات المملوكة للدولة بصورة غير قابولية بتقسيم الأرض من الناطل إلى قطع أصغر ذات حيازة خاصة وبتيحة لذلك، فإن القلة، إن وجدت أصلا، لديها سندات ملكية سليمة لأراضيها وفى بورت - أو - بريس، يتم تغيير وأصمى اليد على الممتلكات العالية جدا دون أن يهتم أحد بأخطار مكتب التسجيل، والذى يتعثر العمل فيه ويتأخر على أية حال وفى مايبلا، تنتصب المساكن على الاراضى المقسمة لمناطق من أجل الاستخدام الصناعى بحسب وفى القاهرة، قام قاطبو مشروعات الاسكان العام المكونة من أربعة أدوار ببناء ثلاثة أدوار بصورة غير قابولية على عماراتهم وباعوا الشقق للأقارب وغيرهم من الرئاس وفى القاهرة أيضا، قام المستأخرون القابوليون للشقق التى حذمت إيجاراتها فى مطلع الخمسينيات عند معالغ تقل قيمتها حاليا عن دولار سنويا بتقسيم هذه الممتلكات إلى شقق أصغر وأجروها سعر السوق

وبعض هذه المساكن لا تتمتع بحماية القانون منذ اليوم الأول، إذ تم بناؤها فى انتهاك لكل أنواع القوابى وشملت مبان أخرى بيوت بورث - أو - بريس، أو شقق القاهرة محددة الإيجار - فى إطار النظام القابولى ثم خرجت عنه، حيث إن الامتثال للقانون أصبح جد مكلف ومعقد وبطريقة أو بآخرى، فإن كل أماكن

السكنى تقريبا هي المدن التي قمنا بمسح لها، حُرحت عن الإطار القانوني - وعن نفس القوابس التي كان يمكنها افتراضا أن تزود الملاك بعمليات الوصف والتمثيل والمؤسسات اللازمة لحلق رأس المال. قد يظل هناك بعض صكوك الملكية أو نوع ما من السجلات هي أيدي شخص ما، لكن الوضع الشرعي للملكية الحقيقية فيما يتعلق بهذه الأصول انزلق بعيدا عن نظام التسجيل الرسمي، مما جعل السجلات والخرائط متقادمة

والمتحيرة هي أن معظم موارد الناس غير مرئية من الناحية التجارية والمالية. فلا يعرف أحد حقا من يملك ماذا أو أين، ومن يمكن مساءلته عن الوفاء بالالتزامات، ومن يعد مسؤولا عن الخسائر والعش. وما هي الآليات المتاحة لإنفاذ سداد مقابل الخدمات والسلع المقدمة والنتيجة، هي أن معظم الأصول المحتملة في هذه البلدان لم يتم تحديدها وتجسيدها ورأس المال الذي يمكن الحصول عليه قليل، واقتصاد التبادل مقيد وراكد

إن صورة القطاع الذي يعاني عدم كفاية رأس المال تحتلف بصورة صارخة عن الفكرة التقليدية عن العالم النامي. ولكن هذا العالم هو الذي يعيش فيه معظم الناس. إنه عالم يصعب فيه تمتع ملكية الأصول وجعلها شرعية، ولا تحكم مجموعة من القواعد يمكن ادراكها وتحديدها قانونيا. حيث لم يتم وصف وتنظيم الخصائص الاقتصادية للأصول التي يحتمل أن تكون مفيدة. حيث لا يمكن استخدامها للحصول على فائض القيمة من خلال الصفقات والمعاملات المتعددة لأن طبيعتها غير المحددة وما يحيط بها من عدم يقين بتركان محالا كبيرا لسوء الفهم، وغيوب الذاكرة، والنكوص عن الاتفاقيات حيث معظم الأصول، باحتصار، هي رأسمال غير منتج لا يدر عائدا

### كم يساوي مقدار رأس المال الذي لا يدر عائدا؟

يملا رأس المال غير المنتج الذي لا يدر عائدا، وفي الواقع تلال منه، شوارع كل البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وفي الفلبين، ووفق حساباتنا، يعيش ٥٧ في المائة من سكان المدن و ٦٧ في المائة من سكان الريف في بيوت



تعد رأس مال لايدر عائدا وفى بيرو، يعيش ٥٣ فى المائة من سكان المدن و٨١ فى المائة من أهل الريف فى مساكن خارجة عن نطاق القانون بل إن الأرقام أكثر إثارة فى هاييتى ومصر فعلى هاييتى، وأيضاً وفق المسوحات التى قمنا بها، يعيش ٦٨ فى المائة من سكان المدن و٩٧ فى المائة من أهل الريف فى مساكن ليس لدى أحد سندات ملكية قانونية واضحة بشأها وفى مصر، فإن الإسكان الذى يعتل رأس مال لايدر عائدا يأوى ٩٢ فى المائة من سكان المدن و٨٣ فى المائة من أهل الريف وكثير من هذه المساكن لا يساوى الكثير بالمقاييس الغربية ذلك أن كوخا فى بورت - أو - برنس قد لا يجلب سوى مبلغ قليل يبلغ ٥٠٠ دولار، ولا تجلب كابينة واقعة على مجرى مائى ملوث فى مانيلأ سوى ٢٧٠٠ دولار، ولا يجلب بيت جيد تماما فى قرية خارج القاهرة سوى نحو ٥٠٠٠ دولار، وفى التلال المحيطة بليما، لا يقدر بيت محترم ذى طابق واحد والملحق به جاراج ونوافذ بأوراما، إلا بعشرين ألف دولار فقط ولكن هناك الكثير جدا من مثل هذه المساكن، وتزيد قيمتها فى مجموعها عن إجمالى ثروة الأغنياء، وفى هاييتى، تساوى الحيازات العقارية الريفية والحضرية التى ليست لها سندات ملكية فى مجموعها نحو ٥,٢ مليار دولار وبوسع هذا المبلغ فى سياقه، نجد أنه يمثل أربعة أمثال مجموع كافة الأصول العاملة بصورة قانونية فى هاييتى، وتسعة أمثال قيمة كل الأصول التى تملكها الحكومة، و١٥٨ مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر فى تاريخ هاييتى المسجل حتى ١٩٩٥ هل هاييتى استثناء، هل هى حرة من إفريقيأ الناطقة بالفرنسية وصعت خطأ فى نصف الكرة الأمريكى، حيث أحر نظام دوماييه ظهور نظام قانونى مبهج؟ ربما فلننظر إذن فى وضع بيرو، وهى بلد أسباني وهندى أمريكى له تقاليد مختلفة وتكوين إثنى مختلف إذ تبلغ قيمة العقارات الحضرية والريفية فى بيرو التى يحوها أصحابها بصورة لا تتمتع بحماية القانون، نحو ٧٤ مليار دولار ويمثل هذا خمسة أمثال القيمة الإجمالية المتداولة فى بورصة ليما قبل انهيار ١٩٩٨، ويزيد إحدى عشرة مرة على قيمة المشروعات والمرافق الحكومية القابلة للخصخصة، ويبلغ أربعة عشر مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر

فى البلاد خلال تاريخها الموثّق هل تجادل أيضا فى ان اقتصاد بيرو الرسمى قد أصيب بالقرزم من جراء تفاليد امبراطورية الإنكا القديمة، والنفوذ الباعث على الفساد لاسبانيا الاستعمارية، والحرب الأخيرة التى شنتها فرق «الدرب المضى» التى تهتدى بتعاليم «ماو»؟

حسن جدا، لنتظر بعدئذ فى حالة الفلبين، وهى محمية آسيوية سابقة للولايات المتحدة فعليا، تلغ قيمة العقارات التى ليس لها سند ملكية ١٢٣ مليار دولار، تشكل أربعة أمثال رسمة ٢١٦ شركة محلية مسجلة فى بورصة الفلبين، وسبعة أمثال إجمالى الودائع فى البنوك التجارية فى البلاد، وتسعة أمثال إجمالى رأس مال المشروعات المملوكة للدولة، وأربعة عشر مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى المباشر

ربما كانت الفلبين أيضا استثناء وخروجا على القياس - أمر يرتبط بكيفية تطور المسيحية فى المستعمرات الاسبانية السابقة فإن كان الأمر كذلك، فلننظر فى حالة مصر إذ تبلغ قيمة رأس المال الذى لا يدر عائدا فى العقارات، وفق الحسابات التى أجريناها مع زملائنا المصريين، نحو ٢٤٠ مليار دولار ويبلغ هذا ثلاثين مثل قيمة كل الأسهم المسجلة فى بورصة القاهرة، ويبلغ، كما سبق أن ذكرت، خمسة وخمسين مثل قيمة كل الاستثمار الأجنبى فى مصر.

وفى كل بلد درسنا احواله، خلق إبداع الفقراء فى مجال تنظيم المشروعات ثروة واسعة النطاق - ثروة تشكل حتى الآن أكبر مصدر لرأس المال المحتمل اللازم للتنمية ولا تريد هذه الأصول كثيرا على حيازات الحكومة، والمتداول فى البورصات المحلية، والاستثمار الأجنبى المباشر فحسب؛ وإما تزيد مرات عديدة على كل المعونة المتلقاة من البلدان المتقدمة، وكل القروض التى يمنحها البنك الدولى

بل إن النتائج أكثر إثارة للدهشة عندما نستمد البيانات من البلدان الأربعة التى درسناها ونسقطها على بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة كلها لقد قدرنا أن نحو ٨٥ فى المائة من قطع الأرضى فى الحضر فى هذه البلدان، وبين ٤٠ و٥٣ فى المائة من قطع الأرضى فى الريف، تتم حيازتها

بطريقة لا يمكن معها استخدامها لخلق رأس المال إن خلع قيمة على كل هذه الأصول قد تحقق جتما بأعداد تقريبية، ولكننا نعتقد أن تقديرنا دقيقة بقدر الإمكان ومتحفظة تماما

ووفق حساباتنا، فإن القيمة الإجمالية للعقارات التي يحوّزها الفقراء، وإن لم يملكوها بصورة قانونية، في العالم الثالث وفي البلدان الشيوعية السابقة، تبلغ على الأقل ٩,٣ تريليون دولار (انظر الجدول ٢ - ١)

وذلك رقم له قيمته ووزنه الكبيرين. ذلك أن ٩,٣ تريليون دولار تمثل نحو ضعف إجمالي عرض النقود المتداولة في الولايات المتحدة وهو مبلغ يساوي تقريبا القيمة الإجمالية لكل الشركات المسجلة في البورصات الرئيسية في أكثر ٢٠ بلدا تقدما في العالم نيويورك، وطوكيو، ولندن، وفرانكفورت، وتورنتو، وباريس، وميلانو، وناسداك، وبسته أخرى. وتزيد على عشرين مثل إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في كل بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة في السنوات العشر بعد ١٩٨٩، وستة وأربعين مثل كافة قروض البنك الدولي في العقود الثلاثة الأخيرة، وثلاثة وتسعين مثل كل مساعدات التنمية المقدمة من كافة البلدان المتقدمة للعالم الثالث في نفس الفترة

### هدادين من الأمان

إن عبارة «الفقر الدولي» تورد على خاطر فورا صور الشحاذين المعدمين الذين ينادون فوق أرصفة شوارع كالكتا، والأطفال الأفارقة الجوعى الذين يموتون من المسغبة على الرمال بالطبع إن تلك مشاهد حقيقية، ويطلب الملايين من بنى جلدتنا من البشر المساعدة، وهم يستحقونها ومع ذلك، فإن الصورة الأشد كاتمة للعالم الثالث ليست هي الأكثر دقة والأسوأ من ذلك، أنها تصرف الاهتمام عن الإنجازات صعبة المرتقى لصغار منظمي المشروعات الذين انتصروا على كل العقبات التي يمكن تخيلها لخلق الجزء الأكبر من ثروة مجتمعهم إن صورة أكثر صدقا سوف تصف الرجال والنساء الذين ادخروا بكد واجتهاد لينبؤا منزلا لأنفسهم وأطفالهم، والذين يشنون المشاريع حيث لم يتحيل أحد إمكان قيامها وإننى أعترض على وصف منظمي المشروعات



**الابطال هؤلاء بانهم مساهمون في مشكلة الفقر العالمي**

إنهم ليسوا المشكلة، بل إنهم هم الحل

ففى السنوات التى أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية، ذرع محاضر اسمه روسيل كونويل مختلف أرجاء أمريكا يبشر برسالة حركت ملايين الأشخاص كان يروى حكاية تاجر هندى وعده أحد العرّافين بأنه لا ريب سيصبح غنيا بما يفوق الحىال، فقط إذا بحث عن كنزه وجاب التاجر العالم فقط ليعود إلى بلده عجورا حزينا ومهروما وعندما همّ بدخول منزله المهجور، شعر بالرغبة فى شربة ماء لكن البئر الموجودة فى أملاكه كانت قد انطمرت وأخذ وهو مكدود جاروفه ليحفر بئرا جديدة - ولما هم بذلك ارتطم قوفاً بالجولكوندا، أكبر منجم للآلأس فى العالم

إن رسالة كونويل رسالة مفيدة ولا يقتضى الأمر أن يذرع قادة بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة الوزارات الأجنبية، ولا المؤسسات المالية الدولية بحثا عن حظهم ففى حصص أفقر المنجاورات ومدن الكواخ لديهم، يوجد - إن لم يكن فدادين من الآلأس - تريليونات من الدولارات، كلها جاهزة لوضعها موضع الاستعمال، فقط إذا أمكن التوصل إلى السر الذين يبين كيف يمكن تحويل هذه الأصول إلى رأس مال حى يدر عائدا



## الفصل الثالث

# سرّ رأس المال

إنّ الوعي بالعالم لابد وأن يقع خارجه، ففى العالم، كل شيء على ما هو عليه، ويحدث بالصورة التى يحدث بها ولا توجد قيمة فيه - وإذا وجدت، فسلكى بلا قيمة  
ولذا كانت هناك قيمة لها قيمة، فلابد أن تكمن خارج كل ما يحدث وأن تكمن كذلك لأن كل ما يحدث ويكون كذلك يتم عرضا  
إن ما يحدث غير عارض لا يمكن أن يقع فى العالم، لأنه فى غير هذا، سيصبح عرضا من جديد  
لابد أن يقع خارج العالم

— لويجيج فيتجنشتاين، «مسيرة المنطق الفلسفى»

إذا سرت فى معظم طرق الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتى السابق، أو أمريكا اللاتينية، فسترى أشياء كثيرة. منازل مستخدمة كমাوى، وقطع من الأراضي الزراعية تمت حرثتها وبذر البذور فيها وحصاد محصولها، وسلع تباع وتشتري إن الأصول فى البلدان النامية وفى البلدان الشيوعية السابقة تخدم فى المحل الأول هذه الأغراض المادية المباشرة بيد أن نفس الأصول فى الغرب تحيا أيضا حياة موازية، باعتبارها رأس مال خارج العالم المادى إذ يمكن استخدامها لبعث الحركة فى أوصال مزيد من الإنتاج كغفالة مصالح أطراف أخرى «كضمان» لرهن مثلا، أو بضمان الإمداد بأشكال أخرى من الائتمان والمرافق العامة

لماذا لا تستطيع المبانى والأراضى فى أماكن أخرى من العالم أن تحيا

حياة موازية؟ لماذا لا تستطيع الموارد الضخمة التي ناقشناها في الفصل الثاني - ٩ ٢ تريليون دولار من رأس المال الذي لا يدر عاندا - أن تنتج قيمة فيما وراء حالتها «الطبيعية»؟ ويرد على هذا، هو أن رأس المال الذي لا يدر عاندا يوجد لأننا نسينا (أو ربما لم ندرك مطلقاً) أن تحويل أصل مادي لتوليد رأس مال - باستخدام ذاك لاقتراض النقود لتمويل مشروع، مثلاً - يتطلب عملية معقدة جداً لا تختلف عن العملية التي علمها لنا أينشتين، والتي بمقتضاها يمكن جعل قرميدة واحدة تطلق قدراً هائلاً من الطاقة في شكل انفجار ذري وعلى غرار ذلك، فإن رأس المال هو نتيجة لاكتشاف وإطلاق طاقة كامنة من تريليونات من القرميد راكمها الفقراء في مبانهم.

بيد أن هناك فرقاً حاسماً واحداً بين إطلاق الطاقة من قرميدة وإطلاق رأس المال من المبانى المشيدة بالقرميد فعلى الرغم من أن البشر (أو على الأقل مجموعة كبيرة من العلماء) سيطروا على عملية الحصول على الطاقة من المادة، يبدو أننا نسينا العملية التي تتيح لنا الحصول على رأس المال من الأصول والنتيجة هي أن ٨٠ في المائة من العالم يعاني نقصاً في رأس المال؛ وأن الناس لا يستطيعون أن يستمدوا الحياة الاقتصادية من مبانهم (أو من أي أصول أخرى) لتوليد رأس المال والأسوأ من ذلك، أن الدول المتقدمة تبدو عاجزة عن تعليمهم لماذا يمكن جعل الأصول تنتج رأس مال وفير في الغرب، ولكن لا تنتج سوى القليل جداً منه في باقي العالم، ولماذا يعد هذا سراً.

### مفاتيح لحل السرّ من الماضي (من سميث إلى ماركس)

لكشف سرّ رأس المال، ينبغي أن نعود إلى المعنى الذي يشكل بذرة الكلمة ففي اللغة اللاتينية في العصر الوسيط، يبدو أن كلمة «رأس المال» كانت تدل على رأس من الماشية أو غيرها من الثروة الحيوانية، والتي كانت دوماً مصادر مهمة للثروة إلى جانب اللحم الأساسي الذي توفره والثروة الحيوانية ممتلكات قصيرة الأجل، وهي ثروة منقولة ويمكن إبعادها عن الخطر، ويسهل أيضاً عدّها وقياسها لكن الأمر الأكثر أهمية هو أنه يمكنك أن تحصل من



**الثروة الحيوانية على ثروة إصاافية، أو على قانض القيمة، بتشغيل صناعات اخرى، بما فى ذلك صناعات الألمان وجلود الحيوان والصوف واللحوم والوقود كما أن للثروة الحيوانية سمة مفيدة هى قدرتها على إعادة إنتاج نفسها وهكذا يبدأ مصطلح «رأس المال» يؤدى وظيفتين فى نفس الوقت، الاستئثار بالبعد المادى للأصل (الثروة الحيوانية) وكذلك إمكانيته لتوليد قانض القيمة وكانت هناك خطوة قصيرة فحسب من الفناء المادى لمُخرن الجبوب إلى مكاتب محترعى علم الاقتصاد، الذين كانوا بصفة عامة يحددون «رأس المال» باعتباره جزءاً من أصول البلاد يستهل فائض الإنتاج وزيادة الإنتاجية**

وكان علماء الاقتصاد الكلاسيكيون العظام آدم سميث إلى كارل ماركس، يعتقدون أن رأس المال هو المحرك الذى يزود اقتصاد السوق بالقوة المحركة وكان رأس المال يعتبر الجزء الرئيسى فى الكل الاقتصادى - العامل المبرز وكان ما يريدون فهمه هو ماهية رأس المال، وكيف يتم إنتاجه ويتحقق تراكمه وسواء اتفقت أم لا مع علماء الاقتصاد الكلاسيكيين، حتى وإن اعتبرتهم بلا قيمة ولا شأن لهم (ربما لم يفهم سميث مطلقاً أن الثروة الصناعية كانت قيد الحدوث؛ وربما لم يكن لنظرية ماركس عن العمل - التى تتحدث عن القيمة - تطبيق عملى)، فلا شك أن هؤلاء المفكرين قد شادوا صروحاً شاهقة للفكر نستطيع الآن أن نقف عليها ونحاول التوصل إلى ما هية رأس المال، وما الذى ينتجه، ولماذا تنجح الدول غير الغربية مثل هذا القدر الضئيل منه؟

وبالنسبة لسميث، كان التخصص الاقتصادى - تقسيم العمل وما يترتب عليه من تبادل المنتجات فى السوق - هو مصدر الإنتاجية المتزايدة، ومن ثم «ثروة الأمم» وكان رأس المال هو الذى جعل التخصص والتبادل أمراً ممكناً، وقد حدده سميث باعتباره رصيد الأصول المتراكمة لأغراض إنتاجية واستطاع منظمو المشروعات استخدام مواردهم المتراكمة لدعم المشروعات المتخصصة، حتى يستطيعوا مبادلة منتجاتهم مقابل أشياء أخرى يحتاجونها وكلما زاد تراكم رأس المال، أصبح فى الإمكان تحقيق مزيد من التخصص، وارتفعت إنتاجية المجتمع ووافق ماركس على ذلك؛ ومن جانبه فهو يرى أن

الثروة التي تنتجها الرأسمالية تجعل نفسها تتراى فى ركام هائل من السلع الأساسية.

وكان سميث يعتقد أن ظاهرة رأس المال كانت نتيجة تقدم الإنسان الطبيعي من مجتمع صيد الحيوانات والرعى والزراعة إلى المجتمع التجارى، حيث استطاع أن يزيد قدرته الإنتاجية بصورة هائلة من خلال التكافل المتبادل والتخصص والتجارة. كان على رأس المال أن يكون هو السحر الذى يعزز الإنتاجية ويخلق فائض القيمة وقد كتب سميث يقول: «إن مقدار الصناعة لايزيد فقط فى كل بلد مع زيادة الرصيد (رأس المال) الذى يستخدمه، بل إن نفس المقدار من الصناعة ينتج مقدار اكبر من العمل، من جراء تلك الزيادة»<sup>(١)</sup>.

وقد أكد سميث على نقطة هى لب السر الذى نحاول حله فلكى تصبح الأصول المتراكمة رأس مال منتج، وتحرك إنتاجا إضافيا، ينبغى تحديدها وتثبيتها، وتجسيدها فى هدف معين، «يدوم بعض الوقت على الأقل بعد انتهاء العمل، لقد كان ولايزال يمثل مقدارا معيناً من العمل يختزن ويضرن لاستخدامه، عند الضرورة، فى مناسبة ما أخرى»<sup>(٢)</sup> وقد حذر سميث من أن العمل المستثمر فى إنتاج الأصول، لن يترك أى اثر أو قيمة إن لم يتم تثبيته وتحديده على نحو صحيح

ربما يستحق ما كان يقصده سميث حقاً أن يكون موضع نقاش مشروع، بيد أن ما استخلص منه هو أن رأس المال ليس هو الرصيد المتراكم من الأصول، وإنما الإمكانية التى تحوزها فى أن تنتشر إنتاجاً جديداً بالطبع إن هذه الإمكانية مجردة إذ ينبغى معالجتها، وتحديدها وتثبيتها فى شكل ملموس قبل أن نستطيع إطلاقها - تماماً مثل الطاقة النووية الكامنة لقرميدة آيشتين فبدون عملية التحويل - وهى التى تستخلص وتحدد وتثبت الطاقة الكامنة التى تحويها القرميدة - لن يحدث انفجار فالقرميدة هى مجرد قرميدة ويطلب خلق رأس المال أيضاً عملية تحويل.

وكان هذا المفهوم - وهو أن رأس المال هو أولاً مفهوم مجرد، وينبغى إعطاؤه شكلاً محدداً ثابتاً ولملموساً لكى يكون مفيداً - مألوفاً لدى

الاقتصاديين الكلاسيكيين الآخرين فقد كتب سيموند دى سيسموندى، الاقتصادى السويسرى الذى عاش فى القرن التاسع عشر، أن رأس المال «كان قيمة دائمة تتضاعف ولا تفنى» وعندئذ تنفصل هذه القيمة عن المنتج الذى يخلقها، وتصبح كمية ميتافيزيقية وغير مادية توجد دوماً فى حيازة من ينتجها أياً كان، والذى يمكن (تحديد وتثبيت) هذه القيمة فى أشكال مختلفة بالنسبة له»<sup>(٣)</sup> وقد كان الاقتصادى الفرنسى العظيم حان يابيتيست سائى يؤمن بأن «طبيعة رأس المال لا مادية على الدوام» حيث إنه ليست المادة هى التى تشكّل رأس المال، وإنما قيمة هذه المادة، وليس هناك شىء مادى بشأن القيمة»<sup>(٤)</sup> وقد وافق ماركس على ذلك، ورأى أن المائدة يمكن صنعها من شىء مادى مثل الخشب، «ولكن بمجرد أن تقدم كسلعة، تتغير إلى شىء ما متعال فهى لا تقف على قدميها فقط على الأرض، وإنما تقف بالنسبة لكل السلع الأخرى، تقف على رأسها، وهى تنشأ عن الأفكار الغريبة لعقلها الخشبى، وهو أمر أكثر إثارة للدهشة مما كانت عليه خراطة المائدة»<sup>(٥)</sup>

وقد ضاع هذا المعنى الأساسى لرأس المال على مرّ التاريخ فرأس المال يتم الخلط حالياً بيه وبين النقود، والذى ليست سوى شكل واحد من أشكال عدة يترحل بها وعلى الدوام، فإن تذكر مفهوم صعب فى أحد تجلياته الملموسة أيسر من تذكره فى جوهره ذلك أن العقل يلتفت حول «النقود» بأيسر مما يلتفت حول «رأس المال» ولكن من الخطأ افتراض أن النقود هى فى النهاية ما يحدد ويثبت رأس المال ومثلما أوضح آدم سميث، فإن النقود هى «عجلة التداول الكبرى»، ولكنها ليست رأس مال: لأن القيمة «لا يمكن أن تتمثل فى هذه القطع المعدنية»<sup>(٦)</sup> بعبارة أخرى، إن النقود تيسر المعاملات، وتسمح ببيع الأشياء وشراؤها، ولكنها ليست فى حد ذاتها هى السلف بالنسبة للإنتاج الإضافى ومثلما ألح سميث، فإن «النقود الذهبية والفضية، التى يجرى تداولها فى بلدان كثيرة، ربما يمكن بصورة سليمة جداً مقارنتها بالطريق السريع، الذى فى حين أنه يوزع وينقل إلى السوق كل الكلا والذرة فى البلاد، فإنه لا ينتج هو نفسه، أى مقدار من أى منهما»<sup>(٧)</sup>

إن جامدا كبيرا من سرُ رأس المال يتدد بمجرد أن تتوقف عن أن تفكر في «رأس المال» باعتباره مرادفا «للقود المدخرة والمستثمرة» وأشك في أن سوء الفهم القائل بأن النقود هي التي تحدد وتثبت رأس المال، قد نجم عن أن مشروعات الأعمال الحديثة تعبر عن قيمة رأس المال بمقياس النقود والواقع، أنه من الصعب تقدير القيمة الإجمالية لمجموعة من الأصول المختلفة الأنواع للغاية، مثل الماكينات، المباني، والأرض، دون الاستعانة بالنقود وفي نهاية المطاف، فإن هذا هو السبب في اختراع النقود فهي توفر مؤشرا مطلقا لقياس قيمة الأشياء حتى تستطيع تماثل الأصول غير المتماثلة ولكن رغم فائدة النقود، فإنها لا يمكن أن تثبت وتحدد بأى طريقة الإمكانية المجردة لأى أصل معين بغية تحويله إلى رأس مال وقد اشتهرت بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة بأنها أصابت اقتصادها بالتضخم بواسطة النقود - في حين لم تكن قادرة على توليد كثير من رأس المال

### الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) هي الأصول

ما هو الشيء الذي يثبت ويحدد الإمكانات الكامنة في أصل ما حتى تستطيع أن تخلق إنتاجا إضافيا؟ ما الذي يوصل القيمة عن مجرد بيت، ويحددها ويشبثها بطريقة تتيح لنا إدراك أنها رأس مال؟

يمكن أن نبدا بإيجاد الإجابة باستخدام المثال الخاص بالطاقة التي نستخدمها لننظر في حالة بحيرة جبلية يمكن أن يدور فكرنا حول هذه البحيرة في سياقها المادى المباشر، ونرى بعض الاستخدامات الأولية لها، مثل التجديف بالقوارب وصيد الأسماك ولكن عندما نتأمل هذه البحيرة نفسها من منظور مهندس، بالتركيز على قدرتها على توليد الطاقة كقيمة مضافة فيما وراء الحالة الطبيعية للبحيرة باعتبارها كيانا مائيا، نكتشف فجأة الإمكانات الكامنة التي يوفرها موقع البحيرة المرتفع والتحدى الذى يواجهه المهندس هو التوصل إلى الطريقة التي يستطيع بها خلق عملية تتيح له تحويل وتحديد وتثبيت هذه الإمكانية الكامنة إلى شكل يمكن استخدامه للقيام بعمل إضافي

وفى حالة البحيرة المرتفعة، فإن هذه العملية تتمثل فى إقامة محطة كهرومائية تتيح تحرك مياه البحيرة سريعاً فى اتجاه السقوط بقوة الجاذبية، وبذلك يتم تحويل إمكانات البحيرة الكامنة الراكدة لإنتاج الطاقة إلى طاقة حركية للمياه التى تسقط بسرعة. وعندئذ يمكن لهذه الطاقة الحركية الجديدة أن تدير التوربينات، فتخلق طاقة ميكانيكية يمكن استخدامها لإدارة وحدات المغناطيس الكهربائى التى تحولها عندئذ إلى طاقة كهربائية. وباعتبارها كهرباء، فإن الطاقة الكامنة للبحيرة الراكدة (طاقة الوضع) تم تحييدها وتثبيتها عندئذ فى الشكل اللازم لإنتاج تيار يمكن التحكم فيه، ويمكن نقله بعد ذلك من خلال الموصلات السلكية إلى أماكن بعيدة لنشر إنتاج جديد.

وهكذا، فإن بحيرة راکدة فى الظاهر يمكن استخدامها لإضاءة غرفتك وإدارة الماكينات فى مصنع ما. والشئ الذى كان مطلوباً هو عملية خارجية من صنع الإنسان أتاحت لنا أولاً، تصيد الإمكانات الكامنة فى وزن المياه للقيام بعمل إضافى، وثانياً، تحويل هذه الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) إلى كهرباء، يمكن عندئذ استخدامها لخلق فائض القيمة. إن القيمة المضافة التى نحصل عليها من البحيرة ليست قيمة البحيرة نفسها (مثل خام نفيس ذاتى بالنسبة إلى الأرض) بل عملية من صنع الإنسان غير ذاتية بالنسبة للبحيرة. إن هذه العملية هى التى تتيح لنا تحويل البحيرة من نوع من الأماكن مخصص للتجديف بالقوارب وصيد الأسماك إلى نوع من الأماكن منتج للطاقة.

إن رأس المال، مثله مثل الطاقة، له أيضاً قيمة هاجعة وراكدة غير مستخدمة. ويتطلب بعث الحياة فى أوصاله المضى إلى ما وراء النظر إلى الأصول التى لدينا كما هى عليه، إلى التفكير فيها حسبما يمكن أن تكون عليه. ويتطلب ذلك عملية لتحديد وتثبيت الإمكانيات الاقتصادية الكامنة فى أصل ما فى شكل يمكن استخدامه لاستهلاك إنتاج إضافى.

ورغم أن العملية التى تحول الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) فى المياه إلى كهرباء معروفة جيداً، فإن العملية التى تخلع على الأصول الشكل المطلوب لتحقيق مزيد من الإنتاج ليست معروفة بعبارة أخرى، فإنه فى حين أننا نعرف أن بوابات الخزانات والتوربينات والمولدات والمحولات والأسلاك الخاصة بشبكة الطاقة الكهربائية هى التى تحول الطاقة الكامنة (طاقة الوضع)

للبحيرة حتى يتم تحديدها وتثبيتها فى شكل يمكن الحصول عليه، فإننا لا نعرف أين نجد العملية الأساسية التى تحول الإمكانية الاقتصادية لبيت ما إلى رأس مال

ويرجع هذا إلى أن تلك العملية الأساسية لم توضع قصدا لخلق رأس المال، وإنما لغرض دنيوى بدرجة أكبر هو حماية الملكية العقارية. فمع نمو نظم الملكية فى البلاد الغربية، تطورت على نحو لا يمكن إدراكه تشكيلة من الآليات التى اندمجت تدريجيا فى عملية تمخضت عن رأس المال كما لم يحدث مطلقا من قبل ورغم أننا نستخدم هذه الآليات طوال الوقت، فإننا لم ندرك أن لها وظائف فى توليد رأس المال لأنها لم تحمل هذا العنوان. إننا ننظر إليها باعتبارها أجزاء من نظام يحمى الملكية، وليس باعتبارها أداة توشع بين الآليات اللازمة لتحديد وتثبيت الإمكانات الاقتصادية الكامنة فى أصل ما بطريقة يمكن لها تحويله إلى رأس مال بعبارة أخرى، فإن ما يخلق رأس المال فى الغرب، هو عملية ضمنية مطورة فى تعقيدات نظم الرسمية للملكية

### عملية التحويل المستترة فى الغرب

قد يبدو هذا أمرا جدّ بسيط، أو جدّ معقد ولكن لننظر فيما إذا كان ممكنا استخدام الأصول بصورة منتجة إن لم تكن تفص شيئا ما أو شخصا ما أين نؤكد وجود هذه الأصول والمعاملات التى تحولها وترفع إنتاجيتها، إن لم يكن فى سياق نظام رسمى للملكية؟ أين سجل السمات الاقتصادية المهمة للأصول، إن لم يكن فى السجلات وسندات الملكية التى تنص عليها النظم الرسمية للملكية؟ أين توجد مدونات السلوك التى تحكم استخدام ونقل ملكية الأصول، إن لم يكن فى إطار نظم الملكية الرسمية؟ إن الملكية الرسمية هى التى توفر العمليات والأشكال والقواعد التى تحدد وتثبت الأصول فى وضع يتيح لنا إدراكها باعتبارها رأس مال منتج

وفى الغرب، بدأ نظام الملكية الرسمى يحول الأصول إلى رأس مال، بوصف وتنظيم جوانب الأصول الأكثر فائدة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.

والاحتفاظ بهذه المعلومات في نظام للتسجيل - باعتبارها ضميمات في دفتر استناد مكتوب، أو علامة ضمنية على ديسك كومبيوتر - ثم يتم إدراجها في سند للملكية وتحكم هذه العملية كلها، مجموعة من القواعد القانونية المفصلة والمحددة وهكذا، فإن سجلات الملكية وسندات الرسمية تمثل مفهومها المشترك عما يشكل المعنى الاقتصادي لأي أصل. إذ تعكس وتنظم كل المعلومات ذات الصلة المطلوبة لتحديد مفهوم القيمة الكامنة لأصل ما، ومن ثم تتيح لنا التحكم فيها إن الملكية هي المجال الذي نحدد فيه ونتقصى الأصول، ونجمع بينها ونربطها بالأصول الأخرى. إن نظام الملكية الرسمي هو المحطة الكهربائية لرأس المال هذا هو المكان الذي يولد فيه رأس المال

إن أي أصل لم تحدد وتثبت جوانبه الاقتصادية والاجتماعية في نظام رسمي للملكية، يصعب لأقصى حد تحركه في السوق، فكيف يمكن مراقبة تغير مآل تلك المقادير الضخمة من الأصول في اقتصاد السوق الحديث، إن لم يكن من خلال عملية رسمية للملكية؟ فبدون مثل هذا النظام، تتطلب التجارة في أصل ما، لنقل مثلاً عقارا، جهدا هائلا لجرد تحديد أساسيات التعامل. هل يملك البائع، العقار وله حق نقل ملكيته؟ هل يمكنه إبرام تعهدات بشأنه؟ هل يقبل من يتفنون حقوق الملكية المالك الجديد بما هو عليه؟ ماهي الوسائل الفعالة لاستبعاد المدعين الآخرين بالحق؟ تصعب الإجابة على هذه الأسئلة في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة. فليس هناك مكان تثبت فيه الإجابات على نحو يعول عليه، بالنسبة لمعظم السلع وهذا هو السبب في أن بيع بيت أو تأجيريه قد يتضمن إجراءات مطولة ومرهقة للموافقة تشمل كل الجيران، وهذه عادة هي الطريقة الوحيدة للتحقق من أن المالك يملك فعلا المنزل، وأنه ليست هناك إنعاءات أخرى بالحق بشأنه وهذا هو السبب أيضا في أن تبادل معظم الأصول خارج الغرب مقصور على الدوائر المحلية للشركاء في التبادل

ومتعلما رأينا في الفصل السابق، فإن المشكلة الأساسية التي تواجهها هذه البلدان لا تتمثل في الافتقار إلى القدرة على تنظيم المشروعات فقد راكم العقراء ما قيمته تريليونات الدولارات من العقارات خلال الأربعين سنة

الماضية إن ما يفتقر إليه الفقراء هو سهولة الوصول إلى اليات الملكية التي يمكن أن تحدد وتثبت بصورة قانونية الإمكانيات الاقتصادية الكامنة لأصولهم، حتى يمكن استخدامها لإنتاج وضمائم وتأمين قيمة أعلى في السوق الموسعة ففي الغرب، فإن كل أصل كل قطعة أرض، كل بيت، كل ملك منقول - محدد ومثبت رسمياً في سجلات يجرى تحديثها، وتحكمها قواعد متصنة في نظام الملكية إن كل زيادة في الإنتاج، كل مبنى جديد، وكل منتج، وكل شيء له قيمة تجارية، هو ملكية رسمية لشخص ما وحتى لو كانت الأصول تخص شركة ما، يظل الناس الحقيقيون يملكونها بصورة غير مباشرة، من خلال سندات الملكية التي تشهد على أنهم يملكون الشركة باعتبارهم «حصة أسهم».

ومثل الطاقة الكهربائية، فإن رأس المال لن يتم توليده إن لم يكن المرفق الرئيسي الوحيد الذي ينتجه ويحدده ويشته قائماً ومثلما أن البحيرة تحتاج إلى محطة كهرومائية لإنتاج الطاقة الصالحة للاستخدام، فإن الأصول تحتاج إلى نظام رسمي للملكية لإنتاج فائض قيمة كبير. فبنون ملكية رسمية لاستغلال إمكانياتها الاقتصادية الكامنة وتحويلها إلى شكل يمكن نقله والتحكم فيه بسهولة، فإن أصول البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تشبه المياه في بحيرة في أعالي الأنديز - رصيد غير مستغل من الطاقة الكامنة (طاقة الوضع)

لماذا يصبح تكوين رأس المال سراً كهذا؟ لماذا لم تشرح دول العالم الغنية، التي تسارع بتقديم مشورتها الاقتصادية، كيف أن الملكية الرسمية أمر لاغنى عنه لتكوين رأس المال؟

والإجابة هي أنه يصعب لأقصى حد تصور العملية القائمة خلال نظام الملكية الرسمي التي تعطل تحول الأصول إلى رأس مال. ذلك أنها مستترة في آلاف النصوص الخاصة بالتشريع واللوائح والتنظيمات والمؤسسات التي تحكم النظام وكل من يقع في إسار الشرك القانوني، يصعب عليه تخيل كيف تعمل هذه العملية في الواقع والطريقة الوحيدة لرؤيتها هي من خارج النظام - من القطاع الواقع خارج القانون - حيث قمت وزملائي بمعظم العمل.

ومنذ فترة ولان، كنت انتظر للقانون من وجهة نظر غير قانونية، لكي أفهم



على نحو أفضل كيف يعمل وماهى الآثار التى ينتجها وليس هذا ضربا من الجنون كما يبدو فمثلا أكد ميشيل فوكو، الفيلسوف الفرنسى، فقد يكون من الأيسر اكتشاف ما يعنيه شئ ما بالنظر إليه من جانب الجسر المقابل وقد كتب فوكو يقول: «للتوصل إلى ما يعنيه مجتمعنا بسلامة العقل، ربما يتعين علينا أن ندرس ما يحدث فى ميدان الجنون وأن ندرك ما نعنيه بالمشروعية بما يحدث فى مجال عدم المشروعية»<sup>(٨)</sup> وإضافة لذلك، فإن الملكية، مثلها مثل الطاقة، هى مفهوم: لا يمكن اختصارها مباشرة ولم تشهد الطاقة المحضنة مطلقا ولم يتم لمسها ولا يستطيع أى إنسان أن يرى الملكية والمرء لا يستطيع أن يختبر الطاقة والملكية إلا بآثارهما.

ومن وجهة نظرى فى القطاع الواقع خارج القانون، رأيت نظم الملكية الرسمية هى الغرب تنتج ستة آثار تتيح لمواطنيه توليد رأس المال. وينبع العجز الذى نشاهده فى الأماكن الأخرى من العالم عن نشر رأس المال، من حقيقة أن معظم الناس فى العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة معزولون تماما عن هذه الآثار الأساسية

### أثر الملكية رقم (١) تعديد وتثبيت الإمكانات الاقتصادية الكامنة للأصول

يمكن كشف القيمة الكامنة فى بيت ما وتحويلها إلى رأس مال منتج، بنفس الطريقة التى يتم بها تحديد الطاقة الكامنة (طاقة الوضع) فى بحيرة جبلية ثم تحويلها إلى طاقة فعلية وفى كلتا الحالتين، يتطلب التحويل من حالة إلى أخرى عملية تنقل الشئ المادى إلى عالم تمثيلى من صنع الإنسان حيث نستطيع أن نفصل المورد عن قيوده المادية المرهقة، وأن نركز على إمكانياته الكامنة

إن رأس المال يتولد عن التمثيل كتابية - فى سند ملكية، أوراق مالية، عقد، وغيرها من هذه السجلات - للخصائص الأشد نفعا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بالأصل، مقابل جوانب الأصل الأكثر لفتا للنظر من حيث الرؤية وهذه هى المرحلة التى يجرى فيها لأول مرة وصف القيمة الكامنة

وتسجيلها ففي اللحظة التي تركز فيها انتباهه على سند ملكية لبيت ما مثلاً، وليس على البيت نفسه، تخرج بصورة آلية من العالم المادى إلى الكون الخاص بالمفاهيم حيث يعيش رأس المال وبذلك، فإن تقرأ تمثيلاً يركز انتباهك على الإمكانية الاقتصادية الكامنة للبيت، فالتخلص من كل الأضواء والظلال الباعثة على الارتباك لجوانبه المادية ومحيطه المحلى إن الملكية الرسمية تضطربك إلى التفكير فى البيت باعتباره مفهوماً اقتصادياً واجتماعياً، وهى تدعوك إلى المضى إلى ما وراء النظر إلى البيت باعتباره مجرد مأوى - ومن ثم أصلاً لا يدر عائدات - وأن تراه كراسمال حتى ينتج عائدات

ويظهر الدليل على أن الملكية هى مفهوم صرف عندما يتغير ملاك المنزل: إذ لا يتغير فيه عندئذ شيء من الناحية المادية إن النظر إلى بيت لن يخبرك بمن يملكه فالبيت الذى تملكه اليوم يبدو تماماً مثلما كان يبدو أمس عندما كان ملكاً لى، فهو يبدو على نفس الشاكلة سواء كنت أملكه أو أستأجره أو بعته لك، والملكية ليست هى البيت نفسه وإنما المفهوم الاقتصادى عن البيت، مجسداً فى تمثيل قانونى ويعنى هذا أن التمثيل الرسمى للملكية شيء منفصل عن الأصل الذى يمثله.

ما الذى يتوافر للتمثيل الرسمى للملكية ويتيح له القيام بعمل إضافى؟ ليس التمثيل محدد شيء يحل محل الأصل؟ أكرر الرد بلا فالتمثيل الرسمى للملكية مثل سند الملكية ليس استنساخاً للبيت، مثل صورة فوتوغرافية له، وإنما تمثيل لمفهوماً عن البيت إنه يمثل تحديداً الخصائص غير المرئية التى لها إمكانية كامنة لإنتاج قيمة وهذه ليست الخصائص المادية للبيت نفسه، وإنما الخصائص ذات المعنى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية التى نحملها نحن بنو البشر على البيت (مثل القدرة على استخدامه فى تشيكة من الأغراض يمكن ضمانها عن طريق الرهن العقارى، والرهن، حق الارتفاق، وغيرها من الاتفاقيات

وفى البلدان المتقدمة، يعمل هذا التمثيل الرسمى للملكية كوسيلة لضمان مصالح الأطراف الأخرى، ولخلق الخضوع للمسائلة بتوفير كل المعلومات

والإسنادات والقواعد وآليات التنفيذ المطلوبة للقيام بذلك. ففي الغرب، على سبيل المثال، يمكن بسهولة استخدام معظم الملكيات الرسمية كضمان للقرض؛ أو كحقوق للمساهمين مقابل الاستثمار؛ وكعنوان لتحصيل الضرائب والديون والرسوم؛ وكموقع لتحديد الأفراد لأغراض تجارية وقانونية ومدنية؛ وكمحطة نهائية مسؤولة لتلقى خدمات المرافق العامة، مثل خدمات الطاقة والمياه والصرف الصحي والتليفونات والكابل. وفي حين أن اللبوت تعمل في البلدان المتقدمة كماوى أو أماكن عمل، فإن تمثيلها يحيا حياة موازية، ويقوم بتشكيلة من الوظائف الإضافية لضمان مصالح الأطراف الأخرى

وهكذا، فإن الملكية القانونية وفرت للغرب أدوات لإنتاج فائض القيمة، إضافة إلى أصولها المادية ومكن تمثيل الملكية الناس من التفكير في الأصول ليس فقط من خلال المعرفة المادية لها، وإنما أيضا من خلال وصف خصائصها الاقتصادية والاجتماعية الكامنة. وسواء تم ذلك بقصد أو غير قصد، فقد أصبح نظام الملكية القانونية هو السلم الذي ارتقت به هذه الدول من عالم الأصول في حالتها الطبيعية إلى عالم مفاهيم رأس المال، حيث يمكن النظر إلى الأصول في ضوء إمكانياتها الإنتاجية الكامنة الكاملة

وعن طريق الملكية القانونية، توافر للدول المتقدمة في الغرب مفتاح التنمية الحديثة، وأصبح لدى مواطنيها حاليا - بسهولة كبيرة وعلى أساس مستمر - الوسائل اللازمة لاكتشاف الخصائص الإنتاجية الكامنة لمواردها ومثلما اكتشف أرسطو منذ ٢٢٠٠ سنة خلت، فإن ما تستطيع أن تفعله بالاشياء يريد إلى ما لا نهاية عندما تركز تفكيرك على إمكانياتها الكامنة. وعن طريق تعلم تحديد وتثبيت الإمكانيات الاقتصادية الكامنة لأصولهم من خلال سجلات الملكية، أنشأ الغربيون مسارا سريعا لتقصي الجوانب الأكثر إنتاجية لممتلكاتهم وأصبحت الملكية الرسمية السلم إلى عالم المفاهيم، حيث يمكن اكتشاف المعنى الاقتصادي للاشياء وحيث يولد رأس المال

### أخر الملكية رقم (٢): إدماج المعلومات المتناثرة في نظام واحد

مثمنا رأينا في الفصل السابق، لا يستطيع معظم الناس في البلدان النامية، وفي البلدان الشيوعية السابقة الاستفادة من نظام الملكية القانوني، كما هو قائم، مهما اجتهدوا في المحاولة ونظرا لأنهم لا يستطيعون أن يدرجوا أصولهم في نظام الملكية القانوني، فإن الأمر ينتهي إلى تملكهم لها بصورة غير قانونية ويرجع السبب في أن الرأسماليه انتصرت في الغرب، وتعثرت في باقي العالم إلى أن معظم الأصول في الدول الغربية قد أدمجت في نظام واحد رسمي للتمثيل

ولم يحدث هذا الإنتاج مصادفة واتفاقا فخلال عدة عقود في القرن التاسع عشر، جمع السياسيون والمشرعون والقضاة، معا الحقائق والقواعد المتناثرة التي حكمت الملكية في كل المدن والقرى والمباني والمزارع لتعمل معا، وأدمجوها في نظام واحد وأودع هذا «التجميع بفرض العمل معاً» لكل أشكال تمثيل الملكية، والذي شكّل لحظة ثورية في تاريخ البلدان المتقدمة، كل المعلومات والقواعد التي تحكم الثروة المتراكمة لمواطنيها في قاعدة واحدة للمعرفة وقبل تلك اللحظة، كانت القدرة على الحصول على المعلومات عن الأصول أقل كثيرا إذ كانت كل مزرعة أو مستوطنة تسجل أصولها والقواعد التي تحكمها في دفاتر استاذ بدائية، وفي رموز أو شهادات شفوية لكن المعلومات كانت محزاة ومبعثرة وغير متوافرة لأي وكالة بمفردها في أي لحظة محددة ومثلما نعرف جيدا الآن، فإن وفرة الحقائق لا تمثل بالضرورة وفرة في المعرفة ولكن تكون المعرفة مجدية في العمل، كان على البلدان المتقدمة أن تدمج في نظام شامل واحد كل بياناتها المتفرقة والمعزولة عن الملكية.

ولم تفعل هذا البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وهي كل البلدان التي درست أوضاعها، لم أجد مطلقا نظاما قانونيا واحدا، وإنما وجدت عشرات بل مئات النظم، تديرها كل أنواع المنظمات، بعضها قانوني، والبعض الآخر لا يتمتع بحماية القانون، وتتراوح من مجموعات منظمى المشروعات الصغيرة إلى منظمات الإسكان، وبالتالي، فإن ما يستطيع الناس في هذه البلدان أن يفعلوه

بملكيتهم كان مقصوراً على ما يتخيله الملاك ومعارفهم. أما في البلدان الغربية، حيث المعلومات عن الملكية مطية ومتاحة للكافة، فإن ما يستطيع الملاك أن يفعله بأصولهم يستفيد من التحويل الجماعي لشبكة أوسع من الناس

وقد تدهش القارئ في الغرب معرفة أن معظم بلدان العالم لا يزال يتعين عليها أن تدمج اتفاقات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون في نظام قانوني رسمي واحد فمالتسة للغربيين، يفترض أن هناك قانوناً واحداً فقط - القانون الرسمي. ومع ذلك، فإن اعتماد الغرب على نظم متكاملة للملكية هو ظاهرة ترجع في أقصاها للمائتي عام الأخيرة وهي معظم البلدان الغربية، ظهرت نظم الملكية المتكاملة منذ نحو مائة عام خلت فقط. ومثلما سنرى بالتفصيل لاحقاً، كانت ترتيبات الملكية غير الرسمية المتباينة ذات يوم هي القاعدة في كل البلدان كان التعددية القانونية هي المعيار في القارة الأوروبية بخلاف الجزر البريطانية، حتى أعيد اكتشاف القانون الروماني في القرن الرابع عشر وجمعت الحكومات كل تيارات القانون في نظام واحد منسق

وفي كاليفورنيا بعد هوجة الذهب مباشرة في ١٨٤٩، كان هناك نحو ثمانمائة سلطة قضائية منفصلة للملكية، لكل منها سجلاتها ولوائحها الفردية الخاصة التي تم وضعها بتوافق الآراء المحلي وعبر الولايات المتحدة كلها، من كاليفورنيا إلى فلوريدا، اتفقت روابط الحقوق المدعى بها، على القواعد الخاصة بها وانتجبت مسؤوليتها واستغرق الأمر أكثر من مائة عام، حتى أواخر القرن التاسع عشر، لكي تصدر حكومة الولايات المتحدة نظاماً أساسياً خاصاً يدمج الأصول الأمريكية ويضعف عليها طابعاً رسمياً وبإصدار أكثر من خمسة وثلاثين نظاماً قانونياً خاصاً بحق الشفعة والتعدين، استطاع الكونجرس تدريجياً أن يدمج في نظام واحد قواعد الملكية غير الرسمية التي أنشأها ملايين المهاجرين وواضعوا اليد وكانت النتيجة هي قيام سوق متكاملة للملكية حركت النمو الاقتصادي المتعرج للولايات المتحدة بعد ذلك والسبب في أنه من الصعب تتبع تاريخ هذا الإدماج لنظم الملكية الشاسعة، هو أن العملية تمت عبر فترة طويلة جداً من الزمان إذ بدأت سجلات الملكية

الرسمية تظهر في ألمانيا مثلاً، في القرن الثاني عشر، لكنها لم تتكامل بصورة تامة إلا في ١٨٩٦، عندما بدأ نظام «دفتر الأرض» Grundbuch لتسجيل المعاملات بشأن الأرض يعمل على نطاق قومي وفي اليابان، بدأت الحملة القومية لإضفاء الصفة الرسمية على ملكية المزارعين في أواخر القرن التاسع عشر، ولم تنته إلا في أواخر أربعينيات القرن العشرين ولا تزال جهود سويسرا غير العابدة لجمع النظم المتباينة التي تحمي الملكية والمعاملات معا في نهاية القرن العشرين غير معروفة جيداً، حتى للكثيرين من السويسريين.

وبنتيجة للإدماج والتكامل، يستطيع المواطنون في البلدان المتقدمة الحصول على وصف للسماح الاقتصادية والاجتماعية لأي أصل متوافر دون ضرورة لرؤية الأصل نفسه فلم يعودوا في حاجة للسفر عبر البلد لزيارة كل الملاك جميعهم وجيرانهم؛ ذلك أن نظام الملكية الرسمي يجعلهم يعرفون ما هي الأصول المتاحة، وما هي الفرص القائمة لخلق فائض القيمة ومن ثم، أصبح تقييم وتبادل الإمكانات الكامنة لأصل ما أكثر سهولة، مما يعزز إنتاج رأس المال

### أثر الملكية رقم (٢)، إخضاع الناس للمساواة

حوّل إدماج كل نظم الملكية في قانون رسمي واحد للملكية، مشروعية حقوق الملاك من السياق المسمّس للمجتمعات المحلية إلى السياق غير الشخصي للقانون ويسرّ إطلاق سراح الملاك من الترتيبات المحلية التقيدية، والوصول بهم إلى نظام قانوني أكثر تكاملاً، إخضاعهم للمساواة

ويتحوّل الأشخاص ذوي المصالح المتعلقة بالملكية إلى أفراد خاضعين للمساواة، حددت الملكية الرسمية أفراد بدلاً من الحشود ولم يعد الناس في حاجة إلى علاقات المجاورات، أو إنشاء ترتيبات محلية لحماية حقوقهم في الأصول وإذا تحرروا من الأنشطة الاقتصادية البدائية، ومن عبء القيود

الضيقة المرهقة، استطاعوا تقصى كيفية توليد فائض القيمة من أصولهم. ولكن كان هناك ثمن يتعين دفعه فيمجرد أن أصبح الملاك داخل نظام رسمي للملكية، فقدوا غفلة شخصياتهم، التي لم تعد مجهولة فعندما يصبح الناس مرتبطين بصورة لا فكاك منها بالعقارات ومشروعات الأعمال التي يمكن تحديدها وتعيين موقعها بسهولة، يفقدون قدرتهم على الذويان في وسط الحشود. وقد اختفت هذه العقلية عمليا في الغرب، في حين تم تعزيز إخضاع الفرد للمساءلة إذ يمكن تحديد الأشخاص الذين لا يدفعون مقابل السلع والخدمات التي يستهلكونها، وتحصيلهم جزاءات الفوائد والغرامات، وفرض الحظر عليهم، وتخفيض مراتبهم الائتمانية وتستطيع السلطات أن تحيط علما بالانتهاكات القانونية والإخلال بالعقود، وتستطيع أن توقف تقديم الخدمات، وتفرض الحجز على الممتلكات، وتسحب جزءا من امتيازات الملكية القانونية أو تسحبها جميعها

إن احترام الملكية والمعاملات في الدول الغربية لم يرسخ في جينات مواطنيها، بل إنه يتحقق نتيجة وجود نظم ملكية رسمية قابلة للإنفاذ ويشجع دور الملكية الرسمية ليس فقط في حماية الممتلكات وإنما أيضا في تأمين المعاملات، المواطنون في البلدان المتقدمة على احترام سندات الملكية، والوفاء بالعقود، وإطاعة القانون وعندما يتقاعس أى مواطن عن الالتزام، يتم تسجيل الانتهاك الذي اقترفه في النظام، مما يدمر سمعته كطرف جدير بالثقة بالنسبة إلى جيرانه، وإلى المرافق والمصارف وشركات التليفونات وشركات التأمين ويأقش الشبكة التي تربطه الملكية بها.

وهكذا، خلعت نظم الملكية الرسمية في الغرب على الناس نعما ونقما مرغم أنها جعلت لمئات الملايين من المواطنين مصلحة ودورا في اللعبة الرأسمالية، فإن ما جعل لهذه المصلحة والدور معنى هو إمكان تقديمها ذلك أن جزءا كبيرا من القيمة الكامنة للملكية القانونية مستمد من إمكانية مصادرتها. وبالتالي، فإن جزءا كبيرا من قوتها يأتي من الخضوع للمساءلة الذي تخلقه، ومن القيود التي تفرضها، ومن القواعد التي تسنها، ومن العقوبات التي تستطيع أن تطبقها. وإذ تتيح الملكية الرسمية للناس أن يتبعوا الإمكانيات

الاقتصادية والاجتماعية الكامنة للأصول، فإنها تغير التصور السائد فى المجتمعات المتقدمة ليس فقط عن الجوائر المحتملة لاستخدام الأصول، وإنما أيضا عن الأخطار إن الملكية القانونية تستدعى الالتزام

وهكذا، فإن الافتقار إلى الملكية القانونية يفسر السبب فى أن المواطنين فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لا يمكن أن يبرموا عقودا مريحة مع الأجانب، ولا يمكن أن يحصلوا على ائتمان، وتأمين أو خدمات من المرافق. فليس لديهم ملكية يفقدونها ونظرا لأنهم ليست لديهم ملكية يفقدونها، فإنه لا ينظر إليهم بجدية كأطراف فى تعاقد، إلا من قبل أسرته وجيرانهم المباشرين إن الأشخاص الذين ليس لديهم ما يفقدونه يقعون فى إسار الدور التحتانى الوضع لعالم ما قبل الرأسمالية

وفى الوقت نفسه، يستطيع المواطنون فى البلدان المتقدمة التعاقد عمليا على أى شىء معقول، لكن الالتزام هو ثمن الدحول ويتم فهم الالتزام على نحو أفضل عندما يدعمه تعهد بالملكية، سواء كان ذلك رهنا، أو حق حجز، أو أى شكل آخر للضمان يحمى الطرف المتعاقد الآخر

### أثر الملكية رقم (٤)؛ جعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال

من أهم الأشياء التى يقوم بها نظام الملكية الرسمى، تحويل الأصول من حالة ثقل فيها فرص الحصول عليها إلى حال تكثر فيها هذه الفرص، حتى تستطيع القيام بعمل إضافى وعلى خلاف الأصول المادية، فإن أسانيد التمثيل يسهل جمعها وتقسيمها وتعبئتها واستخدامها لحفز الصفقات فى مجال الأعمال وفصل السمات الاقتصادية لأصل ما عن حالته المالية الجامدة، فإن التمثيل يجعل الأصل «منقولا وقابلا للاستبدال» - يمكن تشكيله ليناسب عمليا أى معاملة

ويوصف كل الأصول فى فئات نمطية، فإن نظاما رسميا متكاملا للملكية يتيح المقارنة بين مبنين مختلفين من الناحية المعمارية ثم بناؤهما لنفس الغرض ويتيح هذا للمرء أن يميز سريعا وبصورة غير مكلفة بين أوجه



التشابه والاختلاف في الأصول، دون حاجة إلى التعامل مع كل أصل كما لو كان فريدا

كذلك، فإن أوصاف الملكية النمطية في العرب مكتوبة لتيسير تجميع الأصول إذ تتطلب قواعد الملكية الرسمية وصف الأصول وتصويرها بطريقة لا تحدد فقط تفردا وإنما توضح كذلك تشابهها مع الأصول الأخرى، مما يجعل التجميعات المحتملة أكثر وضوحا ويستطيع المرء من خلال استخدام السجلات المعيارية أن يحدد (على أساس قيود تشكيل المناطق، من هم الجيران وماذا يفعلون، مربع مساحة المبانى، ما إذا كان يمكن ضمها، الخ) كيفية استغلال عقار معين من العقارات على نحو أكثر ربحية، سواء كمساحة للمكاتب، أو غرف للفندق، أو مكتبة، أو ساحة للراكات أو لإقامة ساونا

كما يتيح التمثيل تقسيم الأصول دون مساس بها ففي حين أن أصلا ما مثل مصنع قد يكون وحدة لا يمكن تقسيمها في عالم الواقع، فإنه في عالم المفاهيم الخاص بالتمثيل الرسمي للملكية، يمكن تقسيمه فرعيا إلى أى عدد من الأقسام، وهكذا، يستطيع مواطنو البلدان المتقدمة أن يقسموا معظم أصولهم إلى حصص، يمكن أن يمتلك كل منها أشخاص مختلفون، لهم حقوق مختلفة، للقيام بمهام مختلفة وبفضل الملكية الرسمية، فإن مصنعا واحدا يمكن أن يصوره مستثمرون لا نهاية لعدددهم، يستطيعون أن يتخلصوا من ملكيتهم دون أن يؤثرأ على وحدة وسلامة الأصل المادى

وبالمثل، ففي البلد المتقدم، يستطيع ابن المزارع الذى يرغب فى اتباع خطى أبيه أن يحتفظ بالمزرعة، بشراء حصص إخوته ذوى العقلية الأكثر توجها نحو التجارة لكن المزارعين فى كثير من البلدان النامية لا يتوافر لهم مثل هذا الخيار، ويتعين عليهم أن يعيدوا باستمرار تقسيم مزارعهم بالنسبة إلى كل جيل حتى تصبح المساحات أصغر من أن يمكن زراعتها على نحو مربح، مما يترك فريتهم أمام بديلين: الموت جوعا أو السرقة

كذلك يستطيع التمثيل الرسمي للملكية أن يعمل باعتباره بديلا منقولاً للأصول المادية، مما يمكن الملاك ومنظمى المشروعات من محاكاة أوضاع افتراضية بغية تقصى الاستخدامات المربحة الأخرى لأصولهم - مثمنا يخطط

الضباط العسكريون استراتيجيتهم لحوض معركة بتحريك ما يرمر إلى قواتهم وأسلحتهم على الخريطة ولو أمعنت التفكير، فستجد أن تمثيل الملكية هو الذى يتبع لمنظى المشروعات محاكاة استراتيجيات الأعمال لقمية شركاتهم وتكوين رأس المال

وبالإضافة لذلك، فإن جميع وثائق الملكية الرسمية المعيارية تصاغ بطريقة تيسر القياس السهل لخصائص الأصل فإن لم تكن الأوصاف المعيارية للأصول متوافرة بصورة جاهرة، فإن أى شخص يريد شراء أصل ما، أو استجاره أو منح انتمان مقابله، سيتعين عليه إنفاق موارد ضخمة لمقارنته وتقييمه بالنسبة للأصول الأخرى - التى ستفقر هى الأخرى للأوصاف المعيارية - وإذا توفر نظم الملكية الرسمية الغربية المعايير، فإنها تقلل إلى حد كبير تكاليف المعاملات الخاصة بتعبئة الأصول واستخدامها

وبمجرد أن تنترج الأصول فى نظام رسمى للملكية، فإنها تخلع على مالكيها ميزة ضخمة تتمثل فى إمكان تقسيمها وتجميعها بطرق أكثر عدداً. إن يستطيع الغربيون تطوير أصولهم لتتفق مع أى ظرف اقتصادى لإنتاج خلانط أكثر قيمة بصورة مستمرة، فى حين يظل قرناؤهم فى العالم الثالث أسرى العالم المادى للأشكال الجامدة غير المنقولة وغير القابلة للاستبدال

### أخر الملكية رقم (٥): تكوين شبكات من الناس

حوكمت نظم الملكية الرسمية المواطنين فى الغرب إلى شبكة من قوى الأعمال التى يمكن تحييدها مرادى وإخضاعها للمساءلة، وذلك يجعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال، ويربط الملاك بالأصول والأصول بالعابوين، والملكية بالإنفاذ، ويتيسر إمكانية الحصول على المعلومات الخاصة بتاريخ الأصول والملاك وأقامت عملية الملكية الرسمية بنية أساسية كلية من أدوات الربط التى تتيح، مثلها مثل فناء التحويل فى السكن الحديدية، للأصول (القطارات) أن تنتقل بأمان بين الناس (المحطات) ولا يتمثل الإسهام الذى قدمته الملكية الرسمية

للجنس البشرى فى حماية الملكية، إذ استطاع واضعوا اليد، ومنظمات الإسكان، والمافيا، بل حتى القبائل البدائية، حماية أصولها بطريقة فعالة تماما إن الإنجاز الحقيقى الذى حققته الملكية هو أنها حسنت بصورة جذرية تدفق الاتصالات بشأن الأصول وإمكاناتها الكامنة كما عززت وضع مالكيها، الذين أصبحوا قوى اقتصادية قادرة على تحويل الأصول ونقلها، داخل شبكة أوسع

ويفسر هذا كيف تشجع الملكية القانونية موردى خدمات المرافق مثل الكهرباء، والمياه على الاستثمار فى مرافق الإنتاج والتوزيع لخدمة المباني. ذلك أن نظام الملكية الرسمية يربط قانونا المباني التي تقدم لها الخدمة بملكيها، الذين سيستخدمون الخدمات ويدفعون مقابلها، يقلل خطر سرقة الخدمات. كما يقلل الخسائر المالية الناجمة عن عدم تحصيل الفواتير من أشخاص يصعب تحديد موقعهم، وكذلك الخسائر التقنية الناجمة عن التقدير غير الصحيح للاحتياجات من الكهرباء فى المناطق التي تكون فيها مشروعات الأعمال والسكان سرّيين وليسوا مسجلين فبدون معرفة من له الحق فى أى امرء، وبدون وجود نظام قانونى متكامل حيث يتم نقل القدرة على إنفاذ الأوامر من المجموعات غير القانونية إلى الحكومة، يصعب حث المرافق على تقديم الخدمات بصورة مربحة فعلى أى أساس آخر تستطيع أن تحدد المشتركين، وتضع عقودا للاشتراك فى المرافق، وتقيم وصلات الخدمة، وتضمن الوصول إلى قطع الأرض والمباني؟ كيف ستفقد نظام إعداد الفواتير، وقراءة العدادات، واليات التحصيل، والرقابة على الفاقد، ومكافحة الفش، وإجراءات مقاصاة المخالفين، وخدمات الإنفاذ مثل إيقاف العدادات؟

إن المباني هى دائما المحطات النهائية للمرافق العامة والملكية القانونية هى التي تحولها إلى محطات نهائية خاضعة للمساءلة ومسؤولة وعلى كل من يشك فى هذه الحالة، أن يتأمل حالة المرافق خارج الغرب، حيث تمثل الخسائر التقنية والمالية، بالإضافة إلى سرقة الخدمات، من ٢٠ إلى ٥٠ فى المائة من طاقة كل المرافق المتاحة

كذلك تزود الملكية القانونية الغربية مشروعات الأعمال بالمعلومات عن الأصول وملاكها، والعناوين القابلة للتحقق منها، والسجلات الموضوعية عن قيمة الملكية، وكل ذلك يؤدي إلى وضع سجلات جديدة بالثقة وتجعل هذه المعلومات ووجود قانون متكامل، إدارة المخاطر أكثر سهولة، بتوزيعها من خلال أدواتها التي تكفل التأمين ضدها، وكذلك بتجميع الملكية لضمان الدين وعلى ما يبدو، فإن القليلين هم الذين لاحظوا أن نظام الملكية القانونية في الدول المتقدمة هو مركز شبكة معقدة من الصلات التي تؤهل المواطنين العاديين لتشكيل الروابط مع كل من الحكومة والقطاع الخاص، ومن ثم الحصول على سلع وخدمات إضافية فيدون توافر أدوات الملكية الرسمية، يصعب تبين كيف يمكن استخدام الأصول لتحقيق كل شيء أنحرته في الغرب فكيف تستطيع المؤسسات المالية بغير هذا أن تحدد الجدارة الائتمانية لمقترض محتمل على نطاق واسع؟ كيف تضمن الأشياء المادية، مثل أشجار للاخشاب في أوريغون، استثمارا صناعيا في شيكاغو؟ كيف تستطيع شركات التأمين التوصل إلى، والتعاقد مع، زبائن سيدفعون فواتيرها؟ كيف يمكن توفير خدمات الوساطة في المعلومات والتفتيش والتحقق بصورة كفء وريضة؟ كيف يمكن تسيير تحصيل الضرائب بصورة كفء؟

إن نظام الملكية هو الذي يستخلص الإمكانيات الكامنة المجردة من المباني، يحددها ويثبتها في تمثيل يبيع لنا المضى إلى ما وراء الاستخدام السلبي للمباني كمجرد ماوى ويفشل كثير من نظم سندات الملكية في البلدان النامية في إنتاج رأس المال. لأنه لا يعترف بأن الملكية يمكن أن تتجاوز التملك وتعمل هذه النظم كمجرد جرد لصكوك الملكية ووضع خرائط تحل محل الأصول، دون أن تتيح الفرصة لقيام الآليات الإضافية المطلوبة لخلق شبكة تستطيع فيها الأصول أن تحيا حياة موارية باعتبارها رأس مال ولا ينبغي الخلط بين الملكية الرسمية وبين نظم الجرد الكبيرة مثل «كتاب يوم الحساب الإنجليزي» (كتاب يحوى سجلا لمسح إحصائي لإنجلترا أجرى في ١٠٨٥ - ١٠٨٦ بأمر من ويليام الفاتح - المترجم) الذي وصع منذ ما يزيد على تسعمائة سنة خلت، أو عملية تسجيل الحقائق في مطار دولي إن نظاما للملكية يحرق فهمه

وتصميمه على النحو الملائم، يخلق شبكة يستطيع الناس من خلالها تجميع أصولهم في توليفات ومجموعات أكثر قيمة

### أثر الملكية رقم (٦)، حماية المعاملات

هناك سبب مهم في أن نظام الملكية الرسمي الغربي يعمل مثل شبكة، هو أن كل سجلات الملكية (سندات الملكية وصكوكها والأوراق المالية والعقود التي تصف الجوانب المهمة من الناحية الاقتصادية للأصول) يتم تعقبها وحمايتها بصورة مستمرة، وهي تنتقل عبر الزمان والمكان. ومحطتها الأولى هي الوكالات العامة القيمة على أدوات التمثيل في الدول المتقدمة إذ يدير حفظة السجلات العامة الملفات التي تحتوى على كل الأوصاف المفيدة من الناحية الاقتصادية للأصول، سواء كانت أرضاً أو مباني أو ملكاً منقولاً، سفناً، صناعات، مناجم أو طائرات وستخطر هذه الملفات أى شخص يتطلع لاستخدام أصل ما بالأشياء التي قد تقيد أو تعزز مسعاه، مثل الرهن أو الدين، وحق الارتفاق، والإيجارات، والمتأخرات، والتفليسات، والرهن كما تكفل الوكالات أن الأصول ممثلة بصورة كافية ودقيقة في مستندات ملائمة يمكن تنقيحها ويسهل الوصول إليها

وإضافة إلى نظام إمساك السجلات العامة، تطورت خدمات خاصة أخرى عديدة لمساعدة الأطراف في تحديد وثبث ونقل وتتبع أساليب التمثيل؛ حتى تستطيع أن تنتج فائض القيمة بطريقة سهلة ومضمونة وتشمل هذه الكيانات الخاصة التي تسجل المعاملات، ومنظمات الضمان المحدد وإقفال الحسابات، وجهات إعداد المستخلصات، وجهات التقييم، وشركات التأمين على سندات الملكية وحياة الأمانة، وسفاسرة الرهن، وخدمات الاستئمان، وجهات الوصاية الخاصة على الوثائق وفي الولايات المتحدة، تساعد شركات التأمين على سندات الملكية في حشد التمثيل، بإصدار بوالص تأمين تغطي الأطراف من مخاطر معينة، تتراوح من عيوب سندات الملكية إلى عدم قابلية الرهوبات للإنفاذ، وعدم قابلية سندات الملكية للتسويق. وبموجب القانون، يتعين على

كافة هذه الكميات أن تتبع معايير تشغيل صارمة تحكم قدراتها على تتبع الوثائق، ومرافق التخزين المادي، وتشكيل هيئة العاملين ورغم أنها أنشئت لحماية كل من ضمان الملكية وضمان المعاملات، فمن الواضح أن النظم الغربية تركز على الأخيرة ويركز الضمان أساسا على خلق الثقة في المعاملات حتى يستطيع الناس سهولة أكبر أن يجعلوا أصولهم تحيا حياة موازية باعتبارها رأس مال وعلى النقيض من ذلك في معظم البلدان النامية، يقع القانون والوكالات الرسمية في إطار القانون الاستعماري والروماني السابق، المتحيز نحو حماية الملكية فقد أصبحا قيمين ووصيين على رغبات المتوفى وقد يفسر هذا السبب في أن إنشاء رأس المال في الملكية الغربية قد حدث بمثل هذه السهولة، وأن معظم الأصول في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة قد انزلت خارج النظام القانوني الرسمي بحثا عن الحراك

إن التركيز الغربي على ضمان المعاملات يتيح للمواطنين نقل مقادير ضخمة من الأصول بعدد جد قليل من المعاملات فكيف يغير هذا يمكننا تفسير أن الناس في البلدان النامية، وفي البلدان الشيوعية السابقة لا يزالون يعملون خنازيرهم إلى الأسواق وبيادلونها، واحدا في كل مرة، مثلما كانوا يفعلون من آلاف السنين، في حين أن التجار في الغرب يأخذون الوثائق التي تمثل حقوقهم على الخنازير ويدهنون بها إلى الأسواق إذ يتعامل التجار في بورصة شيكاغو السلعية مثلا من خلال سندات التمثيل، مما يوفر لهم معلومات عن الخنازير التي يتاجرون فيها أكثر مما يحصلون عليه من معلومات لو استطاعوا أن يفحصوا الخنازير ماديا وفي مقدورهم إبرام صفقات على أعداد ضخمة من الخنازير دون قلق يذكر على ضمان المعاملات

### رأس المال والنقود

تعمى الآثار الستة لعملية الملكية المتكاملة أن بيوت الغربيين لم تعد مجرد مأوى يقيهم المطر والبرد فهذه البيوت التي خلع عليها وجود تمثيلي، يمكنها الآن أن

تحيا حياة موازية، وأن تقوم بأشياء اقتصادية لم تكن تستطيع القيام بها قبلا إن نظاما قامونيا للملكية حيد التكامل في جوهره يقوم بأمرين أولا، يقلل بصورة هائلة تكلفة الاطلاع على الخصائص الاقتصادية للأصول، بتمثيلها لطريقة تستطيع افهامنا الإلمام بها سريعا، وثانيا، ييسر القدرة على الاتفاق على كيفية استخدام الأصول لحلق مريد من الإنتاج وزيادة تقسيم العمل وتمثلت عبقرية الغرب في خلق نظام أتاح للناس أن يدركوا بالعقل، القيم التي لا تستطيع أعين البشر أن تراها مطلقا، والتحكم في الأشياء التي لا تستطيع الأيدي أن تلمسها بتاتا

ومنذ قرون مضت كان الباحثون يعتقدون أننا نستخدم كلمة «رأس مال» (من الكلمة اللاتينية التي تعني «راس») لأن الرأس هو المكان الذي تحتفظ فيه بالادوات التي نخلق بها رأس المال ويشير هذا إلى أن السبب في أن رأس المال قد غلغته الأسرار دوما هو أنه، مثله مثل الطاقة، لا يمكن اكتشافه وإدارته إلا بالعقل إن الوسيلة الوحيدة للمس رأس المال هي قدرة نظام الملكية على تسجيل جوانبه الاقتصادية على الورق، وعروها لموقع ومالك معينين

ومن ثم، فالملكية ليست مجرد ورقة وإنما وسيلة وساطة تعكس وتخزن معظم مادة الأشياء المطلوبة لجعل اقتصاد السوق يعمل إن الملكية تنذر بذور النظام، بإخضاع الناس للمساءلة وجعل الأصول منقولة وقابلة للاستبدال، وبتعقب المعاملات، ومن ثم توفير كل الآليات المطلوبة للنظام المبدى والمصرفي لكي يعمل وللإستثمار كى يثمر إن العلاقة بين رأس المال والنقود الحديثة تمر خلال الملكية

واليوم، فإن سجلات الملكية والمعاملات هي التي تزود السلطات النقدية بالأدلة الحاسمة التي تحتاجها لإصدار عطاءات قامونية إضافية ومثلما كتب العالمان المتبحران جورج أ ميلر وفيليب ن جوتسون - ليرد، فى ١٩٧٦ فإن «العملات الورقية ترجع بأصولها إلى كتابة كمبيالات الديون (ومن ثم) فإن النقود تفترض سلفا وجود مؤسسة الملكية»<sup>(١)</sup> إن توثيق الملكية هو الذى يحدد ويثبت الخصائص الاقتصادية للأصول حتى يمكن استخدامها

لضمان المعاملات التجارية والمالية، وفي النهاية لتوفير مبرر تصدر بموجبه البنوك المركزية النقود ولخلق الائتمان وتوليد الاستثمار، فإن ما يرهق الناس ليس الأصول المادية نفسها، وإنما تمثيل ملكيتها - سندات الملكية أو الأسهم المسجلة - التي تحكمها قواعد يمكن إنفاذها على النطاق الوطني إن النقود لا تكسب نقوداً ذلك أنك تحتاج إلى حق ملكية قبل أن تستطيع اجتياز النقود وحتى إذا أقرضت نقوداً، فإن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها أن تكسب منها هي أن تقرض أو تستثمر مقابل نوع ما من وثائق الملكية التي تثبت حقه في أصل المبلغ والفوائد. ولنكرر القول بأن النقود تفترض سلفاً الملكية

ومثلما أوضح الاقتصاديان الألمان البارزان جوناو هابنزون، وأوتو شتايجر، «إن النقود لم تخلق مطلقاً من العدم من وجهة نظر الملكية، والتي يجب أن توجد دائماً قبل أن تستطيع النقود الظهور إلى الوجود»<sup>(١١)</sup>. ومع الإقرار بأوجه التشابه بين عملهما وعملى، فقد لغنا انتهاء مشروع مقال لم ينشر يقول «إن الفائدة والنقود لا يمكن فهمها بدون مؤسسة الملكية»<sup>(١٢)</sup>. ويؤكد أن هذه العلاقة غامضة بسبب سوء الفهم الشائع بأن البنوك المركزية تصدر النقود وتدعم قدرة البنوك التجارية على إجراء المدفوعات وفي رأي هابنزون وشتايجر، فإن ما يفوت العين المجردة هو أن «كل التقدم تحقق في مجال العمل المصرفي تلقاء الأوراق المالية»<sup>(١٣)</sup> أو على حد تعبيرى، أوراق الملكية القاموسية. ويتفقان مع هارولد ديمستز على أن أسس حقوق الملكية في الرأسمالية اعتمدت أمراً مسلماً به، ويلاحظ أن جوزيف شومبيتر كانت لديه فكرة غامضة بأن حقوق الملكية هي التي تكفل خلق النقود ومثلما ذكر توم بيثل على نحو صحيح في كتابه غير العادى «أنبل انتصار» (*The Noblest Triumph*) فإن كثيراً من نعم نظام الملكية الخاصة لم يتم تحليله على نحو سليم»<sup>(١٤)</sup>

ومن ثم، فرأس المال كما سبق أن ذكرت، لا تخلقه النقود، بل يخلقه الناس الذين تساعدكم نظم الملكية الخاصة بهم على التعاون والتفكير في كيف يستطيعون استخدام الأصول التي يراكمونها لنشر إنتاج إضافي؟ لقد تحققت



الريادة الجوهريّة في رأس المال في الغرب التي حدثت خلال القرنين الماضيين، نتيجة التحسين التدريجي لنظم الملكية، مما سمح للقوى الاقتصادية بأن تكتشف وتحقق الإمكانيات الكامنة للأصول التي تملكها، ومن ثمّ تصبح في وضع يمكنها من إنتاج بقود غير تضخمية تمول بها، وتولد إنتاجاً إضافياً

ومن ثمّ، فنحن أقدر من السعاجب التي تحزن الطعام من أجل الشتاء وتلجأ للاستهلاك المؤجل ونحز نعرف من خلال الاستخدام الحاذق لمؤسسات الملكية، كيف دخل على الأشياء التي مراكمها حياة موازية فعندما جشبت الدول المتقدمة معا كل المعلومات والقواعد بشأن أصولها المعروفة، وأقامت نظاماً للملكية تتعقب تطورها الاقتصادي، جمعت في نظام واحد كل العملية المؤسسية التي تشكل أساس خلق رأس المال ولو كان للرأسمالية عقل، لوقع في نظام الملكية القانوني. ولكن مثلها مثل معظم الأشياء التي تخص العقل، فإن كثيراً من «الرأسمالية» الحالية يعمل على مستوى اللاوعي

لماذا لم يقدّر الاقتصاديون الكلاسيكيون، الذين كانوا يعرفون أن رأس المال شيء مجرد ويضعين تحديده وتثبيتته، صلة بين رأس المال والملكية؟ ربما يكمن أحد التفسيرات في أنه في أيام آدم سميث، بل وحتى ماركس، كانت نظم الملكية لا تزال مقيدة وغير متطورة، وكان من الصعب تقدير أهميتها وربما كان الأمر الأهم، هو أن المعركة من أجل مستقبل الرأسمالية تحولت من الدراسات التي تزخر بها كتب المنظرين، إلى شبكة واسعة من منظمي المشروعات والممولين والسياسيين والفقهاء. لقد تحول انتباه العالم من النظريات إلى الصعقات الحقيقية التي ترم في الواقع، يوماً بعد يوم، وسنة مالية بعد سنة مالية

وبمجرد أن تقوم آلة الرأسمالية الهائلة على أساس متين، وينشغل سادتها بخلق الثروة، فإن السؤال عن كيف تحقق كل ذلك يفقد الحاجة فمثل الأشخاص الذين يعيشون في دلتا نهر طويل غنية وخصبة، فإن دعاة الرأسمالية لم يعدوا في حاجة ملحة لتقصي مآل مصير ازدهارهم فلماذا يهتمون؟ بيد أنه مع نهاية الحرب الباردة، أصبحت الرأسمالية هي الخيار الوحيد الجاد للتنمية

ومن ثم اتجه باقى العالم إلى الغرب طلباً للمساعدة، وتم نصحه بتقليد ظروف المعيشة القائمة فى البلدات عملات مستقرة، أسواق مفتوحة، ومشروعات أعمال خاصة، وهى أهداف ما يسمى إصلاحات التصحيح الاقتصادى الكلى والهيكلى ونسب الجميع أن سبب الحياة الغنية للبلدات يقع بعيداً عند أعالي النهر، فى منابع المياه غير المستكشفة إن نظم الملكية القانونية التى يسهل الوصول إليها هى الغرين القادم من أعالي النهر الذى يسمح بازدهار رأس المال الحديث

وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية فى عدم نجاح الإصلاحات الاقتصادية الكلية ذلك أن تقليد الرأسمالية على مستوى البلدات باستيراد تراخيص ماكدونالد وبلوكباستر، ليس كافياً لخلق الثروة ذلك أن رأس المال هو المطلوب، ويتطلب هذا نظاماً قادراً ومعقداً للملكية القانونية نعتبره جميعاً أمراً مسلماً به

### ناقوس برودل الزجاجى

يأتى معظم تهميش الفقراء فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة من عدم قدرتها على الاستفادة من الآثار الستة التى تحدثها الرأسمالية ولا يتمثل التحدى الذى تواجهه هذه البلدان فيما إذا كانت يتعين عليها أم لا أن تنتج أو تتلقى مزيداً من النقود، وإنما فيما إذا كانت تقدر على استيعاب المؤسسات القانونية، واستحماح الإرادة السياسية اللازمة لبناء نظام للملكية يسهل على الفقراء الوصول إليه

وقد وجد المؤرخ الفرنسى فيرنان برودل أن هناك سرا كبيرا فى أن الرأسمالية الغربية حذمت فى بدايتها قلة من قوى الامتيازات فقط، مثلما تفعل فى أماكن أخرى من العالم حالياً

إن المشكلة الأساسية هى التوصل إلى السبب فى أن هذا القطاع من المجتمع «ينتمى للعاصى، والذى لن أتردد فى أن ادعوه رأسمالياً، قد عاش فيما يشبه «الناقوس الزجاجى، منفصلاً عن الباقي والسبب فى أنه لم يقدر على أن يتوسع

ويغزو المجتمع كله؟ (نادا) لم يكن في الإمكان تحقيق معدل عال من تكوين راس المال إلا في قطاعات معينة، وليس في اقتصاد السوق كله في تلك العصور. وربما يبدو من التناقض على نحو يفيظ القول بأنه أيا كان النقص في أشياء أخرى، فإن العقود لم تعان نقصا على وجه التأكيد. ومن ثم كان هذا عصرا تم فيه شراء أراضي الفقراء وبناء مساكن ريفية فحمة، وشيدت آثار كبرى، وتم تمويل التدبير الثقافي (كيف) نحل التناقض بين المناخ الاقتصادي الكاسد، وبين أبهة فلورنسا في ظل لورنزو العظيم<sup>(١)</sup>»

اعتقد أن الإجابة على سؤال برودل تكمن في الفرص المقيدة للحصول على الملكية الرسمية، سواء في الغرب في الماضي، أو في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة في الوقت الحالي إن لدى المستثمرين المحليين والأجانب رؤوس أموال، وأصولهم متكاملة بدرجة أو بأخرى، ومنقولة وقابلة للاستبدال، ومرتبطة في شبكة، وتحميها نظم الملكية الرسمية لكنهم أقلية ضئيلة فقط - هؤلاء الذين يطبقون دفع أتعاب المحامين، ولهم صلات بأهل الداخل المسيطرين، ويبدون الصبر المطلوب للملاحة في أرجاء روتين نظم الملكية الخاصة بهم، أما الغالبية العظمى من الناس، الذين لا يستطيعون جني ثمار عملهم الذي يمثل نظام الملكية الرسمية، فيعيشون خارج ناقوس برودل الزجاجي إن الناقوس الزجاجي يجعل الرأسمالية ناديا خاصا، مفتوحا فقط للقلة ذات الامتيازات، ويثير سخط المليارات الذين يقفون خارجه وينظرون إلى ما بداخله ومن المحتم أن يستمر هذا الفصل العنصري الرأسمالي حتى تتفق جميعا على علاج العيب الحاسم في النظم القانونية والسياسية لكثير من البلدان، التي تحول دون دخول الأغلبية إلى نظام الملكية الرسمي.

لقد أن الأوان للتوصل للسبب في أن معظم البلدان لم تستطع إنشاء نظم مفتوحة للملكية الرسمية لقد حطت اللحظة المناسبة، حيث إن بلدان العالم الثالث، والبلدان الشيوعية السابقة تعيش خلال أكثر مساعيها طموحا لإقامة نظم رأسمالية، وإزاحة الناقوس الزجاجي

لكن قبل أن نجيب على ذلك السؤال، يتعين علينا كشف باقي سر السبب في أن الحكومات كانت حد بطينة في إدراك أن الناقوس الزجاجي موجود



## الفصل الرابع

# سرّ الوعى السياسى

الكلاب تواصل النباح، والشبان يلهون للمدينة،  
بعضهم فى اسمال وبعضهم فى أثواب مشقوفة،  
وبعضهم فى هبّاءات حريرية

— قصيدة امجلينية للأطفال

كان انهيار انماط السكان والقانون الملزم، اتجاهاً لاتخطئه العين فى البلدان النامية خلال الأربعين سنة الماضية، وفى البلدان الشيوعية السابقة خلال السنوات العشر المنصرمة. ومنذ أن بدأ الإصلاح الاقتصادى الذى قام به دنج زياوينج فى ١٩٧٩، ترك ١٠٠ مليون صينى ديارهم الرسمية، بحثاً عن وظيفة لاتتمتع بحماية القانون وحلق ثلاثة ملايين مهاجر غير شرعى يحاصرون بكين، خليطاً مشوشاً من الورش الصغيرة التى تدفع أجوراً منخفضة وتسودها ظروف غير صحية فى أطراف المدينة. وقد نمت بورت - أو برنس خمس عشرة مرة عما كانت عليه؛ ونمت جواياكويل إحدى عشرة مرة، ونمت القاهرة أربع مرات وتمثل السوق السرية حالياً ٥٠ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى فى روسيا وأوكرانيا، وتضم ٦٢ فى المائة فى جورجيا. وقد أوردت منظمة العمل الدولية أنه منذ ١٩٩٠، تم إنشاء ٨٥ فى المائة من جميع الوظائف فى منطقة أمريكا اللاتينية والكاريبى فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون وفى زامبيا، فإن ١٠ فى المائة فقط من قوة العمل مستخدمة بصورة قانونية ما الذى تفعله هذه البلدان إزاء ذلك؟ الكثير جداً. لقد شعرت عن ساعديها

وانخرطت في العمل، وتصدت لكل مشكلة من هذه المشكلات على حدة ففي أغسطس ١٩٩٩ مثلاً، هدمت السلطات في بنجلاديش ٥٠ ألف كوخ في العاصمة دكا وحيثما استحال الهدم، بنت الحكومات مدارس وأرصعة للملايين من واضعي اليد الذين عزوا الأراضى العامة والخاصة وفي الوقت نفسه، دعمت الحكومات برامج لتمويل المشروعات الصغيرة جداً لمساعدة الورش التي تحول المساحات السكنية إلى مباحق صناعية في كل مكان وحسّنت أكشاك الماعة المقامة على الأرصفة التي تسد شوارعها، وأزالَت أكواما من الركام من ميادين مدنها وغرست الورود مكانها، وشددت قوانين البناء والسلامة لمنع انهيار المباني مثلما حدث في تركيا خلال زلزال ١٩٩٩ وسعت الحكومات لإجبار الأتوبيسات الصغيرة المستقلة والتاكسيات البالية التي تتسبب في اكتظاظ المرور، على الوفاء بمعايير الحد الأدنى للسلامة، وطاردت سرقة وقطع المياه والكهرباء، وحاولت إنعاز براءات الاختراع وحقوق المؤلف وألقت القبض على، وأعدمت، أكبر عدد من رجال العصابات ومهربى المخدرات (على الأقل أشهرهم) وسجنتهم (على الأقل لفترة)؛ وشددت تدابير الأمن للسيطرة على نفوذ الفرق السياسية من المتطرفين بين الحشود النازحة والمعرضة للمعاناة

ولكل من هذه المشكلات خاصيتها الأكاديمية التي تستدعى الدراسة، وكل منها يقتضى برنامجاً سياسياً للتصدي له ويبدو أن القلة هي التي تدرك أن ما يواجهنا هنا هو ثورة صناعية ضخمة على النطاق العالمى حركة عملاقة بعيداً عن الحياة المنظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة على نطاق كبير وسواء كان ذلك أمراً طيباً أو سيئاً، فإن الناس خارج الغرب يهربون من الاكتفاء الذاتى والمجتمعات المنعزلة، في محاولة لرفع مستويات معيشتهم بأن يصبحوا معتمدين على بعضهم البعض في أسواق أكبر كثيراً

وما يندر فهمه بدرجة كبيرة، هو أن مجتمعات العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة تشهد تقريبا نفس الثورة الصناعية التي حدثت في الغرب قبل ما يزيد على قرنين من الزمان والفرق هو أن هذه الثورة الجديدة تهدر منطلقاً للأمام بصورة أسرع، وتغير حياة أعداد أكبر من الناس لقد كانت

بريطانيا تعيل ٨ ملايين نسمة فحسب عندما بدأت تقديمها الذي استمر ٢٥٠ سنة من الزراعة إلى الكمبيوتر المحمول وقطعت إندونيسيا نفس الرحلة في أربعة عقود فقط. وأعالت سكانا يزيد عددهم على ٢٠٠ مليون ولا عرو أن تكيف مؤسساتها كان بطيئا، لكنه كان لابد لها أن تتكيف إن موجة هائلة من البشر انتقلت من المجتمعات والأسر المعيشية المغلقة إلى المشاركة في دوائر متسعة يوما من التبادل الاقتصادي والفكري وهذه الموجة هي التي حولت جاكارتا، ومكسيكو سيتي، وساو باولو، ونيروبي، وبومباي، وشنغهاي، ومانيلا إلى مدن عملاقة تضم ١٠، ٢٠، ٣٠ مليونا وتسيطر على مؤسساتها السياسية والقانونية

وأجبر إخفاق النظام القانوني عن مسايرة هذا الجيشان الاقتصادي والاجتماعي المدهش، المهاجرين الجدد على اختراع بدائل للقانون القائم، خارجة عن القانون وهي حين أن كل ضروب معاملات الأعمال الغفل غير المسماة منتشرة في البلدان المتقدمة، فإن المهاجرين في العالم النامي لا يستطيعون التعامل إلا مع الناس الذين يعرفونهم ويشقون بهم ومثل هذه الترتيبات غير الرسمية والخاصة بحالات محددة لأداء الأعمال، لاتعمل بصورة جيدة فكلما اتسعت السوق، مثلما أوضح آدم سميث، زاد تقسيم العمل صغرا وإذا يغدو العمل أكثر تخصصا، يعمو الاقتصاد بكفاءة أكبر، وترتفع الأجور والقيم الرأسمالية إن الفشل القانوني الذي يصل دون قيام من يشروعون في تنظيم المشروعات بالتفاوض مع الغريباء، يهزم تقسيم العمل ويربط من يربعون في أن يصبحوا منظمي مشروعات بحلقات اصغر من التخصص والإنتاجية المخفضة

لقد انتصرت القدرة على تنظيم المشروعات في الغرب لأن القانون يدمج الجميع في نظام واحد للملكية، ويوفر لهم وسائل التعاون وإنتاج مقادير ضخمة من فائض القيمة في سوق أخذة في التوسع ولم يمكن تحقيق التقدم في الغرب، وصولا إلى النمو الحالي بمعدل أسي في تكنولوجيا المعلومات الإلكترونية والاتصالات السلكية واللاسلكية، إلا لأن نظم حقوق الملكية المطلوبة

لجعله يعمل، كانت قائمة بالفعل فقد دمرت نظم الملكية القانونية المتكاملة المجموعات الأكثر انغلاقاً، في حين حفزت على إنشاء شبكة أكبر حيث زادت الإمكانية الكامنة لخلق رأس المال بصورة كبيرة وبهذا المعنى، فإن الملكية تخضع لما يعرف «بقانون ميتكاف» (المسمى باسم بوب ميتكاف، مخترع الشبكات المحلية لربط الحاسبات الشخصية بطريقة إيثرنت) وحسب قانون ميتكاف فإن:

قيمة شبكة ما - مصددة بمنفعتيها للسكان - تتناسب تقريباً مع مربع عدد المستخدمين لها. وشبكة التليفونات مثال لذلك أن وجود تليفون واحد لا يفيد من ستطلب به؟ ووجود تليفونين أفضل، ولكن ليس أفضل كثيراً ذلك أنه عندما يوجد لدى معظم السكان تليفون، تصل قوة الشبكة على تغيير المجتمع لأقساماً<sup>(١)</sup>

ونظم الملكية، مثلها مثل شبكات الكمبيوتر، التي وجدت قبل سنوات من التفكير في الربط بينها، تصبح قوية وقادرة بصورة هائلة عندما يتم الربط بينها في شبكة أكبر فعندئذ فقط، لا تقتصر إمكانات حق معين للملكية على خيال مالكها، وجيرانه، أو معارفه، وإنما تخضع لشبكة أكبر من خيال الآخرين وعندئذ فقط سيخضع الناس أنفسهم للالتزام بمدونة قانونية واحدة، لأنهم سيدركون أنه بدون هذه المرونة سيتوقف ازدهارهم. وعندئذ فقط، تستطيع الحكومة أن تشرع في إدارة التنمية، بدلا من أن تندفع في بطولية لصد كل مكان يتم منه التسرب ولا يمكن أن تستمر في الحياة حكومة حديثة واقتصاد للسوق بدون وجود نظام رسمي متكامل للملكية، ويرجع كثير من مشكلات الأسواق غير الغريبة حالياً أساساً إلى تفتت ترتيبات الملكية لديها، وعدم وجود قواعد معيارية تسمح بتفاعل الأصول والقوى الاقتصادية، وتتيح للحكومة أن تحكم بمقتضى القانون

وعندما ينتقل المهاجرون من البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة إلى البلدان المتقدمة، فإن المؤسسات المتطورة جيداً تستوعبهم في نهاية المطاف في نظام للملكية يشكل شبكة تساعد على إنتاج مائض القيمة ولايتكيف



الأشخاص الذين يهاجرون داخل بلادهم الخاصة بهذه الطريقة - على الأقل ليس بالسرعة الكافية وتفتقر البلدان الأكثر فقرا إلى المؤسسات اللازمة لإدماج المهاجرين فى القطاع الرسمى، وتحديد وتثبيت أصولهم فى أشكال منقولة وقابلة للاستبدال، وحمل مملكتها قوى خاضعة للمساواة، وتزويدهم بأدوات الاتصال والتأثير التى تتيح لهم التداخل بصورة منتجة وتوليد رأس المال داخل سوق قانونية كبيرة لذلك يبتكر المهاجرون، على حساب النظام القانونى، تشكيلة متنوعة من الترتيبات غير القانونية لتحل محل القوانين والمؤسسات التى يحتاجون للتعاون معها فى سوق متوسعة.

ومن ثم، يتمثل العمى السياسى فى عدم الوعي بأن نمو القطاع غير القانونى، وإنهيار النظام القانونى القائم، يرجعان فى نهاية المطاف إلى التحرك العملاق بعيدا عن الحياة المنظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة فى سياق أكبر إن ما يغيب عن الزعماء الوطنيين هو أن الناس ينتظمون بصورة تلقائية فى مجموعات منفصلة غير قانونية إلى أن تستطيع الحكومة تزويدهم بنظام قانونى واحد للملكية

ولا تتمثل المشكلة الأساسية التى تواجهها الدول غير الغربية فى أن الناس ينتقلون إلى المراكز الحضرية، وأن القمامة تنكس أكواما، وأن البنية الأساسية غير كافية، أو أن الريف يتم هجره فكل ذلك حدث فى البلدان المتقدمة. ولا تكمن المشكلة ببساطة فى النمو الحضرى. فقط نمت لوس أنجيليس أسرع من كاليفورنيا فى هذا القرن، ونمت طوكيو أكبر ثلاث مرات من دلهى إن المشكلة الأساسية هى تأخر الاعتراف بأن معظم الاضطراب الحادث خارج الغرب هو نتيجة لحركة ثورية مملوءة بالوعود أكثر مما هى مملوءة بالمشاكل وبمجرد أن يتم تسخير القيمة الكامنة للحركة، يصبح حل كثير من مشاكلها أكثر سهولة ويتعين على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة أن تختار إما إنشاء النظم التى تتيح لحكوماتها التكيف مع التغييرات المستمرة فى التقسيم الثورى للعمل، أو مواصلة العيش فى حالة بلبلة غير قانونية - والواقع أنه ليس فى هذا اختيار كبير.

لماذا اغفل الجميع المشكلة الحقيقية؟ لأن هناك بعتين عمياويين: الأولى، أن معظمنا لا يرون أن التزايد الكبير في عدد سكان العالم غير القانونيين خلال الأربعين عاما الماضية، قد ولّد طبقة جديدة من منظمي المشروعات لها ترتيباتها القانونية الخاصة بها فالسلطات الحكومية لا ترى سوى التدفق الضخم للداخل من الأشخاص والعمال غير القانونيين، وخطر المرض والجريمة ولذلك، مفي حين تتعامل وزارة الإسكان مع القضايا الخاصة بها، وتركز وزارتنا الصحة والعدل على قضاياهما، لم يلحظ أحد أن السكان ليسوا هم السبب الحقيقي في الاضطراب، ولا النمو الحضري، أو حتى الأقلية الفقيرة، وإنما النظام البالي للملكية القانونية

إن معظمنا يشبهون العميان الستة في وجود الفيل. فقد أمسك أحدهم مقدمة خرطومهم الدقيقة وظن أن الفيل ثعبان؛ ووجد آخر الذيل وظنه حبلًا، وأغرت الثالث أذناه الكبيرتان فخاله شرعا، وضم آخر رجله وخلص إلى أن الفيل شجرة لم ينظر أحد منهم للفيل في تمامه، ومن ثم فلم يستطيعوا أن يتوصلوا لاستراتيجية للتعامل مع المشكلة الكبيرة جدا المطروحة وكما رأينا، فإن الفقراء في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة يشكلون ثلثي سكان العالم - وليس لديهم من بديل سوى العيش خارج القانون وكما شاهدنا أيضا، فإن لدى الفقراء وفرة من الأشياء، ولكن ليس هناك أي قانون يحدد حقوقهم في الملكية إن ملايين الأشخاص الذين يقيمون المشروعات ويشغلون ٨٥ في المائة من الوظائف الجديدة في أمريكا اللاتينية، والثلاثة ملايين صيني الذين يعملون في ورش غير قانونية خارج بكين، وأولئك الروس الذين يؤثرون نصف الناتج المحلي الإجمالي لبلادهم، يحققون ذلك على أساس ترتيبات غير قانونية وفي الغالب الأعم، فإن ترتيبات الملكية الجماهيرية هذه تتناقض صراحة مع القانون المكتوب الرسمي وذلك هو الفيل الذي يقف أمامنا

إنني لا أعتقد أن ظهور جيوب صغيرة من القطاعات الاقتصادية المزدهرة في خضم قطاعات كبيرة متخلفة أو غير رسمية يعد بشيرا بفجر انتقال غير

متكافئ، ومع ذلك فهو مجتم، نحو النظم الرأسمالية بل إن وجود جيوب مزدهرة فى بحر من الفقر، يخفى تخلفا مطبقا هى قدرة البلد على خلق واحترام وتوفير حقوق الملكية الرسمية لغالبية مواطنيه

والنقطة العمياء الثانية هى أن القلة تسلم بأن المشكلات التى تواجهها ليست جديدة إن الهجرة والمدن المبتلاة بالخروج على القانون فى العالم النامى والعالم الشيوعى السابق تشبهان بصورة وثيقة ما تعرضت له بلدان الغرب المتقدمة خلال ثورتها الصناعية، فقد ركزت هى أيضا بالدرجة الأولى على حل مشكلاتها الواحدة تلو الأخرى والدرس المستفاد من الغرب هو أن الحلول الجزئية والتدابير البديلة المؤقتة لتخفيف عبء الفقر لم تكن كافية فلم ترتفع مستويات المعيشة إلا عندما أصلحت الحكومات القانون ونظام الملكية لتيسير تقسيم العمل ومن خلال القدرة على زيادة إنتاجيتهم باستغلال الآثار المفيدة لنظم الملكية المتكاملة، استطاع الناس العاديون التخصص فى أسواق أخذت فى التوسع دوما وزيادة تكوين رأس المال.

### النقطة العمياء الأولى: الحياة خارج الناقوس الزجاجى حاليًا

لماذا لم نتبين هذه الثروة الصناعية الجديدة وهى قادمة؟ فإذا رجعنا إلى الثمانينيات من القرن العشرين، عندما بدأ عملنا فى بيرو أنا ورمالنى، كان معظم المسؤولين يفترضون أن القانون يسيطر إلى حد كبير على الجزء الذى نشغله من العالم ذلك أن لأمريكا اللاتينية تقاليد قانونية طويلة وراقية ومحترمة جدا ولا ريب، أنه كان هناك فقراء يشغلون وظائف ويملكون ملكيات خارج القانون، لكن هذا القطاع الخارج على القانون كان يعتبر صغيرا نسبيا، ومن ثم قضية «هامشية» وكان للبلدان المتقدمة نصيبها من الفقر والبطالة والسوق السوداء، وكان لنا نصيبنا وكان التصدى لها هو أساسا وظيفة الشرطة أو حفنة من علماء الاجتماع الأكاديميين الذين كرسوا

مستقبلهم المهني لدراسة الغرائب الناشئة محليا وفي أفضل الأحوال، كان الفقراء يشكلون موضوعا لعدد من مجلة «ناشوبال جيوجرافيك» أو «قناة ديسكفري»

لكن لم يكن لدى أحد أى بيانات دقيقة، بل لم يكن أحد يعرف كيفية قياس ما يفعله الفقراء حقا، أو مقدار ما يملكونه على وجه الدقة ومن ثم قررا - أنا وزملائي - أن نطرح جانبنا كتبنا ومجلاتنا الأكاديمية، ماهيك عن المقادير الكبيرة التي لديها من الإحصاءات والضرائب الحكومية، وأن نزور الخبراء الحقيقيين في المشكلة: الفقراء أنفسهم وبمجرد أن مضينا للشوارع وتلفتنا حولنا وأصغينا، بدأنا نستخدم بحقائق مذهشة فعلى سبيل المثال، كانت صناعة التشييد في بيرو تعاني ركودا إذ كان البناء متوقفا، والعمال يتم تسريحهم بيد أنه مما يدعو للاستغراب، أن ماكينات محصلي النقدية في منافذ بيع مواد البناء، كانت لاتزال تعمل وأجراسها تترنّ والواقع، أن بيع الأسمنت كان يتصاعد أى شكاثر الأسمنت وبعد مزيد من التقصي، اكتشفنا أن الفقراء كانوا يشترون أسمنتا أكثر من أى وقت مضى لمشروعات التشييد الخاصة بهم - البيوت، المباني، مشروعات الأعمال غير المسجلة قانونا أو التي ليس لها سند ملكية، ومن ثم لم تظهر على شاشات الكمبيوتر الخاصة باقتصادي الحكومة وخبراء الإحصاء بها وبدأنا نشعر بوجود اقتصاد نابض بالحياة، مستقل، وغير مرئي من الناحية الرسمية، يترنّ في المدن في كافة أنحاء العالم النامي ففي البرازيل مثلا، أوردت صناعة التشييد أن النمو بها بلغ ١٠، في المائة فقط في ١٩٩٥، ومع ذلك تصاعدت مبيعات الأسمنت خلال الشهور الستة الأولى من ١٩٩٦ بما يقرب من ٢٠ في المائة والسبب في هذا التذوذ الظاهر، حسب تحليل لهيئة «دويتشه مورجان جرينفل»، هو أن من ٦٠ إلى ٧٠ في المائة من التشييد في المنطقة لم يدرج مطلقا في السجلات<sup>(٣)</sup>

وأدركنا أن القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون يصعب اعتباره قضية ثانوية فقد كان ضخما

## المدن النامية

تصّحح التحرك نحو المدن فى الستينيات فى معظم البلدان النامية، وفى الثمانينيات بالنسبة للصين ولأسباب متباينة، تخلّت الطوائف المكتفية ذاتيا عن عزلتها، وشرعت تحاول الاندماج فى المدن وفيما حولها فعمد الثمانينيات، تجمع ملايين الفلاحين الصينيين بصورة غير قانونية حول المدن إلى حد أن أعلنت جريدة «بيجيج يوث ديلي» أن «إدارة السكان المهاجرين خرجت عن السيطرة»<sup>(٣)</sup>

والظاهرة مألوفة أيضا فى البلدان المحيطة بالبحر المتوسط وحسبما يقول هنرى بولدريك، فإنه بعد الحرب العالمية الثانية، اتجه المهاجرون من الريف فى تركيا صوب المدن، وينوا مساكنهم الخاصة على الأراضى الحكومية وتآوى هذه المستوطنات العشوائية، التى تعرف باسم جيسيكوندوس، حاليا نصف سكان الحضر فى تركيا على الأقل وعلى الرغم من أن البعض منها أضاعى عليه طابع قانونى جزئيا على الأقل، ومن ثم استطاع الحصول على بعض الخدمات البلدية، فإن الغالبية لا تزال غير رسمية<sup>(٤)</sup>

وفى الفلبين، دعت صحيفة «بيزنس ورلد» الحكومة إلى «استئصال موجة البشر التى تسبب اكتظاظ مدنا لحد الانفجار» إذ ترى «البارونج - بارونج» المصنوعة من الخرسانة وكتل البناء المجوفة - وتبدأ فى التساؤل: ما الذى تفعله الحكومة إزاء مشكلة المشردين المتنامية، ومشكلة واضعى اليد فى مدنا؟<sup>(٥)</sup>

وفى جنوب أفريقيا، يعتقد بعض المراقبين (وأنا منهم) أن القطاع العقارى غير القانونى على شفا توسع ثان كبير، وفى ١٩٩٨، أوردت «النيويورك» أن «المزيد والمزيد (من السود فى جنوب أفريقيا) يملأون مخيمات واضعى اليد ومدن الأكواخ حول كل مدينة فى جنوب أفريقيا وفى ظل الفصل العنصرى، كانت قوانين المرور العنصرية تقيد كثيرين من السود بالمنطق الريفية أما اليوم، فهم يرتحلون بحرية - ولكن نادرا ما يتم ذلك بصورة مريحة»<sup>(٦)</sup> وأكدت «الاكونومست» هذا الاتجاه بقولها «رغم أن العنف السياسى المعادى لليبيض

لم يتجسد حقا على الإطلاق، فإن إنتهاء العزل العنصرى جعل تجول فقراء السود فى مناطق البيض الفنية أكثر سهولة»<sup>(٧)</sup>

وهى مصر، يعنى المثقفون والتكنوقراط على ما يبدو القصية منذ بعض الوقت فوفق أحد التقارير الأخيرة، فإنه فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٨٩ «زاد إجمالى سكان الحضر فى مصر من ٦,٢ مليون إلى ٢٣,٤٦ مليون»<sup>(٨)</sup> وتبين الأرقام التى جمعها وصنفها جيرارد بارثيلمى أن سكان منطقة العاصمة هى بورت - او - برنس، هاييتى، زادوا من ١٤٠ ألفا فى ١٩٥٠ إلى ١٥٥,٠٠٠ فى ١٩٩٨، ويقتربون حاليا من المليونين ويقدر بارثيلمى أن نحو ثلث هؤلاء السكان يعيشون فى مدن الأكواخ، أو ما يسميه أهل هاييتى «أحياء الأكواخ»<sup>(٩)</sup>

وفى المكسيك، أصبح القطاع الخاص واعيا على نحو متزايد بالظاهرة غير القانونية، ويشارك بنشاط فى عمل شئى ما بشأنها وحسب أحد التقارير الإخبارية.

قدّرت دراسة أجراها فى ١٩٨٧ «مركز الدراسات الاقتصادية للقطاع الخاص» أن القطاع غير الرسمى غير القانونى ولّد نشاطا اقتصاديا يساوى ما بين ٢٨٪ و ٣٩٪ من الناتج المحلى لإجمالى المكسيكى الرسمى، وقدّرت دراسة أجريت فى ١٩٩٣ عدد الناس فى «القطاع غير الرسمى غير المسجل» بثمانية ملايين من إجمالى القوة العاملة البالغة ٢٣ مليونا ويقول أنطونيو مونتيل جويريرو، رئيس «الغرفة التجارية لمشروعات الأعمال الصغيرة فى مكسيكو سيتي»، وهى مجموعة تمثل ١٦٧ ألف مشروع رسمى مسجل صغير «فى مقابل كل مشروع أعمال رسمى يوجد مشروعان غير رسميين للأعمال وفى المنطقة الاتحادية (مكسيكو سيتي) يوجد نحو ٢٥٠ ألف مشروع أعمال غير رسمى صغير لعدد رجمالى من السكان يبلغ نحو ٨ ملايين. وما يترجمه ذلك بالنسبة إلى إجمالى سكان منطقة العاصمة مكسيكو سيتي والدائع ٢٠ مليونا يتجاوز تخمين أى إحصاء، خاصة عندما تتركز مدن الأكواخ غير المنظمة والمتنامية خارج قلب المدينة المركزى»<sup>(١)</sup>

وتتسم المناطق غير القانونية فى البلدان الغامية بالبيوت المتواضعة المتلاصقة على أطراف المدينة، وحشد من الورش فى وسطها، وجيوش من

الباعة الذين يتجولون بيصانعهم في الشوارع، وعدد لا يحصى من خطوط المبنى باص المتقاطعة وجميعها يبدو وقد انبثق من لا مكان وتسببت تنفقات مطردة من عمال الحرف الصغيرة، الذين يحملون أدواتهم تحت إبطهم، في توسع نطاق الأنشطة التي تتم في المدينة وأضافت عمليات التطويق المحلية لعبقرية إلى إنتاج السلع والخدمات الأساسية، وغيرت بصورة مثيرة مجالات معينة للصناعة التحويلية، وتوزيع التجزئة، والبناء والنقل إن المشهد الخلفي للسلبى الذى كان من قبل يحيط بمدينة العالم الثالث أصبح هو أحدث امتداد للعواصم، واستسلمت المدن التي أصيغت نماذجها وفق الأسلوب الأوروبى لشخصية محلية أكثر ضجيجا، مختلطة بتقليد مبتذل للمساحات الضيقة الطويلة التجارية في ضواحي أمريكا

إن مجرد الحجم الصرف لمعظم هذه المدن يخلق لها فرصها الخاصة بها لقد ظهر منظمو مشروعات أعمال جدد، كانوا على خلاف أسلافهم، من أصول متواضعة جدا وتزايد الحراك لأعلى وحلت محل أنماط الاستهلاك والترف المقصور على فئات بعينها في المجتمع المصرى القديم، أنماط أخرى أوسع انتشارا

### المسيرة نحو المدن

بالطبع، إن الهجرة هي العامل الرئيسى في النمو الحضرى في معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة بيد أنه من الصعب تحديد أسبابها بدقة إذ يقدم المعلقون في كل بلد تفسيرات متباينة حرب، برنامج للإصلاح الزراعى، افتقار إلى الإصلاح الزراعى، خطر خارجى على التجارة الدولية، فتح التجارة الدولية، الإرهاب وفرق حرب العصابات، التفسخ الأخلاقى، مثل الرأسمالية، فشل الإشتراكية، والذوق السيئ (لقد كان الوضع أفضل لهم في الريف، فلماذا لم يظلوا هناك؟)

بيد أن الآراء تلاقحت مؤجرا حول عدد قليل من الأسباب العامة وكانت الطرق الأفضل هي التفسير الأكثر بروزا لموجة الهجرة هي كل أنحاء العالم

النامي فقد نبّه بناء الطرق والكبارى، وتحويل الطرق غير المتصلة بغيرها إلى طرق سريعة جيدة، سكان الريف إلى إمكانية السفر، وبدأوا يتحركون إلى المدن ووعرت وسائل الاتصال الحديدية حافزا إضافيا وأثارت الإذاعة، بصفة خاصة، الآمال في استهلاك ودخل متزايدين فمن أماكن تعدد آلاف الأميال يأتى الإرسال الإذاعي معلنا عن الفرص وأسباب العيش الكريم والراحة التي توفرها الحياة الحضرية. وبدأت الحداثة في تناول كل من لديه الشجاعة على السير على الطريق بحثا عنها

وهناك أيضا اتفاق عريض تماما على أن الأزمات الزراعية في كثير من البلدان كانت بالمثل عوامل حاسمة وأدى تحديث الزراعة وعدم اليقين الذي أحاط بسوق بعض المحاصيل التقليدية في أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى بدء عمليات تسريع ضخمة للعمال في المزارع التقليدية، وأطلق حشودا واسعة من الناس المستعدين للبحث عن أفاق جديدة

وكانت هناك أيضا مشكلة حقوق الملكية في الريف ولم تؤد العملية الطويلة والمعقدة للإصلاح الزراعي إلا إلى مضاعفة - وأخيرا تفاقم - الصعوبات التقليدية للحصول على الأرض الصالحة للزراعة وإن عجز كثيرون عن امتلاك الأرض أو العثور على عمل في الريف، فقد هاجروا إلى المدن

وكان هناك عامل جذب قوى آخر، هو انخفاض معدلات وفيات الأطفال الرضع في معظم المدن الرئيسية واتسعت هذه الفجوة بين وفيات الرضع في المدن، والمناطق الريفية، عندما شرعت الخدمات الطبية في المدن في التحسن بعد الحرب العالمية الثانية كما كانت الأجور الأفضل حافزا مهما ففي أمريكا اللاتينية في ١٩٧٠، مثلا، استطاع الأشخاص الذين كانوا يتركزون الريف ليقوموا بعمل شبه ماهر في مدن العواصم، أن يضاعفوا أو يزيدوا ثلاث مرات دخلهم الشهري وربما ضاعفت الوظائف ذات الأجر دخولهم السابقة أربعة أمثال، وربما كسب المهنيون والتقنيون ما يزيد إلى ستة أمثال والأجر الأعلى يعوض خطر البطالة فالمهاجر الذي عانى البطالة لمدة عام يستطيع تعويض الدخل الضائع في شهرين ونصف الشهر في المدينة فالحياة في المدن المزدهرة لم تبد أفضل فقط بل كانت أفضل بالفعل



بل إن نمو البيروقراطيات الوطنية أصبح حافزا للهجرة فقد كان تمركز السلطات فى أيدي الموظفين الحكوميين يعنى أن معظم المكاتب الحكومية المختصة بتقديم المشورة، والرد على الطلبات، وإصدار التصاريح، أو توفير الوظائف موجودة فى المدن وكان أى مهاجر يسعى إلى مستقبل أكثر إشراقا لأطفاله يعرف أن فرص التعليم أفضل كثيرا فى المدن وكان التعليم يعد استثمارا متزايدا القيمة والإنتاجية بالنسبة للفلاحين العاطلين جزئيا الذين ليس لديهم سبيل للحصول على الأصول سوى عبقريتهم وكانت المدن تصمم معظم خريجي المدارس الثانوية، وكذلك الطلاب الملتحقين بمراكز التدريب المهني، ومدارس ومعاهد التعليم العالي، والمتقدمين للجامعة والمقبولين بها ومن ثم، يصعب اعتبار الهجرة عملا غير رشيد. وهى لاتتعلق كثيرا «بفرصة القطيع» إنها نتاج تقييم مدروس ورشيد من قبل سكان الريف لوضعهم الراهن، مقيسا فى ضوء الفرص المفتوحة لهم فى أماكن أخرى وكانوا يعتقدون، صوابا أو خطأ، أن الهجرة لأسواق أكبر ستفيدهم بيد أن التحرك لم يكن سهلا

### الضغراء يهودون لديارهم

يواجه المهاجرون إلى المدن عالما معاديا وسرعان ما يدركون أنه رغم أن لدى سكان الحضر صورة رومانسية مل وحانية عن المزارعين، وأنهم يسلمون سريعا بأن لكل المواطنين الحق فى السعادة، فإنهم يفصلون أن يلتصق المزارعون الجيدين بسعادتهم فى ديارهم، ويؤكدون أن الفلاحين لايفترض أن يأتوا بحثا عن الحداثة. وتحقيقا لهذه الغاية، فإن كل بلد عمليا فى العالم النامى وفى العالم الشيوعى السابق، قصد أن تجلب برامج التنمية الحداثة إلى الريف وجاء العداء الأكبر للمهاجرين من قبل النظام القانونى فى البدء، استطاع النظام بسهولة استيعابهم أو تجاهلهم لأن احتمال قيام المجموعات الصغيرة التى كانت قد وصلت بإشاعة الاضطراب فى النظام القائم لم يكن قائما بيد أنه مع نمو أعدادهم، إلى الحد الذى لم يعد يمكن معه تجاهلهم، وجد الوافدون

الجدد أنفسهم معدين عن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية الراسخة قانونا وكان من الصعب عليهم بصورة هائلة أن يحصلوا على المساكن، وأن يدخلوا لحال الأعمال الرسمية، أو أن يجدوا وظيفة قانونية فقد تطورت المؤسسات القانونية في معظم بلدان العالم الثالث على مرّ السنين لخدمة احتياجات ومصالح مجموعات حضرية معينة، وكان التعامل مع الفلاحين في المناطق الريفية مسألة مختلفة وطالما بقي الفلاحون في أماكنهم لا يبرحونها، لم تبد للعيان التفرقة القانونية الضمنية. بيد أنه بمجرد أن يستقروا في المدن، يعانون من الفصل العنصري للقانون الرسمي وفجأة يصبح الناقوس الزجاجي مرئيا

كما يواجه بعض بلدان الاتحاد السوفيتي السابق فرضي في نظم الملكية فيه، ويعترف بعض من النخب على الأقل بالمنافع الاقتصادية الناتجة عن تصحيح ذلك. وحسب تقرير أعد في ١٩٩٦

إن اليات حماية حقوق الأرض زالت في مرحلة طفولتها الأولى في روسيا وفي كثير من المناطق يتمين تسجيل الأرض لدى وكالة مفصلة عن تلك التي تسجل المباني وبالإضافة لذلك، فإن الحماية القانونية التي يوفرها التسجيل غير واضحة وينبغي أن تنشأ من الصفر الإجراءات والأعراف الخاصة بحماية واستخدام حقوق الأرض ربما كانت الأرض أكثر موارد روسيا قيمة، فهي المورد الذي يمكن أن يستند إليه اقتصاد مأكمله ومجتمع ديمقراطي<sup>(١١)</sup>

لقد وجدنا أنه في كل أرجاء العالم الثالث، تزدهر الأنشطة غير القانونية عندما يفرض النظام القانوني قواعد تحفض آمال أولئك الذين يستبعدهم، ومثلما رأينا في الفصل الثاني، فإن بلدانا كثيرة تجعل العقوبات التي تعترض الانضمام إلى نظم الملكية القانونية مرهقة ومكلفة بدرجة لاتجعل سوى قلة من المهاجرين هم الذين يستطيعون في أي وقت شق طريقهم عبر الروتين - إذ يقتضى الأمر أربع عشرة سنة وسبعة وسبعين إجراء بيروقراطية في إحدى الثلاثين هيئة عامة وخاصة في مصر، وتسع عشرة سنة و١٧ خطوة بيروقراطية لإضفاء المشروعية على شراء أرض خاصة في هايتي

وإذا كانت هناك تكلفة من أجل أن يصبح المرء متمتعاً بحماية القانون، فإن ذلك قمين بأن تكون هناك تكلفة أيضاً للمقاء خارج القانون فقد وجدنا أن التشغيل خارج عالم العمل ومشروعات الأعمال القانونيين، أمر مكلف على نحو مدهش. ففي بيو مثلاً، تتضمن تكلفة تشغيل مشروع أعمال بصورة غير قانونية، دفع من ١٠ إلى ١٥ في المائة من دخله السنوي كرشاوى وعمولات للسلطات ويضاف إلى هذه المدهوعات، تكاليف تعاضد العقوبات، وإجراء التحويلات خارج القنوات القانونية، والعمل من أماكن متفرقة وبدون انتماء، ويتضح أن حياة منظم مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون أكثر تكلفة بكثير، وأنها مملوءة بالمشاحنات اليومية بدرجة تفوق ما يتعرض له رجال الأعمال القانونيون

وربما كانت أكبر تكلفة تنجم عن عدم وجود المؤسسات التي تخلق حوافز للناس لاغتنام الفرص الاقتصادية والاجتماعية للتخصص في السوق وقد وجدنا أن الناس الذين لا يستطيعون العمل في إطار القانون، لا يستطيعون أيضاً حيازة الملكية بكفاءة أو إنفاذ العقود من خلال المحاكم؛ كما لا يستطيعون تقليل عدم اليقين من خلال نظم المسؤولية المحدودة وبوالص التام، أو إقامة شركات مساهمة لجذب رأسمال إضافي وتقاسم المخاطر. ونظراً لعجزهم عن جمع الأموال اللازمة للاستثمار، فإنهم لا يستطيعون تحقيق وفورات الحجم أو حماية مبتكراتهم من خلال الإتاوات وبراءات الاختراع

وإذا حُرِم الفقراء من دخول الناقوس الزجاجي، فإنهم لم يستطيعوا مطلقاً أن يقتربوا من آليات الملكية القانونية الضرورية لتوليد رأس المال وتتبدى الآثار الاقتصادية الشبيهة بالكارثة لهذا الفصل العنصري القانوني، في صورتها الصارخة، في الامتقار إلى حقوق الملكية الرسمية إزاء العقارات وفي كل بلد بحثنا الأوضاع فيه، وجدنا أن نحو ٨٠ في المائة من قطع الأراضي لا تحميها سجلات مستكملة لأخر لحظة أو يحوزها ملاك خاضعون للمساواة قانوناً ومن ثم، فإن أي تبادل لمثل هذه الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون كان مقصوراً على دوائر مغلقة من الشركاء في التبادل، مما أبقى على أصول الملاك غير القانونيين خارج السوق الآخذة في التوسع

وهكذا تم حرمان ملاك الأصول بصورة غير قانونية من الحصول على الائتمان الذي يتيح لهم توسيع أعمالهم - وتلك خطوة أساسية تجاه بدء أو تنمية مشروع أعمال في البلدان المتقدمة ففي الولايات المتحدة مثلاً، يأتي ما يصل إلى ٧٠ في المائة من الائتمان الذي تحصل عليه مشروعات الأعمال الجديدة من استخدام سندات الملكية الرسمية كضمان للرهن كما أن العمل خارج القانون يعنى غياب حوافز الاستثمار التي توفرها الكفالة القانونية ويانعزال المهاجرين عن النظام القانوني، فإن ضمان اردهارهم لايمكن إلا في أيديهم إذ يتعين عليهم التنافس ليس فقط على الأشخاص الآخرين، وإنما مع النظام أيضاً. وإن لم ترحب بهم النظم القانونية لبلادهم الأصلية، فلن يتوافر لهم بديل سوى إقامة النظم غير القانونية الخاصة بهم وفي رأيي، أن هذه النظم غير القانونية تشكل أهم ترمز على الوضع القائم في تاريخ البلدان النامية منذ استقلالها، وفي بلدان الكتلة السوفيتية السابقة منذ انهيار الشيوعية

### تزايد العمل الذي لا يتمتع بحماية القانون

زاد سكان معظم مدن العالم الثالث الكبرى أربعة أمثال على الأقل في العقود الأربعة الماضية وبحلول عام ٢٠١٥، ستضم أكثر من خمسين مدينة في البلدان النامية ٥ ملايين أو أكثر من البشر<sup>(١٢)</sup>، يعيش معظمهم ويعملون غير متمتعين بحماية القانون. إن القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون موجود في كل مكان في البلدان النامية وفي البلدان الشيوعية السابقة وقد ظهرت أنشطة جديدة وحلت تدريجياً محل الأنشطة التقليدية فإذا تجولت في معظم الشوارع، فلأبد لك من أن تصطدم بالمحلات التي لا تتمتع بحماية القانون، وكذلك التبادل غير القانوني للعملاء، والنقل التي لا تتمتع بحماية القانون، وغيره من الخدمات التي لا تتمتع بحماية القانون بل إن كثيراً من الكتب المطروحة للبيع طبعت بصورة غير قانونية

لقد تم شراء مجاورات بأكملها، وتطوورها عمرانياً وبنائها في انتهاك للوائح الحكومية، أو في تعارض مباشر معها، بواسطة المستوطنات

ومشروعات الأعمال القامونية فمن كل مائة بيت تم بناؤها فى بيرو، فإن نحو ثلاثين فقط لها سند ملكية قانونى فى حين تم بناء السبعين الباقية بصورة غير قامونية وقد وجدنا فى كافة انحاء أمريكا اللاتينية، أن ستة على الأقل من كل ثمانية مبان كانت فى القطاع الذى يعانى عدم كفاية رأس المال، وأن حيازة ٨٠ فى المائة من جميع العقارات لا تتمتع بحماية القانون وحسب معظم التقديرات، فإن القطاعات الخارجة عن نطاق القانون فى البلدان النامية تضم من ٥٠ فى المائة إلى ٧٥ فى المائة من كل العاملين، وهى مسؤولة عن نسبة تتراوح بين خمس وأكثر من ثلثى الناتج الاقتصادى الإجمالى فى العالم الثالث.

ولننظر فى حالة البرازيل: فمئذ ثلاثين سنة مضت، كان أكثر من ثلثى بناء المساكن يتم من أجل تأجيرها، أما اليوم، فإن المساكن المؤجرة تمثل بالكاد ٣ فى المائة من عمليات التشييد فى البرازيل. لقد انتقل معظم السوق إلى الأجزاء غير الرسمية من المدن البرازيلية - الغافيل - وحسبما يقول دونالد ستيوارت.

إن الناس لا يدركون حجم النشاط الاقتصادى الذى يوجد فى الغافيل وقد بدأت هذه الاقتصادات غير الرسمية من روح تنظيم المشروعات لدى الفلاحين من شمال شرق البرازيل، الذين اجتدبتهم المراكز الحضرية إنهم ينشطون خارج الاقتصاد الرسمى المنظم بصورة مفرطة، ويعملون حسب العرض والطلب، وعلى الرغم من النقص الواضح فى الموارد، فإن هذا الاقتصاد غير الرسمى يعمل بكفاءة وفى الغافيل، لا يوجد تصديد للإيجارات، وتدفع الإيجارات بالدولار الأمريكى، والمستأجرون الذين لا يدفعون يتم طردهم بسرعة إن ربحية الاستثمار جيدة، ونتيجة لذلك هناك وفرة من العرض فى المساكن<sup>(١٣)</sup>

وقد أوردت «وول ستريت جورنال» فى ١٩٩٧ أنه حسب ما قال فريق «اصدقاء الأرض»، فإن ١٠ فى المائة فقط من الأرض المسكونة فى عابات الامازون البرازيلية تغطيه سندات ملكية<sup>(١٤)</sup> وفى البلدان الأخرى، فإن العمل الذى لا يتمتع بحماية القانون أخذ فى التصاعد

وعلى خلاف الوضع في البلدان المتقدمة، حيث تمثل الغنة الواقعة فيما «دون الطبقات» أقلية صغيرة تعيش على هامش المجتمع، كان عدم التمتع بحماية القانون في بعض البلدان على الدوام هو التيار الرئيسي فعلى سبيل المثال، فقد وجدنا في معظم البلدان التي قمنا بمسح لها، أن قيمة العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون وحدها تزيد عدة مرات على إجمالي المدخرات والودائع لأجل في البنوك التجارية، وقيمة الشركات المسجلة في البورصات المحلية، وجميع الاستثمارات الأضنية المباشرة، وجميع المشروعات العامة التي تمت خصخصتها والتي يتعين خصخصتها مأخوذة معا. وعند التأمل، نجد أن هذا يجب ألا يدعو للدهشة إن العقارات تمثل نحو ٥٠ في المائة من الثروة القومية للبلدان المتقدمة، وفي البلدان النامية، يقترب الرقم من ثلاثة أرباع إن المستوطنات التي لا تتمتع بحماية القانون هي عادة الطريق الوحيد للاستثمار في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، ومن ثم تمثل جزءا مهما من عملية الإذخار وتكوين رأس المال وبالإضافة لذلك، فإن مساهمة المدن المتزايدة في الناتج القومي الإجمالي توحي أن قدرا كبيرا من رأس المال الكامن والدراية التكنولوجية يتم تراكهما في المناطق الحضرية أساسا

### إن الذين لا يتمتعون بحماية القانون جاءوا ليلبّقوا

إن انفجار النشاط الذي لا يتمتع بحماية القانون في العالم الثالث، وعمليات وضع اليد الصخمة في المناطق الريفية، وانتشار المدن غير القانونية - بوبيلوس جوهينيس في بيرو، والفافيلا في البرازيل، والرانشو في فنزويلا، والباريوس مارجيبالس في المكسيك، وأحياء الأكواخ في المستعمرات الفرنسية السابقة، وكذلك مدن الأكواخ في المستعمرات البريطانية السابقة - هي أكثر من مجرد تصاعد ضخم في أعداد السكان، أو الفقر، أو حتى الخروج على القانون إنها موجات عارمة من الذي لا يتمتعون بحماية القانون ترتطم بالنواقيس الزجاجية للامتيازات القانونية، ويمكن أن تكون أهم عامل يجبر السلطات على الترحيب بالثورة الصناعية والتجارية التي تقوم على ذلك

ومعظم الحكومات في معظم البلدان ليست في وضع يمكنها من مناصرة القوة الخارجية على القانون فبالمنافيس المادية الصرفة، تعوقت المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون بالفعل على جهود الحكومات في توفير الإسكان للمهاجرين والفقراء وحتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين في بيرو مثلاً، تأرجع الاستثمار الحكومي في إسكان مخفصى الدخل حول ٢ في المائة من الاستثمار في الإسكان في القطاع الذي لا تتمتع بحماية القانون وبإدراج إسكان الطبقة المتوسطة في هذا، لاتزيد حصة الحكومة إلا إلى ١٠ في المائة من إجمالي الاستثمار غير الرسمي. وفي هايتي في ١٩٩٥، زادت قيمة العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون تقريباً على عشرة أمثال كل حيازات حكومة هايتي وهذا القطاع الذي لا تتمتع بحماية القانون هو منطقة رمادية لها حدود طويلة مع العالم القانوني. وهو مكان يستطيع الأفراد أن يجدوا فيه ملاذاً حين ترجح تكاليف الامتثال للقانون المنافع. إن المهاجرين يصبحون خارجين على القانون ليستطيعوا البقاء، فهم يخرجون عن نطاق القانون لأنه لايسمح لهم بالوجود بداخله فلكى يعيش سكان المدن الجدد ويتاجروا ويقوموا بالتصنيع والانتقال، وحتى لكى يستهلكوا، يتعين عليهم أن يفعلوا ذلك بصورة غير القانونية إن الترتيبات غير القانونية التي يضعونها معا بصورة غير متقنة هي التزامات صريحة بين أعضاء معينين في المجتمع لتوفير الأمن للكيتهم وأنشطتهم وهي تمثل توليفات من القواعد المستعمارة بصورة انتقائية من النظام القانوني الرسمي، والارتجال في أحوال معينة، والأعراف المجلوبة أماكنهم الأصلية أو المستنبطة محلياً، ويجمع بينها عقد اجتماعي يسانده المجتمع ككل وتنفذه سلطات اختارها المجتمع ويتمثل عيب الترتيبات غير القانونية في أنها ليست متكاملة في نظام الملكية الرسمي، ونتيجة لذلك فلايمكن تبادلها ولاتطويرها لتلائم معظم المعاملات، وليست مرتبطة بالدائرة المالية والاستثمارية، وأعضاؤها غير خاضعين للمساواة أمام سلطات حارج عقدها الاجتماعي.

وتتبدر هذه الترتيبات تشكيلة كبيرة من المنظمات، منها رابطات التنمية الحضرية، الجمعيات الزراعية، رابطات صغار التجار، منظمات مشروعات

الاعمال الصغيرة، ومجتمعات تنظيم المشروعات الصغيرة جدا، واتحادات النقل، ونوادي مطالب العاملين بالتعدين، والمنتفعون بالإصلاح الزراعي، وتعاونيات الإسكان الخاص، ومنظمات الاستيطان، والمجالس السكنية، واللجان الطائفية، ولجان المنتفعين بالإسكان الذي بنته الدولة، ومجتمعات السكان الأصليين، ورابطات صغار المزارعين، والمنظمات القروية كما تدير هذه المنظمات توسعات وامتدادات المباني في الأراضي الصحراوية، وتوسعات وامتدادات المباني في الأراضي الزراعية، والترتيبات الخاصة بالأجزاء التاريخية من المدن، والتقسيمات من الباطن من الإسكان العام، والمستوطنات ذات العقود الخاصة، والمستوطنات ذات العقود العامة، وعمليات التخصيص من خلال الإيجار من الباطن بموافقة المالك، والإسكان الحكومي دون سندات ملكية كاملة، وعقود العيارة غير القانونية المشهورة أمام سجل العقود وإن لم تسجل، وعقود الاستيطان المسجلة وإن لم تكن مشهورة أمام المسجل، والمستوطنات المعترف بها من قبل «عمليات سلام وطنية»، والمستوطنين الذين نقلوا من أماكنهم، والمستوطنات المسجلة لدى موردي الخدمات الأساسية أو سلطات الضرائب وإن لم تكن مسجلة لدى الأوصياء على الملكية الرسمية

ونادرا ما يكون قصد العمل الذي لا يتمتع بحماية القانون العدا للمجتمع إن «الحرائم» التي يرتكبها العاملون الذين لا يتمتعون بحماية القانون تهدف إلى تحقيق أهداف عادية مثل بناء بيت، توفير خدمة، أو إنشاء مشروع أعمال فهذا النظام للقانون غير القانوني، والذي لا يعد سببا للفوضى، هو الطريق الوحيد المتاح للمستوطنين لتنظيم حياتهم وأعمالهم ونتيجة لذلك، ليس هناك شيء يمكن أن يكون أهم من ذلك من الناحية الاجتماعية بالنسبة للطريقة التي يعيش بها الفقراء ويعملون ورغم أن «قوانينهم» قد تخرج على القانون الرسمي، فإنها عموما، هي القوانين الوحيدة التي يستريح إليها هؤلاء الناس ذلك هو العقد الاجتماعي الذي يعيشون به ويعملون

قد تبدو المستوطنات غير القانونية التي يقطنها المهاجرون مثل أحياء الفقراء، لكنها مختلفة تماما عن أحياء الفقراء القائمة في قلب المدن في البلدان المتقدمة فالأخيرة تتكون من مبان كانت محترمة من قبل ثم تهاوت من الإهمال



والفقر اما فى العالم النامى، فالأرجح ان يتم تحسين المأوى الاساسية للفقراء وتعزيزها وإعادة بنائها وترميمها وفى حين تفقد بيوت الفقراء فى البلدان المتقدمة قيمتها على مرّ الزمن، تصبح المباني القائمة فى مستوطنات الفقراء فى العالم النامى أكثر قيمة، وتتطور خلال العقود لتصبح ما يماثل مجتمعات الطبقة العاملة فى الغرب

وقبل كل شيء، فإن المستوطنين الذى لا يتمتعون بحماية القانون، على النقيض من صورتهم كمتمردين على القانون، يشاركون المجتمع المدنى الرغبة فى حياة منتجة يسودها السلم ومثلما كتب سيمون فاس فى ختام كتابه البليغ عن اقتصاد هاييتى

إن هؤلاء الناس العاديين غير عابدين فى جانب واحد فحسب إن تحولهم منخفضة جدا، منخفضة لحد أن حطاً طعيراً واحداً فى الحكم أو عملاً واحداً مشؤوماً من أعمال القدر قد يهدد بقاء أسرهم ككيان مشترك، ويهدد أحيانا بقاء أعضائها ككيانات جسمية وليس الفقر نفسه هو الأمر غير العادى، بل فترة هؤلاء الناس على البقاء على الرغم منه وليس هناك أى شيء يخلطوه فى هذه العملية بلا جدوى، وإنما إسهام مثمر فى البقاء والنمو، ولأصناف البسيطة التى يحصلون عليها وطائف محددة بوصفها مجالات فى عملية الإنتاج<sup>(١٥)</sup>

ومع نمو وتنوع الأنشطة الاقتصادية التى ترتبط بها هذه المنظمات التى لا تتمتع بحماية القانون، بدأت أيضاً تتولى القيام بدور الحكومة وأصبحت بدرجات متباينة مسؤولة عن توفير بنية أساسية مثل الطرق، وإمدادات المياه، وشبكات الصرف، والكهرباء، وإنشاء الأسواق، وتوفير خدمات النقل، بل إدارة العدالة والحفاظ على النظام

وفى مواجهة زحف الذين لا يتمتعون بحماية القانون، تراجعت الحكومات لكنها تنزع إلى اعتبار كل تنازل أمراً مؤقتاً «حتى تمر الأزمة» بيد أن هذه الاستراتيجية هى فى الواقع مجرد طريقة لتأجيل الهزيمة الحتمية وفى بعض الحالات، وضعت الحكومات استثناءات من أجل بعض المشروعات التى

لاتتمتع بحماية القانون، واعتبرت كما لو كانت جيوبا قانونية، حيث تستطيع المشروعات التي كانت لاتتمتع بحماية القانون في الأصل أن تعمل بدون ملاحقة. ولكن بدون إدماجها بحيث تحظى بحماية ومنافع النظام القانوني بأسره وتتفادى هذه الترتيبات المواجهة الصريحة، ويمكن اعتبارها في مجملها نوعا من معاهدة السلام القانوني المؤقت ففي مصر مثلا، يتحدث الخبراء بالفعل عن «إسكان شبه رسمي».

ومثل هذا الإسكان لايزيد فقط رصيد الإسكان في البلاد ويوفر إسكانا رخيصا نسبيا، ولكنه يوفر أيضا لمسة كبيرة من سكان الحضر أصلا يمكنهم الاستثمار فيه. وفي هذا الإسكان درجة من الخروج على القانون إن هياكل الإسكان لاتتطور من خلال الإجراءات الراسخة والمنظمة، ولايستخدم من يقومون بتشبيدها مؤسسات الإسكان المعترف بها ويتم تشبيدها عادة على مساحات راعية، يتم تقسيمها من الباطل بصورة غير قانونية إلى قطع صغيرة بواسطة القائمين بالتنمية العمرانية من القطاع الخاص

وتشارك الحكومة عادة في عملية شراء الأرض في الإسكان شبه غير الرسمي وفي مناطق الإسكان شبه الرسمي، حيث تم الاصطلاح بالبحث، كانت الأجهزة الحكومية هي التي استهلت عملية تطويرها، وبدأ شجعت القائمين بالتنمية العمرانية من القطاع الخاص على تقسيم الأراضي من الباطل بصورة لاتتمتع بحماية القانون إلى قطع صغيرة في مرحلة لاحقة لقد تغير استخدام الأرض من الاستخدام الزراعي إلى الاستخدام السكني من خلال دور مستتر للحكومة ويشترى السكان في مثل هذه المناطق الأرض من خلال عملية غير رسمية لتقسيم الأرض من الباطل والتسويق غير الرسمي لها وتعد مناطق حجر التواتيه، وعربة ابو سليمان، وعربة نادى الصيد أفضل الأمثلة للمناطق من هذا النوع في مدينة الاسكندرية<sup>(١٦)</sup>

وحتى في المناطق غير المرجحة لأقصى حد، هناك أدلة على أن الحكومات تسلم بأن مؤسساتها القانونية لم تتكيف مع الأحوال الاقتصادية الراهنة ففي ١٩٩٢، أوردت «وكالة رويتر للأنباء» أن الزعيم الليبي معمر القذافي أحرق سندات ملكية الأراضي في ليبيا وورد أن العقيد القذافي أخبر الحاضرين في

اجتماع هي وزارة العدل أن «جميع التسهيلات والوثائق الموجودة في السجل القديم، التي تبين أن الأرض تخص هذه القبيلة أو تلك، حرق إحراقها» وأضاف «لقد أحرقت لأنها قامت على الاستغلال والتزوير والنهب»<sup>(١٧)</sup> وفي بعض البلدان، فإن القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون حاليا هو أساس النظام الاجتماعى فأهل توبا في السنغال، والذين يمكن مشاهدتهم وهم يطوفون بسلعهم على أرضعة نيويورك ومدن الولايات المتحدة الكبرى الأخرى، هم عادة جزء من شيعة إسلامية إفريقية محنكة تعيد ملايين الدولارات من الأرباح إلى المدينة التي جاءت منها وقد وصفت «النيوزويك» توبا باعتبارها:

دولة داخل الدولة، وهي معفاة إلى حد كبير من قوانين السنغال [و] أسرع مدينة نموا في البلد فقد تم نقل قرى بأكملها هنا، وأقيمت أكواخ صنيعة الحجم بين فيلات الأعيان المسورة إلى المدينة المغطاة من الرسوم، هي صورة إمبراطوريتي النقل والعقارات، والقطاع غير الرسمي المزدهر، وتجارة الفول السوداني، والمصدر الرئيسى للبلد الأجنبي في السنغال<sup>(١٨)</sup>

وفي أنحاء أخرى من العالم، فإن مخاوف العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون من فقد ممتلكاتهم، قد تشعل صراعا صريحا والمثال على هذا إندونيسيا، التي كثيرا ما احتلت مشاكلها عناوين الأخبار في السنوات الأخيرة وفي فترة ترجع لست سنوات خلت، كتبت «الايكونومست» محذرة

يشعر الناس بالانفعال إزاء فقد ممتلكاتهم لأن الحصرنة والتصنيع يخلقان طلبا على الأرض، في بلد تعد ملكية الأرض فيه شائنا يحوطه الضباب لأقصى حد إلى ٧/ فقط من الأراضي في الأرخبيل الإندونيسى لها مالك واضح وكان من المحتم، أن تنشأ تعارة كبيرة في الشهادات الحقيقية والرائعة على حد سواء ويوجد الناس الذين يحاولون شراء قطع من الأرض أحيانا عددا كبيرا من الملاك الظاهريين وتحذر البنوك من قبول الأرض كضمان للقروض<sup>(١٩)</sup>

وفي أماكن أخرى، يرتبط العمل خارج القانون بالبؤس بصورة وثيقة «وفي بومباي يعيش ثلثا سكان المدينة البالغ عددهم ١٠ ملايين نسمة إما في أكواخ مكونة من غرفة واحدة، أو على الأرصفة»<sup>(٢)</sup> ومع ذلك، فإن من يعملون خارج إطار القانون في بلدان أخرى يصعدون لأعلى السلم الاقتصادي فوفق «منظمة التقييمات التقنية» في بيرو، فإن قيمة الأراضي في القطاع الرسمي في ليما تبلغ في المتوسط نحو ٥٠ دولاراً للمتر المربع، في حين أن قيمة المتر المربع في جامارا، حيث يقع قدر كبير من قطاع الصناعة التحويلية غير الرسمية في بيرو، قد ترتفع إلى ٣٠٠٠ دولار وفي الهياسيون، وهي مركز غير قانوني آخر في ليما، يساوي المتر المربع من الأرض ١٠٠٠ دولار، ويساوي ٤٠٠ دولار في تشيمو في قطاع رارات وعلى النقيض من ذلك، تتراوح قيمة المتر المربع من الممتلكات التي لها سندات ملكية قانونية بين ٥٠٠ دولار و ١٠٠٠ دولار في ميرافلورس وسان إيريدرو، وهما من أكثر الأماكن تميزاً في ليما<sup>(٣)</sup>

### إنها قصة قديمة

فور أن تدرك الحكومات أن الفقراء سيطروا بالفعل على مساحات شاسعة من العقارات والوحدات الاقتصادية الإنتاجية، ليصبح من الواضح أن كثيراً من المشاكل التي تواجهها نارت نتيجة لأن القانون المكتوب لا يتفق مع الطريقة التي تعمل بها بلادها في واقع الأمر. ومما يتفق مع المنطق، أنه إذا كانت القوانين المكتوبة تتصامم مع القوانين التي يحيا بها المواطنون، فلا ريب أنه سيتربط على ذلك، السخط والفساد والفقير والعنف

والسؤال الوحيد الذي يظل مطروحا هو ما مدى مسارعة الحكومات بالشروع في إضفاء طابع مشروع على تلك الخيارات التي لا تتمتع بحماية القانون، بإدماجها في إطار قانوني منظم ومتناسك والبدل هو استمرار الفوضى القانونية التي يظل فيها نظام حقوق الملكية القائم يقافس باستمرار مع نظام غير قانوني وإذا أرادت هذه البلدان في أي وقت أن تتجزز نظاما

قانونيا موحدا، فيتعين عليها أن تكيّف القانون الرسمي مع واقع الاندفاع غير القانونية الحاشدة صوب حقوق الملكية الواسعة

والخبر الطيب هو أن دعاة الإصلاح القانوني لن يخاطروا بالإنزلاق إلى الهاوية التي لا قرار لها فالتحدى الذي يتصلون له، وإن كان ضخما، جابهته من قبل بلدان كثيرة إذ إن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تواجه نفس التحديات التي تصدت لها البلدان المتقدمة فيما بين القرن الثامن عشر والحرب العالمية الثانية (وإن كان بأبعاد أكثر إثارة) ذلك أن العمل الذي لا يتمتع بحماية القانون على نطاق واسع ليس ظاهرة جديدة فذلك هو ما يحدث دوما عندما تحقق الحكومات في جمل القانون متفقا مع الطريقة التي يعيش بها الناس ويعملون.

وعندما بدأت الثورة الصناعية في أوروبا، كانت الحكومات مبتلاة أيضا بالهجرة غير الخاضعة للسيطرة، ونمو القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، والفقر الحضري، والقلال الاجتماعية وعالجت هي أيضا هذه المشكلات بالتدريج

## النقطة العمياء الثانية، الحياة خارج نافوس الأمس الزجاجي

### الانتقال إلى المدن

يربط معظم الباحثين بين قيام الثورة الصناعية والتجارية الكبرى في أوروبا والهجرات الحاشدة لمدها، ونمو السكان نتيجة انخفاض الإصابة بالطاعون، وانخفاض الدخول في الريف مقارنة بمثيلتها في الحضر<sup>(٢٢)</sup> ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدأ العمال في المدن يحصلون على أجور أعلى منها في المناطق الريفية للقيام بمشروعات التشييد التي أمرت بها الطبقات الحاكمة وكان من المحتم أن يهاجر إلى المدن الفلاحون الأكثر طموحا، تستحدثهم على ذلك اتفاق الحصول على أجور أعلى

وقد بدأت موجة الهجرة الأولى في إنجلترا في أواخر القرن السادس عشر، وإذا شعرت السلطات بالقلق إزاء الأعداد المتنامية من المهاجرين في

المدن والقلال الناجمة عن ذلك، فقد سعت إلى الحفاظ على السلام باتخاذ تدابير بديلة مؤقتة متباينة مثل توزيع الغذاء على الفقراء كذلك كانت هناك تدابير مستمرة لإقناع الناس بالعودة إلى الريف ويتم سن سلسلة من القوانين في ١٦٦٢ و ١٦٨٥ و ١٦٩٣، تطلب بعودة المواطنين إلى مسقط رأسهم، أو إلى سكنهم الثابت السابق، كشرط للحصول على المعونة وكان الهدف هو منع هجرة مزيد من الأسر والعمال إلى المدن بحثاً عن فرص العمل وتم إصدار قانون في ١٦٩٧ لا يسمح للمهاجرين بالانتقال في إنجلترا إلا إذا حصلوا على شهادة توطن من السلطات القائمة في أماكن سكنهم الجديدة ورغم أن هذه القوانين طبقت الهجرة بين الأسر والعجزة، فإن الرجال الشبان، الأصحاء الأجسام، والطموحين غير المتزوجين، استنبطوا طرقاً للعودة للمدن، وكانوا أيضاً هم الفئة التي شكلت منظّمى المشروعات الناجحين - أو الثوريين الذين يتسمون بالعنف

ولم يحد معظم المهاجرين الوظائف التي كانوا يأملون فيها فقد حدثت التنظيمات التقييدية، خاصة صعوبات الحصول على ترخيص بتوسيع الأنشطة أو تنويعها، من قدرة مشروعات الأعمال الرسمية على النمو وتوفير الوظائف للعمال الجدد ووجد البعض عملاً مؤقتاً أو انصموا للخدمة في المنازل<sup>(٣٣)</sup>، واضطر كثيرون إلى التوطن مؤقتاً في ضواحي المدن الأوروبية، وفي «أطراف» المستوطنات غير القانونية القائمة حينذاك، في انتظار قبولهم في طائفة حرة أو تجارية أو في وظيفة في مشروع أعمال رسمي

وكانت القلاقل الاجتماعية قدراً محتوماً فبمجرد أن بدأت الهجرة إلى المدن، حتى تحلّت المؤسسات السياسية القائمة وراء الواقع المتغير سريعاً وقد حالت صرامة القانون المركنتالي والأعراف المركنتالية دون استغلال المهاجرين لكامل إمكاناتهم الاقتصادية وثفاقم الصراع الاجتماعي من جراء اكتظاظ الأعداد المتزايدة من سكان الحضر، والمرص، والصعوبات المحتملة التي يواجهها أهل الريف في التكيف مع الحياة في المدن ويلاحظ دس كولمان أنه منذ فترة مبكرة ترجع إلى القرن السادس عشر، ثارت الشكاوى في

البرلمان الإنجليزى من «حشود الشحاذين»، والزيادة الكبيرة فى أعداد الأوغاد والمقشربين واللصوص» فى المدن<sup>(٢٤)</sup>

وبدلاً من التكيف مع هذا الواقع الحضرى الجديد، سنت الحكومات مزيداً من القوانين واللوائح لمحاولة إخماده وجلب المزيد من اللوائح مزيداً من الانتهاكات - وسرعان ما تم إصدار قوانين جديدة تقمع من انتهكوا القوانين القديمة وتكاثرت القضايا، وانتشر التهريب والتزوير ولجأت الحكومات للقمع العنيف

### ظهور الأوضاع التى لا تتمتع بحماية القانون

بدأ المهاجرون الأوروبيون الذين لم يجدوا عملاً قانونياً تدريجياً فى فتح ورش لا تتمتع بحماية القانون فى بيوتهم وكان جزء كبير من هذا العمل «يتكون من التصنيع والتجهيز المباشر، بقليل من المعدات الرأسمالية فيما وراء العدد اليدوية البسيطة»<sup>(٢٥)</sup> وكان قاطنو المدن منذ زمن طويل يحتقرون العمل الذى يتم خارج الطوائف الحرفية والنظام الصناعى الرسمى

وبالطبع، لم يكن فى مقدور المهاجرين الاختيار، وكان العمل الذى لا تتمتع بحماية القانون هو مصدرهم الوحيد للدخل، وبدأ القطاع غير القانونى من الاقتصاد ينتشر بسرعة ويؤرد «إلى مكشعر» تعليقاً اقتبس من أوليفر جولد سميث فى ١٧٦٢، جاء فيه «نادراً ما كان هناك رجل إنجليزى لا ينتهك فى كل يوم من أيام حياته تقريباً القانون المعلن ويفلت من العقاب .. ومن محاولات إيفاده التى توقفها الرشوة والإرتزاق»<sup>(٢٦)</sup>. كما ذكر هكشر مرسومين فرنسيين (صدرتا فى ١٦٨٧ و ١٦٩٣) يسلمان بأن من أسباب عدم الالتزام بمواصفات الإنتاج أن العمال، والذين كانوا حينذاك أكثر أمية حتى من عمال البلدان النامية حالياً، لم يستطيعوا الوفاء حتى بالشروط القانونى البسيط الذى يطالب صناع النسيج بوضع أسمائهم على الجزء الأمامى من القماش الذى ينتجونه ومع ذلك، فقد كان هؤلاء العمال المهاجرين أكفاء وقد لاحظ آدم سميث من قبل، «لو كنت تريد التسامح مع العمل الذى تقوم به، فلابد أن يتم فى الضواحي حيث ليس لدى العمال، الذين لا تتوافر لهم أى ميزة مقصورة عليهم،

شئ، يعتمدون عليه سوى صفتهم، ثم تهرب ما ينتحونه إلى المدينة بقدر ما تستطيع<sup>(٣٧)</sup>

ولم تكن السلطات ورجال الأعمال القانونيين ميهورين بالمنافسة مثل آدم سميث ففى إنجلترا، خلال العقود التى تلت استعادة الملكية فى ١٦٦٠، بدأ بعض دعاة التمسك بالتقاليد يشكون من نمو أعداد الباعة الجائلين وباعة الشوارع، والاضطرابات التى تحدث أمام المحال الراسخة، وظهور أصحاب الحوانيت الجدد فى كثير من المدن الصغيرة وحاول التجار الرسميون دون جدوى التخلص من الوافدين الجدد وفى باريس، استمرت المعركة القانونية بين التزوية والمتعاملين فى الملابس المستعملة أكثر من ثلاثمائة سنة ولم تتوقف إلا بنشوب الثورة الفرنسية.

وتشير ديباجات القوانين والأوامر الإدارية الصادرة فى هذه الحقبة بصورة متواترة إلى عدم الامتثال للقوانين واللوائح السابقة وحسبما قال هكشر، تم حظر قماش الشيت المطبوع المستورد من الهند فى سنة ١٧٠٠، بغية حماية صناعة الصوف الإنجليزية وأنتج أصحاب المشروعات الصناعية الإنجليزية قماش الشيت الخاص بهم، واستطاعوا دوما إيجاد الاستثناءات والشغرات فى القانون وتمثل أحد الطرق فى الائتفاف على حظر المنسوجات المطبوعة المعتمدة على القطن، فى استخدام نسيج الفستيان القطمى - وهو الشيت الإنجليزي المصنوع بغلاف من الكتان كما قمعت أسبانيا وعاقبت منظمى المشروعات الذين لا يتمتعون بحماية القانون وفى ١٥٤٩، أصدر الإمبراطور شارل الأول خمسة وعشرين أمرا قانونيا تستهدف مشروعات الأعمال التى لا تتمتع بحماية القانون ودعا أحد القوانين السلطات إلى إتلاف عينات القماش، بقطع حاشيته التى تحوى علامة الصانع، حتى يعرف المشتري أنه يبتاع بضاعة غير قانونية وكان القصد من هذا إذلال الموزعين

وكان قمع الحكومة لمن يعملون خارج إطار القانون متكررا وقاسيا، وكان مميتا فى فرنسا حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانت القوانين التى تحظر على الجمهور الفرنسي صناعة، استيراد، أو بيع الأقطان المطبوعة، تتضمن عقوبات تتراوح بين الاستبعاد والسجن والموت ولم يرتدع من يعملون خارج



نطاق القانون ويقدر هكشر أنه خلال فترة عشر سنوات واحدة فى القرن الثامن عشر، أعدم الفرنسيون أكثر من ١٦ ألف مهرب وصانع سرى، بسبب تصنيع النشيت المطبوع أو استيراده بصورة غير قانونية، بل وحكم على عدد أكبر بالعمل عبيدا فى السفن أو عوقبوا بطريقة أخرى وهى مذبحة فالنسيا وحدها، تم شنق ٧٧ من منظمي المشروعات الذين لا يتمتعون بحماية القانون، وتم تكسير عظام ٥٨ على العجلات، وحكم على ٦٣١ بالعمل عبيدا فى السفن ووجدت السلطات أن للتصدي لمن يعملون خارج إطار القانون وحدهم أمر يوافق هواها

وحسبما يقول روبرت إيكولند وروبرت توليسون، فإن السبب هو أن السلطات اضطهدت من يعملون خارج القانون بمثل هذه القسوة لم يكن يرجع فقط إلى أنها كانت تريد حماية الصناعات القائمة؛ بل يرجع أيضا إلى أن الأقمشة المطبوعة بعدة ألوان جعلت تحصيل الضرائب (أكثر صعوبة)<sup>(٢٨)</sup>، وعلى الرغم من أنه كان من السهل تحديد منتجى الأقمشة المطبوعة بلون واحد، وبذا يتم التحقق ما إذا كانوا يدفعون كل ضرائبهم أم لا، فإن النشيت كان يمكن إتفاجه بتشكيلة من الألوان، بفصل النظام الجديد للطباعة، مما جعل تحديد مصدره أكثر صعوبة

واعتمدت الدولة بصورة كبيرة على الطوائف الحرفية - التى كانت وظيفتها الأساسية هى السيطرة على فرص التوصل إلى إقامة مشروعات قانونية - للمساعدة فى تحديد منتهكى القانون وعن طريق جعل القوانين أكثر تشددا بدلا من تكييفها لإدراج التصنيع الذى لا يتمتع بحماية القانون، أجبرت السلطات منظمي المشروعات ببساطة على الرحيل للصواحي التى لا تتمتع بحماية القانون وعندما حدد النظام الأساسى الإنجليزى للصناعات السريعة والصبيان الثمنيين، الصادر فى ١٥٦٣، معدلات الأجور بالنسبة للعمال وطلاب بتصحيحها سنويا حسب أسعار سلع ضرورية أساسية محددة، مثل كثيرون من العاملين الأول الذين لا يتمتعون بحماية القانون مشروعاتهم للمدين الدانية، أو أقاموا صواحي جديدة حيث كان الإشراف الحكومى أقل صرامة وكانت اللوائح أكثر ارتخاء أو غير مطبقة ببساطة كما سمح الإنسحاب للصواحي للعاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون بالهروب من ملاحقة الطوائف الحرفية الساهرة، التى لم تكن تشمل ولايتها إلا حدود المدينة

وفي نهاية المطاف، رادت المنافسة من جانبا المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون إلى حد لم يجد معه ملاك مشروعات الأعمال الرسمية بديلا سوى التعاقد من الباطن على جزء من إنتاجهم مع الورش القائمة في الضواحي - مما ضيق الوعاء الضريبي وتسبب في رفع الضرائب وبدأت في العمل دائرة مفرغة إذ ماقت الضرائب الأعلى للبطالة والقلق، مما عجل بهجرة أكبر إلى الضواحي ومزيد من التعاقد من الباطن مع الصناع الذين لا يتمتعون بحماية القانون وازدهرت أحوال بعض العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون، لحد أنهم اكتسبوا الحق في دخول مجال الأعمال الرسمية. وإن لم يكن بدون دفع حصتهم من الرشوى واستخدام الضغط السياسي وجاربت الطوائف الحرفية هذا وقاومته ففي ظل حكم أسرة تيودور، حظرت قوانين كثيرة هي إنجلترا قيام الورش والخدمات غير القانونية في الضواحي. لكن العدد المصن للمصنّين الذين لا يتمتعون بحماية القانون ومهارتهم في تفادي اكتشافهم، أجهضا هذه الجهود وكان من أبرز جوانب الفشل ما حدث للطائفة الحرفية لصناع القبعات وأغطية الأسرة في نورويتش، التي عجزت بعد حملة متطاولة صاحبها إعلان صاحب لمكافحة القائمين بالتشغيل الذين لا يتمتعون بحماية القانون عن إنفاذ حقها القانوني الحصري في صناعة القبعات وأغطية الأسرة<sup>(٢٩)</sup> لقد جعلت المنافسة الطوائف الحرفية تترنح ويعزو كولمان انهيارها إلى «زيادة عرض العمل، وتغير أنماط الطلب، وتوسع التجارة» (و) نمو الصناعات الجديدة، والامتداد الكبير للصناعة الريفية المنظمة على أساس نظام الإقراض<sup>(٣٠)</sup>

### انهيار النظام القديم

اضطرت الحكومات الأوروبية تدريجيا إلى الانسحاب في مواجهة نمو العمل الذي لا يتمتع بحماية القانون - مثلما تفعل حاليا الحكومات في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة فبعد أن عجز الملك جوستاف أدولفوس عامل السويد عن وقف إنشاء المستوطنات التي لا تتمتع بحماية القانون، كان عليه

أن يزور كل مستوطنة ويطلع عليها بركاته للحفاظ على مظهر السيطرة الحكومية وفى إنجلترا، اضطرت الدولة إلى الاعتراف بأن الصناعات الجديدة أخذت تتطور فى المحل الأول فى الأماكن التى لا توجد فيها قيود قانونية أو سيطرة للطوائف الحرفية؛ والواقع أن العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون كانوا قد أقاموا الضواحي والمدن الخاصة بهم خصيصا لتفادى سيطرة الدولة والطوائف الحرفية وبالإضافة لذلك، كانت الصناعات العاملة التى لا تتمتع بحماية القانون أكثر كفاءة ونجاحا. وكان من المعترف به على نطاق واسع أن صناعة المنسوجات القطنية قد ازدهرت لأنها ليست منظمة بصورة صارمة مثل صناعة الصوف. وسرعان ما بدأ الناس يلاحظون أن المستوطنات التى لا تتمتع بحماية القانون تنتج سلعا وخدمات أفضل من منافسيها من المستوطنات التى تتمتع بحماية القانون التى تعيش فى النواقرىس الزجاجية وفى ١٥٨٨، وصف تقرير للورد سيسل، وزير الملكة اليزابيث الأولى، مواطنى هاليفاكس، وهى من المستوطنات غير القانونية الجديدة بما يلى

إنهم يبرزون الآخرين فى السياسة والصناعة، فى استخدام مهنتهم وأراضيهم، ورغم الطريقة الفظة والمتكبرة لموطنهم البرى، تجاوزوا الباقين فى الحكمة والثروة كماوا يتخلون عن أنماطهم السابقة إذا استطاعوا أن يسمعو عن الجديد، الأكثر ملاءمة، كماوا يحتفون بالهديث بدلا من الاحتشاد حول الرسمىات القديمة (كان لديهم) حماس طبيعى للاختراعات الجديدة المرتبطة بصناعة لا تدر عائد<sup>(٢١)</sup>

كما بدأ العاملون الذين لا يتمتعون بحماية القانون البناء داخل المدن وفى ألمانيا، حيث كان من الضرورى اجتياز اختبار للحصول على الموافقة القانونية من أجل البناء، حسبيما قال أحد المؤرخين، «أمكن إيجاد مناطق بأسرها تم فيها بناء ومرة من المنازل، رغم أنه لم يكن هناك من هو مؤهل قانونا للبناء فيها»<sup>(٢٢)</sup>.

وبدأت أعداد العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون ومثابرتهم ونجاحهم يقوض أسس النظام المركنتالى نفسها. وأيما كان النجاح الذى حققوه، فقد ظفروا به رغما عن الدولة، وكان قمينا بهم أن يعتبروا السلطات عدوا لهم وفى

تلك البلدان التي جرّمت فيها الدولة وقمعت منظمى المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون، بدلا من تكيف النظام لاستيعاب مشروعاتهم، لم يتأخر التقدم الاقتصادي فحسب، بل زادت القلاقل، وتحولت إلى العنف وكانت الثورتان الفرنسية والروسية هما التجسيدان الأكثر شهرة لهذا

يبد أن تلك البلدان التي تكيفت بسرعة، حققت انتقالا سلميا نسبيا إلى اقتصاد السوق. فبمجرد أن اندركت الدولة أن وجود قطاع عامل لا يتمتع بحماية القانون، هو أمر أفضل من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بالنسبة لعدد متنام من المهاجرين العاطلين، بدأت السلطات فى سحب تأييدها للطوائف الحرفية. وكانت نتيجة ذلك فى إنجلترا، هى التناقص المستمر فى عدد الأشخاص المتقدمين بطلبات للانضمام إلى هذه الطوائف، مما هيا المسرح للدولة لى تغيير بصورة جذرية الطريقة التى تدار بها الأعمال

كما انهارت سلطة الدولة. فأى نظام قانونى جامد يمثل جمود النظام الذى سبق الثورة الصناعية، كان قميئا بأن يضر بالفساد. وقد نصر أمر صدر فى إنجلترا فى ١٦٩٢ على أن يزور مفتشو الضرائب فى كثير من المناطق الورش والمصانع لمجرد تحصيل مدفوعات الضرائب المتفق عليها، دون أن يفحصوا مطلقا السلع ليثبتوا كم يستحق على المنتجين حقا للضرائب وواجه معظم مشرفو الإنتاج، سواء كانوا ينتمون للطوائف الحرفية أو كانوا معينين من قبل الدولة، باستمرار الاتهام بالفساد والإهمال فى أداء واجباتهم، وهو وضع كان يعزى إلى نقص الاحترام المدنى للقانون

بل لقد اشتهر أن أعضاء البرلمان، الذين كان لهم بحلول نهاية القرن السابع عشر سلطة الترخيص بإنشاء مشروعات الأعمال، يحصلون على رشاوى مقابل أداء خدمات محددة. وكانت السلطات المحلية أسوأ حالا ففي ١٦٠١ حدد رئيس مجلس العموم قاضى الصلح باعتباره «مطلوقا حيا يعفى من تطبيق ستة من التشريعات العقابية مقابل نصف ستة من الدجاج» وسعى الموظفون العموميون لإلقاء اللوم فى الفشل التشريعى لا على القوانين السيئة، وإنما على الإنعاذ غير الكافى وقد جاء فى أحد الكتيبات الصادرة فى ١٥٧٧ ما يلى «احلص إلى أنه لا يمكن إصدار قوانين أفضل فى هذه

النقاط، وكل المطلوب هو التنفيذ» ويحاج جوزيف ريد بأن النظام القديم انهار بسبب الفساد المتفشى الذى غزا كل المؤسسات، وقسم السكان إلى من يستطيعون خداع النظام والذين لا يستطيعون ذلك. كما لاحظ أن النظام القانونى الذى شجع بعض الناس على انتهاك القانون وجعل آخرين يعانون منه، لابد وأن يفقد منزلته بين كلتا الدائرتين<sup>(٣٣)</sup>. ولم يكن لدى قضاة الصلح فى الضواحي حوافز كبيرة لإنفاذ القانون الذى تم وضعه فى المدن والذى لايقبله سكان الضواحي وبنهاية القرن الثامن عشر، ضعف الجهاز القانونى بأسره، وأصبح فاسدا كلية فى بعض البلدان

وفى الوقت الذى سيطرت فيه الحكومة على كل شىء، وضع الناس كل آمالهم الاقتصادية فى الدولة. وخلق هذا نمطا نموذجيا لما قبل الرأسمالية فعندما ارتفعت الأجور أسرع من ارتفاع اسعار الأغذية، دعا التجار إلى وضع حد أعلى للأجور، وعندما ارتفعت اسعار الأغذية أسرع من ارتفاع الأجور طالب العمال بحد أدنى للأجور وحد أعلى لأسعار المواد الغذائية وتم تثبيت الأسعار والدخول والأجور بتأثير الضغط السياسى والعمل السياسى، وهو وضع ثبط همة الإنتاج الصناعى والزراعى واكتراء العمال ومن ثم، لم يستطع لا الحد الأدنى ولا الحد الأعلى للأسعار، أن يحل مشاكل الندرة ونقص الأغذية والبطالة وقد كتب تشارلس ويلسون يقول: «كان ذلك العصر هو عصر العنف، عندما كان السعى لتحقيق الغايات الاقتصادية يتطلب باستمرار مساندة القوة»<sup>(٣٤)</sup> كان الوقت قد حان لمعركة أيديولوجية ومعركة الحزب، فى البرلمانات وفى الشوارع.

ومن فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٨٠، ظهر نوع من الإيمان بالقضاء والقدر فى وجه الاستحالة البادية لتحقيق تقدم اقتصادى كبير «كان عموم فقراء الصناع يعتقدون أنهم لن يساؤوا مطلقا عشرة جنيهات إذا أصبحوا كذلك فإنهم يستطيعون تزويد أنفسهم بما يكفى للحفاظ على طريقتهم فى الحياة بالعمل ثلاثة أيام فقط فى الأسبوع، وأنهم لن يعملوا أبدا أربعة أيام»<sup>(٣٥)</sup> وفى خضم مثل هذه الأزمة الاقتصادية والقلق الاجتماعية، اختار أقوى الناس وأكثرهم ثقة بالنفس الهجرة أو الانضمام إلى الحركات الثورية ف فيما

بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر، هاجر مئات الآلاف من الإيطاليين والألمان والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين إلى بلاد أخرى سعياً وراء مستقبل أفضل وفي فرنسا، عجل اضطهاد البروتستانت والعاملين خارج إطار القانون في قطاع النسيج برحيل كثيرين من منظمي المشروعات والعمال المهرة، أساساً إلى إنجلترا وهولندا، حيث استطاعوا الإزدهار هم ومصيفوهم

### أخيراً - بعد ثلاثمائة سنة

عندما عرقلت التنظيمات ذات الهياكل السينة نشاط مشروعات الأعمال الرسمية، وعندما تحدى من لا يتمتعون بحماية القانون صراحة القانون وأغربوا عن سخطهم على دفعهم إلى الهامش، كان المسرح قد أعد لكى يتكيف السياسيون مع الحقائق القائمة على أرض الواقع كان القانون قد تحجر تقريباً بنفس المعدل الذى أحاطت به مستوطنات المهاجرين بالمدن وعندما غزا الباعة الجائلون والشحاذون واللصوص الشوارع، وعندما تكسدت السلع المصنوعة بصورة لا تتمتع بحماية القانون أو المهرة فى الأسواق، أصبح فساد المسؤولين متفشياً، وأشاع العنف الفوضى فى المجتمع المدنى

وبدأ القانون يتكيف مع احتياجات الناس العاديين، بما فى ذلك آمالهم بشأن حقوق الملكية فى معظم بلدان غرب أوروبا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ويحلول ذلك الوقت، توصل الأوروبيون إلى أنه من المستحيل التحكم فى الثورة الصناعية ووجود حشد من الأعمال التى لا تتمتع بحماية القانون من خلال تصحيحات ثانوية ومخصصة لحالات محددة وأدرك السياسيون فى نهاية المطاف أن المشكلة ليست فى الناس بل فى القانون، الذى كان يشبط همهم ويمنعهم من أن يصبحوا أكثر إنتاجية

وعلى الرغم من أن صورة المجتمع قبل الرأسمالى وظروف انهياره، متمثلتين تماماً فى معظم البلدان الأوروبية، فإن المحصلة لم تكن متماثلة دائماً فقد ازدهرت البلدان التى قامت بجهود قانونية لإدماج المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون على نحو أسرع من البلدان التى قاومت التغيير

واستأصل السياسيون الأوروبيون التناقضات فى نظمهم الاقتصادية والقانونية، وسمحوا لبلادهم بالوصول بالثورة الصناعية إلى ذرى جديدة، وذلك بتيسير الحصول على الملكية الرسمية، وتقليل العقوبات التى خلقتها اللوائح البالية، والسماح للترتيبات المحلية القائمة بأن تؤثر فى صنع القانون إن ماضى أوروبا يشنه بقوة حاضر البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وليست المشكلة الأساسية التى تواجهها الأخيرة هى أن الناس يفرزون المدن ويتخمونها، وأن الخدمات العامة غير كافية، وأن القمامة تتراكم فى اكوام هائلة، وأن الأطفال فى اسعال بالية يشحدون فى الشوارع، أو حتى أن منافع برامج الإصلاح الاقتصادى الكلى لاتصل الأغلبية فكثير من هذه الصعوبات شهرته أوروبا (وكذلك الولايات المتحدة) وتم التغلب عليها فى النهاية إن المشكلة الحقيقية هى أننا مازلنا لم نعترف بأن كل هذه الصعوبات تشكل تغييرا هائلا فى الآمال. فمع تدفق الفقراء على المدن وإبرامهم عقودا اجتماعية غير قانونية، يفرصون إعادة توزيع كبيرة للقوة وبمجرد أن تقرر حكومات البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة بهذا، تستطيع أن تشرع فى السيطرة على الموجة بدلا من أن تتلعبها تلك الموجة





## الفصل الخامس

# الدروس الغائبة عن التاريخ الأمريكى

إن هذه البلاد مباركة لأنها استطاعت التغلب على طغية واحد لحساب. هو الوضع  
القائم

— ميلتون وروز فريدمان

مع ازدياد اهتمامى بدور نظم الملكية الرسمية فى التنمية الاقتصادية، قمت  
برحلات عديدة إلى البلدان المتقدمة، للتوصل إلى المدى الذى يذهب إليه خبراءها  
فى حقوق الملكية فى إدماج الأصول غير القانونية للبلد فى نظام موجد للملكية  
القانونية وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما، وبعد قطع آلاف الأميال، ومزيد من الشعور  
الأبيض، كنت قد زرت تقريبا كل التنظيمات الحاصلة بالملكية فى العالم المتقدم.  
من أصدقائى فى «سجل جلالة الملكة للأراضى» و«هيئة الأراضى» فى ألاسكا،  
إلى هيئة «توكي بو» اليابانية ولم يكن لدى أحد جواب. فقد اعترف كل الخبراء  
الذين سالتهم، وكل المهنيين المرتبطين بحشد من المؤسسات والهيئات المرتبطة  
بالملكية التى زرتها، بأنهم لم يفكروا فى السؤال مطلقا

ولدى الأشخاص الذين يديرون نظم الملكية فى البلدان المتقدمة اهتمامات  
وشواغل مختلفة وهم مشغولون أساسا بالأمور المتعلقة بحقوق الملكية بيد أن  
شاغلى الأول لم يكن حق الملكية فى حد ذاته، وإنما «ما وراء الحق» - قرص  
الحصول على حق الملكية أو الحق فى حق الملكية ورغم أنه كان لدينا  
موضوعات كثيرة تحظى باهتمام مشترك، مثل كيفية إجراء عملية إعادة

هندسة منظمة للإسكان بالسجلات لتحقيق تكامل المعلومات التي يتم جمعها ميدانياً في قاعدة بيانات موحدة، أو كيفية تطوير إجراءات وضع الحدود على الخرائط الأساسية في شكل رقمي، فإن خبراء الملكية لم يستطيعوا أن يخبروني بالطريقة التي يمكن بها دمج الأشخاص الذين يحوزون أصولهم بموجب تربيئات لا تتمتع بحماية القانون في [نظام الملكية القانونية كيف تمتع الناس الحق في حق الملكية القانونية]؟

وكان من الواضح من القدر القليل الذي قرأته من تاريخ الغرب، أن كل البلدان الغربية حققت في نقطة ما من ماضيها الانتقال من التقاليد غير الرسمية المعتمدة إلى نظام قانوني متكامل للملكية ومن ثم، فلماذا لا أمضى في ذلك - في تاريخ الغرب لأرى كيف تطورت نظم الملكية لديه؟ ووافق من استصافوني محماس، وأرشدني المعجبون بالتاريخ في «سجل جلالة الملكة للأراضي» و«الرابطات الألمانية للمساحين المعتمدين» إلى كتبهم المفضلة

وقادتني قراءتي لآلاف الصفحات فيما بعد، إلى نتيجة أساسية مؤداها أن الانتقال [إلى نظم الملكية القانونية المتكاملة] لا يرتبط بالتكنولوجيا (رغم أن التكنولوجيا تلعب دوراً داعماً مهماً للغاية، كما سنرى في الفصل السادس) فقد ارتبط التغيير الحاسم بتطوير القانون ليلأنم الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية لغالبية السكان وتدرجياً، أصبحت البلدان الغربية قادرة على الإقرار بأن العقود الاجتماعية التي ظهرت خارج القانون الرسمي كانت مصدراً مشروعاً للقانون، وعلى التوصل إلى طرق لاستيعاب هذه العقود وهكذا تم وضع القانون ليفيد تكوين رأس المال الرخيص والنمو الاقتصادي وذلك هو ما يسعى على مؤسسات الملكية الحالية في الغرب حيويتهما وبالإضافة لذلك، كانت ثورة الملكية هذه على الدوام انتصاراً سياسياً وكانت في البلدان كافة نتيجة لجهد قلة مستبصرة من الرجال، قرروا أن القانون الرسمي لا يصبح له معنى إذا عاش جزء كبير من السكان خارجه

إن لدى مختلف تواريخ الملكية في أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة جميعها شيئاً مفيداً تقوله عن الشواغل الحالية للبلدان العامة والبلدان

**الشموعية السابقة** ففى كل بلد منها، لم يكن الخروج الواضح على القانون يتعلق حقاً بالجرائم، وإنما بالتضارب بين صنع القانون على المستوى **الجماعى** وصنع القانون عند القمة وتضمنت الثورة فى كل حالة اندماجاً **تدرجياً** بين النظامين

بيد أن إيراد التواريخ التفصيلية لهذه البلدان كافة أكبر مما يلزم لهذا **الكتاب** ولذلك، قررت التركيز على الولايات المتحدة، لأنها كانت بلداً من العالم **الثالث** منذ أكثر من ١٥٠ عاماً مضت وكانت الحكومات والنظام القضائى فى **الولايات** العتية، والتي لم تكن قد توحدت قانوناً بعد، يحاولان مواحة قوانين واضطرابات، المهاجرين، واضعى اليد، والمنقبين عن الذهب، والعصابات المسلحة، وأصحاب المشروعات التى لا تتمتع بحماية القانون، وبأقى **الأشخاص** النابضة بالحياة التى استوطنت الغرب الأمريكى، البرى بهذا **القدر** الكبير والرومانسى للغاية حتى لو جاء إدراك هذا متأخراً وباعتبارى من أبناء العالم الثالث، فإن صورة هذا الماضى الغريب تبدو مألوفة على نحو مدهش. ورغم أننى أنا وزملائى نجد صعوبة فى التكيف مع دلالات مكونات **مؤشر** داو جونز العديدة، فإننا نجد ألفة كبيرة بين واضعى اليد فى **فيرجينيا** **توماس جيفرسون** أو فى مستوطنات الكباتن الخشبية فى كنتاكى **دانييل بون**. ومثلما تفعل سلطات العالم الثالث حالياً، فقد حاولت الحكومات الأمريكية أن توقف الزيادة [بمتوالية أسية] فى أعداد واضعى اليد، والترتيبات غير **القانونية** لكنها على خلاف سلطات العالم الثالث، سلمت فى النهاية، على حد تعبير أحد أعضاء الكونجرس الأمريكى بأن «نظام الأرض قد انهار عملياً.

وبدلاً من التشريع لهم، فإننا نقوم بالتشريع وفقاً لهم فى ملاحقة كاملة لمسيرة **روكى ماونتز** أو **باسفيك أوشن**، وكان، ما تعلمه السياسيون الأمريكيون فى نهاية المطاف، مثلما أوضح **فرانسيس فيلبريك**، هو أن «القوى التى غيرت القانون بطرق ليست باليسيرة تكم خارجة»<sup>(١)</sup> وحتى «مرسوم هومستيد» الشهير الصادر فى ١٨٦٢، الذى أعطى للمستوطنين حق تملك ١٦٠ فدانا من الأراضى الخالية مقابل مجرد الموافقة على العيش فيها وتطويرها عمرانياً، لم يكن مرسوماً صادراً عن الكرم، بقدر ما كان صادراً عن التسليم بالأمر

الواقع. إذ إن الأمريكيين طفقوا في التوصل في - أو تحسين - الأرض بصورة لا تتمتع بحماية القانون عقوداً طويلة. وعكس السياسيون هناك تدرجياً القانون ليديمج هذا الواقع في النظام القانوني الرسمي، واكتساب بعض النقاط السياسية في المساومة. وإذ غير المسؤولون الأمريكيون بهذا قوانينهم لاستيعاب الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون القائمة، جعلوا الأصول المملوكة للمستوطنين وأصحاب المناجم الأمريكيين صالحة للتحويل إلى رأس مال. ومثلما حدث في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، فإن تحدى رسملة الفقراء في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، هو في أساسه تحد سياسي يتعين التصدي له بأدوات قانونية.

وفي وصف تطور الملكية في الولايات المتحدة، مثلما سلورد في هذا الفصل، لا ادعى إعادة كتابة تاريخ أمريكا، فمثل الشخص الأسطوري الذي سميت باسمه، فإنني سأستكشفها فحسب. وكما سترى، فقد عثرت أثناء هذه العملية على أمثلة كثيرة ذكرتني بالبلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة في الوقت الحالي. هزات حاشدة، وانفجار في النشاط الذي لا تتمتع بحماية القانون، والقلقل السياسية، والسخط العام على النظام القانوني البالي المهجور الذي رفض الاعتراف بأن مبادئه وصيغته ليس لهما صلة تذكر بعالم الواقع، كما توصلت إلى كيفية إدماج القانون الأمريكي تدريجياً للترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون للتوصل إلى نظام سلمي. مما أكد رأي القاضي هولز بأن «التجربة» هي التي تهب الحياة لتطبيقات القانون، مبيناً، مثلما سترى في الفصل التالي، أن القانون يجب أن يوافق الطريقة التي يرتب الناس بها حياتهم. معاً إن الطريقة التي يبقى بها القانون على قيد الحياة هي بارتباطه بالعقود الاجتماعية المبرمة بين الناس الحقيقيين في أرض الواقع ملحوظة معاً.

### التمائل مع تاريخ الولايات المتحدة

من الصعب استيعاب قدر أهمية الضغط من قبل الذين لا يتمتعون بحماية القانون، والاستجابة السياسية له في الولايات المتحدة، بمجرد القراءة

العشوائية في قسم التاريخ الأمريكي في مكتبة ما كما لن يكون من السهل على معظم السياسيين والتكنوقراط ذوي العقلية الإصلاحية، اكتشاف التاريخ الأمريكي الذي ينبغي أن يهتموا به أكثر الاهتمام، وأساسا الصلة بين إضفاء طابع قانوني على الملكية وخلق رأس المال ولكي يكون التاريخ مفيدا من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، يتعين تجميعه لتوضيح المشكلة المطروحة وعموما، فإن المتخصصين في الملكية لم يكتبوا عن الانتقال من الحقوق غير القانونية إلى نظام قانوني متكامل للملكية. وقد تكون هناك عدة أسباب لهذا أولا، إن المسيرة التاريخية لم تكتمل بعد فعلى عكس الاعتقاد الشائع، فإن نظم الملكية المفتوحة لكل المواطنين ظاهرة حديثة نسبيا - لايزيد عمرها على مائتي عام - ولم تظهر بعد التداعيات الكاملة لهذا الانتقال ففي معظم دول الغرب، لم تكتمل المهمة الأساسية لإجراء إصلاح واسع النطاق للملكية إلا منذ قرن مضى وفي اليابان يقل عمره عن خمسين عاما وحيث إن العملية كلها التي خلقت نظاما متكامل للملكية كانت نتيجة تطور غير واع بالكثير مما كانت نتيجة تخطيط واع، فلا بدعو للدهشة أنها تقتضى وقتا لكي تتضح كل الدروس المفيدة لخلق الملكية في البلدان المتقدمة لكل الناس في العالم النامي. ثانيا، جرى النظر تقليديا للملكية من وجهة نظر البلدان المتقدمة وتعتبر معظم الأدبيات المزدهرة حاليا عن الملكية، أصلها الذي نشأ في الغرب أمرا مسلما به

ويكمن السبب الثالث في صعوبة استيعاب عملية خلق الملكية الرسمية في أنه من الصعب تتبع خيط الرواية فقد غطت أحداث تاريخية أخرى على استيعاب القانون الرسمي البطيء للممارسات والعوائد والأعراف التي اتبعتها العاملون خارج إطار القانون وعلى نحو نموذجي، عولجت مسألة منح حقوق الملكية الرسمية للمستوطنين وواضعي اليد في الولايات المتحدة، وهي التي خلقت في نهاية المطاف الأساس لتوليد رأس المال والمعاملات في سوق أخذة في التوسع، باعتبارها استراتيجية سياسية لمساعدة الطموحات الإمبريالية الأمريكية، ومساعدة الرواد على استغلال موارد البلاد الشاسعة، وتخفيف التوترات بين الطوائف كما لم يركز المتخصصون في شؤون الملكية في المحل

الأول على أن هذه الخطوات نفسها ربما اتاحت للولايات المتحدة أيضا أن تتجاوز الصراع بين النظام القانوني والترتيبات غير القانونية لواضعي اليد وغيرهم من الرواد

واكرر القول ثانية إننى لا أستهدف فى هذا الفصل إعادة كتابة تاريخ الولايات المتحدة، بل إعادة ترتيب الرواية المألوفة بطريقة تساعد على فهم أن الفوضى البادية فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة هى من الواقع بحث عن نظام قانوني جديد. ومن ثم، فلنتأمل انتقال «القانون» غير القانوني من الغابات والحقول فى الولايات المتحدة الوليدة إلى كتب القانون فيها

### التخلى عن القانون البريطانى المهجور

شهد القرن السادس عشر بداية هجرة غير مسبقة لاهل أوروبا الغربية إلى شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية. وهو ما أسماه المؤرخ برنارد بايلن «واحدا من أعظم الأحداث فى التاريخ المسجل»<sup>(٢)</sup> ففى أمريكا الشمالية البريطانية. حسبما قال هوفر، «أحتشد تجمع يشعر بالبرد والتعب والخوف من الرجال والنساء على الشاطئ الغربى للأطلنطى، متسللين إلى برية من الغابات الكثيفة وإذا كانوا يتشبثون بإحكام بالحافلات المترنحة وبالأناجيل، فلا بد أن البعض منهم استدعى ذكرياته فى العالم الذى تركوه خلفهم»<sup>(٣)</sup>

ومن بين هذه الذكريات كانت هناك أفكار عن كيفية بناء المجتمعات والحفاظ عليها، وتسوية المنازعات، والحصول على الأرض، وبناء المؤسسات الحكومية ولعب النظام القانوني دورا بارزا فى حل المنازعات التى خلقتها هذه الأعمال على نحو دائم والواقع أن القانون «مضى إلى كل مكان» فى أمريكا الأولى، حيث استندت الحكومات الاستعمارية الأولى على وثائق قانونية - «موثيق» وعملت الاقتصادات الاستعمارية بموجب قوانين تنظم الأسعار والأحور ونوعية السلع وحدد القانون للناس وسائل بيع أراضيهم للآخرين أو التوصية بها لهم، ووفر منبرا لتسوية الخلافات حول الأسوار المهدمة والثروة الحيوانية

الضالة، بل أخبر الناس بكيفية العبادة، والرواج، وتربية أطفالهم، ومعاملة خدمهم وجيرانهم»<sup>(٤)</sup>

وفى البدء حاول القائمون بتكوين المستعمرات تطبيق مبادئ قانون الملكية الإنجليزى لإقامة النظام لكن القانون العادى الإنجليزى لم يكن يستهدف مجتمعا يؤيد بصورة سريعة أشكالا جديدة من فرص الحصول على الملكية بدون وجود نظام راسخ ومقبول بصفة عامة لسندات الملكية فعلى سبيل المثال، لم يوجه القانون العادى الإنجليزى المشورة حول كيفية معالجة المحاكم لقضايا تشتمل أشخاصا اشتروا أو ورثوا أرضا بسندات ملكية مشكوك فيها ونتيجة لذلك، «أصبح التقاضى العلنى بشأن سندات الملكية فى المحاكم الإقليمية ضرورة مطلقة وكان فى مقدور كل الأطراف المعنية أن تتقدم بشهادتها، وأصبحت قرارات المحاكم ضمانا فعالا نسبيا وعاما حيث لا يوجد ضمان آخر»<sup>(٥)</sup>

بيد أن معظم هؤلاء المعمرين كانوا لا يفهمون كثيرا فى تقنيات القانون الإنجليزى فلم يكن كثيرون يعرفون، أو لم يهتموا بمعرفة، الفرق بين حكم المحكمة، والقانون وحقوق المساهمين، وغير ذلك من المعايير الدقيقة والأهم من ذلك أن قانون الملكية العادى الإنجليزى لم يكن عادة مؤهلا للتصدي للمشكلات التى واجهت المعمرين لقد أتاح وفترة الأراضى فى أمريكا الشمالية البريطانية للمستوطنين الأول مرصا لا يمكن تخيلها فى أوروبا التى كانوا قد تركوها فعند الوصول إلى «قارة كان كثير من الأرض فيها قد أخلته للزراعة، الطبيعة أو الهود، اندفع الإنجليز (والأوروبيون الآخرون) لتقسيم مصدر ثروتهم الجديد ونتيجة لذلك، ثم التجاوز بسهولة عن إيلاء اعتبار دقيق للتفاصيل وكان يتم التفاوضى عن عدم الدقة فى التخصيص والتسجيل، ولم يول سوى اهتمام قليل للحط المنظمة التى كان يتعين اتباعها، كما هو متوقع [من قبل السلطات الاستعمارية]<sup>(٦)</sup> لم تكن كل الأرض خصبة، وحييدة الصرف، أو فى مدى الوصول السهل للمراعى لتوفير إمداد من الأعلاف لماشية المستوطنين وخيولهم<sup>(٧)</sup>، وفى بحثهم عن الأراضى الملائمة، تحرك

المعمرون الأمريكيون عادة على هواهم، يرسمون الحدود، ويزرعون الحقول، وينتجون البيوت. ثم يهجرون كل ذلك للانتقال إلى إقليم آخر أكثر خصبا وترتب على حقوق الملكية قدر كبير من التباين والعمل خارج إطار القانون ويقدم ديفيد توماس كونيغ هي تحليله للتغير القانوني في مستعمرة ماساتشوستس، ملخصا لأوجه الإخفاق البيروقراطي والتقني الذي فاقم مشاكل الهجرة فعلى سبيل المثال، اثار الافتقار إلى نظام موحد للمسح، اختلافات وأنواعا من الشذوذ عن القواعد وهي كل أنحاء ماساتشوستس، اختلفت السلطات الاستعمارية عادة حول الكيفية التي ينبغي تقسيم الأراضي بها «على سبيل المثال، لم يكن هناك اتفاق عما إذا كانت الخطوط المستقيمة أو الخصائص الطبيعية هي التي يعمين استخدامها للفصل بين خيارات الأراضي». فأحد المعمرين «افترض أن الملكية الممنوحة له وقدرها ثلاثمائة فدان في ريدج مستطيلة الشكل، ولكن أفزرعه فيما بعد أن يكتشف أن قطعة الأرض الخاصة بجاره في المدينة المجاورة قد حددت في «شكل دائري» ينتقص قوسه من المساحة المحصنة [للمعمر]<sup>(٨)</sup>. كما زادت العيوب التقنية في إجراءات المسح عدم اليقين والإرتباك ويلاحظ كونيغ أن الصعوبات التي واجهها التعويض عن انحراف دائرة خط الطول في أمريكا الشمالية، أثارت عادة ادعاءات متداخلة بشأن الملكية، حتى توصل جون وينشروب الرابع إلى [جدول انحراف القطب المغناطيسي عن القطب الجغرافي الخاص بمسح الأرض في ١٧٦٣]<sup>(٩)</sup>

وفي استنباط أحكام بصدد ذلك الحشد المثير للإرتباك من المنازعات على الملكية، والتي لم تكن هناك سوابق إنجليزية لطبيعتها، أو كان هناك القليل منها، لم تستطع السلطات الاستعمارية أن تنزل على أحكام القانون الإنجليزي وبديلا من ذلك، «اتجهت المحاكم عادة لأعراف المدن المحلية، وحوّلتها إلى هيكل جديد من القانون يحقق استقرار المعاملات الخاصة بالأراضي»<sup>(١٠)</sup> وفي أمور تتراوح من الاستقلال الذاتي السياسي المحلي إلى استخدام الأرض وتوزيعها، بدأ المعمرون يبتعدون بطرق واضحة عن القوانين الإنجليزية التي ليس لها أي صلة منطقية، أو لها صلة محدودة، بوقائع حياة



المعمرين ومثلما يؤكد بيتر تشارلس هوفر «فمن الناحية النظرية، كانت المستعمرات جزءاً من الملكية الشخصية للملك [وتخضع لكل قوانينه]، لكن الحقيقة غلبت النظرية. فالمستعمرات البعيدة عن إنجلترا، والمعجورة بعدد ضئيل من السكان، والغنية بالموارد الطبيعية، والتي يشغلها رجال ونساء يعرفون رغباتهم ويغتنمون العرض حينما تلوح لهم، تحركت تدريجياً نحو الحكم الذاتى»<sup>(١١)</sup>

### التقاعيد الأمريكية الأولى. وضع اليد

رغم أن المهاجرين الأول كانوا أساساً رعايا بريطانيين ويخضعون للقانون الإنجليزى، فإنهم بمجرد أن انتقلوا إلى أمريكا، وهى واقع مختلف، بدأت تغيير الطريقة التى يرتبطون بها مع بعضهم البعض فى إنجلترا، كان احتلال قطعة من الأرض مدة طويلة بدون سند للملكية - «وضع اليد» - مناقضا للقانون أما فى الولايات المتحدة، ومع عدم وجود أى مقاومة أولية وتوافر كثير من الأرض، سرعان ما أصبح وضع اليد على الأراضى المتوافرة ممارسة سائدة ووضع اليد أقدم من نشوء الأمة نفسها فحسب دراسة أميليا فورد للسوابق الاستعمارية لنظام الأراضى الأمريكى، فإنه «قبل وصول شركة ماساتشوستس ماى إلى نيو إنجلند، كان هناك مستوطنون يعيشون بدون ميثاق أو منحة فى أماكن مختلفة داخل حدود الخليج وكان المستوطنون الأول فى كونيكتكت من الناحية القانونية من المعتقدين على حرمة الإقليم الذى عاشوا فيه، ولم يستطيعوا أن يؤسسوا ملكيتهم إلا بالاحتلال والشراء من الهنود»<sup>(١٢)</sup> وفى السنوات الأولى لماريلاند، شغل الفرنسيون وغيرهم من غير الإنجليز الأرض التى لم يستطيعوا تملكها بموجب شروط الميثاق وفى ١٧٢٧، عارض المشرعون فى بنسلفانيا تلك «المجموعات [التي] كثيرا، ما تحتل أى قطعة من الأرض الشاغرة تستطيع العثور عليها» وبالفعل احتل واضعوا اليد الأمريكيون المعمرون هؤلاء ١٠٠ ألف مدان من الأراضى، وحسنوها بدون «ظل من الحق»، كما قال أحد المؤرخين<sup>(١٣)</sup>

وفى نيو إنجلند، لم يجد السياسيون نوى الاملاك أى فضيلة فى أنشطة واضعى اليد، والذين اعتبروهم مجرد معتدين بصورة غير قانونية وفى فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٣٤ فى ماساتشوستس، حاولت المحكمة العامة الحد من وضع اليد، بأن قضت بأن «كل الاراضى الممنوحة للرجال الاحرار يجب أن تسجل، وأن يرسل إليها نسخة من وثيقة التسجيل وكان يتعين إجراء المسح فى كل مدينة بواسطة شرطى وأربعة غيره من الرجال الاحرار»<sup>(١٤)</sup> ولم يجد هذا ايضا واضطر التقاعس الواسع النطاق لمن يحتلون الأرض «عن الامتثال لأوامر قانونى ١٦٣٤ و ١٦٣٥، المحكمة العامة [فى ١٦٣٧] للتحرك مرة أخرى والمطالبة «بتأخذ بعض الإجراءات الصارمة لجعل الناس يسجلون اراضيهم، أو تفريغهم على ذلك الإعمال»<sup>(١٥)</sup>

بيد أنه، لم تكن هناك وسائل قانونية فعالة لتسوية المنازعات الكثيرة التى تشور ونتيجة لذلك، اتجه واضعو اليد إلى أدوات الأمر الواقع التى فتحت فرصاً لإسفاء المشروعات على وصع اليد ووقع كثير من أشد المنازعات احتداماً على الاراضى الطرفية الشاغرة بدرجة كبيرة، والتى تعرف الآن بفيرمونت وماين قبل نشوب الثورة الأمريكية، ادعت نيويورك ونيو هامبشير ملكية إقليم فيرمونت<sup>(١٦)</sup> وللتحاييل على ادعاء نيويورك، فإن حاكم نيو هامبشير، بنج وينتورث، «استند لحدا أن الملكية هى تسعة أعشار القانون وقدم محاماً محامياً فى المنطقة لكل من مواطنى نيو هامبشير وماساتشوستس. [والنتيجة هى أنه بين ١٧٦٤ و ١٧٦٩] تم منح ١٣١ ناحية إلى أكثر من ستة آلاف مجموعة منتقاة من الافراد»<sup>(١٧)</sup>

وفى أعقابهم مباشرة، سرعان ما اجتاحت واضعوا اليد البلاد، فلم يكونوا يدينون بولاء كبير لأى ولاية والواقع «أن المستوطنين بدأوا يتدفقون إلى فيرمونت ويستوطنون حيثما يلائم هواهم»<sup>(١٨)</sup>. وأدركوا مبكراً أهمية العمل الجماعى، وبدأوا «فى تقديم التماسات أولاً إلى حاكم هامبشير ثم إلى حاكم نيويورك بأن تشمل منح الاراضى مستوطناتهم، أو أن يصدر أمراً يثبت أوضاعهم فى أراضيهم»<sup>(١٩)</sup> ورغم أن كلتا المستعمرتين حاولتا إجهاض مطالب واضعى اليد، بتكرار إقامة دعاوى طرد ضدهم، فقد كانت هيمنة

واضعى اليد على الأراضى كاملة لدرجة أن إيثان ألن «وأتباعه من واضعى اليد» تولوا حكم فيرمونت فى أعقاب الثورة وتمثلت النتيجة الأولى لهذا الانتصار غير العادى «لسلطة واضعى اليد» فى الاعتراف رسمياً بترتيباتهم الخاصة بالملكية

وكثيراً ما أشعل ميراث عمليات وضع اليد، السياسيون ذوى الأصول المتطهين على تطوير واستغلال موارد المستعمرات فعلى معظم المستعمرات، كان السياسيون يعتقدون أن تنمية الأراضى لايمكن تحقيقها إلا من خلال الهجرة إليها ولتحقيق هذا الهدف، قدم السياسيون المعمرين منحاً للأفراد والجموعات لكى يستقروا فى الأراضى التى لم تتم تنميتها عمالياً، معلنين أن سند الملكية ينتقل عن طريق احتلال الأرض وتحسينها ففى فيرجينيا، حسبما قال فوردر، «كان الاستقرار فى قطعة الأرض وتملكها يعنى بناء منزل، وزراعة فدان واحد، والاحتفاظ برصيد يكفى لمدة عام واحد» وإن لم يتم هذا فى خلال ثلاث سنوات، تؤبل الأرض للدولة<sup>(٢١)</sup> وبموجب قانون ماساتشوستس، كانت واجبات المستوطن «تتضمن الاصطلاح بالملكية الفعلية، وخلال ثلاث سنوات، بناء منزل بحجم محدد، عادة ثمانية عشر أو عشرين قدماً مربعاً، وإحلال وإعداد من خمسة إلى ثمانية أفدنة لزراعة العشب والفلاحة»<sup>(٢٢)</sup>

وفى ماريلاند خلال سبعينيات القرن السابع عشر، استخدام اللورد بالتميمور واضعى اليد «لتسوية النزاعات حول بعض الأراضى على الجانب الساحلى من «الشاطئ الشرقى» وخليج ديلاوير»<sup>(٢٣)</sup> وفى إجراء للإبقاء على سلامة تدفق إيراداتهم، فإن أسرة «بن» مؤسس بنسلفانيا «أصدرت تعليمات بأن الأشخاص الذين استوطنوا على أى أرض يمكنهم الحصول عليها بالسعر السائد فى وقت الاستيطان، بفائدة تحسب من ذلك الوقت ولكن مع خصم قيمة التحسينات» وأن من لا يستطيعون ذلك، ملزمون بدفع بدل يتناسب مع سعر الشراء»<sup>(٢٤)</sup> بيد أنه معلماً اكتشفت أسرة «بن» سريعاً، فقد ثبت أنه من الصعب لأقصى حد تنفيذ هذه التعليمات إن لم يرد واضعو اليد الدفع والواقع أنه «أصبح واضحاً أنه ما لم يتم وضع تسوية مؤقتة مع هؤلاء الرجال الذين عقدوا العزم والمتعطشين للأرض، والذين لايمكن طردهم، فإن إيرادات ضخمة ستضيع

حتما وبالتالي تفاوضى مكتب الاراضى [فى منسلفانيا] عن، أو سمح باستخدامات كثيرة عجز عن أى يمنعها، ومن هنا نشأت إلى جانب حقوق المكتب العادية، أنواع كثيرة خاصة ومحلية، من سندات ملكية الأرض<sup>(٢١)</sup> وفى سعيهم لتأمين الحقوق التى كانوا يأملون فى الوصول إليها من خلال سياسات الاستيطان هذه، كثيرا ما تبين واضعو اليد أن النظام الرسمى جدّ موهق أو معقد ومثلما لاحظت أميليا فورد، «فقد كان مكتب الاراضى بعيدا جدا، وكانت الأمور جدّ مضطلة، والأساليب جدّ معوقة بحيث لاتناسب متطلبات [واضعى اليد] العمليين»<sup>(٢٢)</sup>. واصبحت القوانين البروطانية على نحو متزايد منبذة الصلة بالطريقة التى يعيش بها اناس كثيرون ويعملون

### عقد اجتماعى جديد: «حقوق توماهوك»

فى ظل الفوضى التى أحاطت بالقانون والأرض والملكية، ادرك المهاجرون أنهم لو أرادوا أن يعيشوا فى سلام فيما بينهم، فإن عليهم أن يقيموا نوعا ما من النظام، حتى لو كان يتعين إقامته بعيدا عن القانون الرسمى وبدأ واضعو اليد فى اختراع الأنواع الخاصة بهم من سندات الملكية غير القانونية المعروفة باسم «حقوق توماهوك»، «حقوق الكوخ»، و«حقوق الذرة»، وكانت «حقوق توماهوك» يتم تأمينها بإمالة بعض الأشجار قرب منبع ينبوع ما، ووضع علامة على لحاء شجرة أو أكثر بالحروف الأولى للشخص الذى أجرى التحسين وفى فترة مبكرة ترجع إلى ستينيات القرن السابع عشر، طور واضعو اليد فى مارييلاند عادة وضع علامات على الأشجار القائمة فى الاراضى التى يريدونها، قبل مسحها بإذن من «المساح العام» للمستعمرة<sup>(٢٣)</sup> ومع نهاية الثورة الأمريكية، أصبح أسلوب وضع علامات على الأشجار لإثبات حق الملكية فى الأرض شهيرا لدرجة أن مسؤولا فى الجيش كتب إلى وزير الحرية يقول: «لقد اعتاد هؤلاء الناس الذين يعيشون على الحدود أن يستولوا على أفضل الاراضى، مارضين حق توما هوك أو تحسبيا، كما يطلقون عليه، مفترضين أن ذلك يمثل سند ملكية كافيا»<sup>(٢٤)</sup>

وكان «حق الكوخ»، و«حق الدرة»، يعنى تعليم حدود الأرض ببناء كوخ حشبي أو زراعة محصول للذرة. ومما له دلالة، أن هذه الحقوق غير القانونية كانت تشتري وتباع وتنقل - تماما مثل سندات الملكية الرسمية<sup>(٢٨)</sup> - وعلى الرغم من أن حقوق الكوخ وحقوق الدرة هذه قد لا تخول قابونا أى شخص الحق فى ملكية الأرض، فلاشك أن حقوق الملكية عبر القانونية هذه ساعدت على تعادى المنازعات، وكانت مقبولة على نطاق واسع فى مجتمعات الحدود فى أمريكا، وأصبحت مصدر سندات الملكية القانونية بعد ذلك بسنوات

ورغم إنعاز السياسيين المحليين الضمى لهذه الترتيبات غير القانونية، ظل واضعو اليد يواجهون عالما معاديا. إذ كانوا يثيرون المنازعات باستمرار مع «أهل البلاد للأمريكيين الأصليين» بفزو أراضيهم لكن واضعى اليد كانوا أيضا يمثلون تهديدا للصفوة التى كانت تخشى ضياع ممتلكاتها الشاسعة. وهذا هو السبب فى أن أحد أعضاء الصفوة - جورج واشنطن - اشتكى فى ١٧٨٣ من «قطاع الطرق الذين سيتهدون كل السلطات فى حين أنهم يقشرون، ويستحونون على، زبدة البلاد على حساب الكثيرين»<sup>(٢٩)</sup>

### إطلاق النار على عمدة البلدة (الشريف)

بدأ المهاجرون يقيمون الحدود، ويحرثون الحقول، ويبنون البيوت، وينقلون ملكية الأرض، وينظمون الائتمان قبل وقت طويل من قيام الحكومة بخلق حق القيام بذلك عليهم بيد أنه على الرغم من كذهم، ظلت سلطات كثيرة مقتنعة بأن هؤلاء الأمريكيين الجدد ينتهكون القانون بصورة صارخة، وأنه يتعين قمعهم ولكن لم يكن من السهل القيام بذلك وحتى عندما حاول جورج واشنطن، الأب الروحى للولايات المتحدة، طرد الأشخاص الذين وضعوا أيديهم على أرضه الزراعية فى ميرجينيا، حذره محاميه من «أنه إذا نجح فى قضيته المقامة ضد المستوطنين فى ممتلكاته، ربما أحرقوا مخازن حبويه وأسواره»<sup>(٣٠)</sup> كما بدأت تتوتر العلاقات بين الولايات الأخرى وواضعى اليد المحليين وحتى قبل الثورة، كان المهاجرون من ماساتشوستس قد بدأوا بالفعل فى

الإستيطان في ماين، وهي إقليم كانت ماساتشوستس قد طالبت به في فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٩١ وتفاوضى السياسسيون في ماساتشوستس، في البداية، عن الزيادة السريعة في اعداد واضعى اليد في ماين البعيدة بيد أنه بعد الثورة، ومع إفلاس خزانة ماساتشوستس وتخفيض قيمة عملتها، تطلع السياسسيون فيها إلى اراضى ماين الشاسعة كمصدر كبير لإيرادات جديدة<sup>(٣١)</sup> وفجأة، أصبح واضعو اليد في ماين عقبة أمام بيع مساحات كبيرة من الأرض وفي ١٧٨٦، أصدر الحاكم بياناً يحظر وضع اليد في ماين<sup>(٣٢)</sup>

ولطمانة المشتريين المحتملين، عينت ماساتشوستس لجنة لتقصي الحقائق ومطالبة «المتعدين» غير القانونيين بدفع مقابل<sup>(٣٣)</sup>، بيد أن معظم واضعى اليد رفضوا ببساطة الرحيل عن اراضيهم أو دفع مقابل وبدلاً من التوصل لحل وسط مع واضعى اليد، أمرت الولاية عُقد القرى (الشريف) بإنفاذ الإجراءات القانونية للطرد، مما أشعل برميل البارود الذى أدى إلى ما وصفه المؤرخون بأنه «شئ شبيه بحرب علنية»

وقد علق أحد المحامين في ماين في ١٨٠٠ بأن «أبرز سمة في شخصية [واضع اليد] هي الكراهية العنيفة والحقودة للقانون» وأضاف «إنهم كانوا يحكمون على «الشريف» وضباطه بأنهم ينبغي التضحية بهم كقرايين، وأن الاسم المكروه لتنفيذ [الاحكام الصادرة في قضايا الطرد] قصد بها إرهابهم فحسب وأعلنوا أن مهنة القانون يجب التخلص منها، وأن المحامين يجب استئصالهم وأن يسد التراب مكاتبهم»<sup>(٣٤)</sup> وعندما كان يقتل شريف وهو يحاول طرد واضع يد، كان المحلفون يرفضون إدانة القاتل المدعى عليه ووافقت ماساتشوستس على تحويل ماين إلى ولاية في ١٨٢٠، جزئياً نتيجة تفاقم العداء لها بين واضعى اليد في ماين<sup>(٣٥)</sup>.

كما بدلت مستعمرات أخرى قصارى جهودها لاستئصال وضع اليد على الاراضى العامة والخاصة ففي نيسلفانيا، بدأ المستوطنون الاسكتلنديون والأييرلنديون التحرك إلى اراضى الهنود في فترة مبكرة ترجع إلى ١٧٣٠، وتصدى لهم أهل البلاد الأمريكيون وحذرت السلطات الاستعمارية مرارا وتكرارا المستوطنين «من سرقة اراضى الهنود، وأصدرت تعليمات بحرق

أكواضهم»<sup>(٣٦)</sup> والواقع، أنه من ١٧٦٣ إلى ١٧٦٨، حاولت جمعية بوسلماانيا ردع وضع اليد بفرض عقوبة «الإعدام»، فى حين أمر الحاكم ويليام بن الجنود بإبعاد المستوطنين غير الشرعيين<sup>(٣٧)</sup> وعلى الرغم من هذه التدابير، تضاعف عدد واضعى اليد وردا على ذلك، حسيما قال أحد مؤرخى الفترة، «أعلن الحاكم الذى استشاط غضبا إعدام من سيسوطنون أراضى الهنود ولكن لم يكن فى الإمكان العثور على أى قاض لمحاكمة هؤلاء السجناء، أو محلفين يمثلون لذلك أو سجون مأمونة»<sup>(٣٨)</sup>

### فتح قانونى: «حق الشفعة»

فى بلد كان فيه كل مستوطن إما مهاجرا أو قريبا لمهاجر، كان واضعو اليد يضرطون للبحث عن مؤيدين لهم بين السلطات الاستعمارية، التى كانت تدرك مدى صعوبة تطبيق القانون العادى الإنجليزى على كثيرين من المستوطنين الجدد فبموجب القانون الإنجليزى، فإنه حتى إذا وضع شخص ما يده عن طريق الخطأ على أرض شخص آخر وأدخل تحسينات عليها، فإنه لم يكن يستطيع أن يسترد قيمة ما فعله بيد أنه نظرا للافتقار إلى حكومة فعالة وسجلات ومسوحات يعول عليها فى المستعمرات، كان على السلطات أن تسلم بأن التحسينات التى أدخلت على الأرض، والضرائب المدفوعة، والترتيبات المحلية المبرمة بين الجيران، كانت أيضا مصادر مقبولة لحقوق الملكية وفى فترة مبكرة ترجع إلى ١٦٤٢، سمحت مستعمرة فيرجينيا للمالك عن طريق الخطأ بأن يسترد قيمة أى تحسينات أجراها من المالك الحقيقى ولاحظ النظام الأساسى لفيرجينيا أنه «إذا استوطن شخص أو أشخاص، أيا كانوا، أى مرعة أو أرض مملوكة بصورة سليمة لشخص آخر، يجب السماح بإيلاء اعتبار قيم لذلك فى حكم يصدره اثنا عشر رجلا»<sup>(٣٩)</sup> وبالإضافة إلى ذلك، فإنه إذا لم يكن المالك الشرعى راضيا فى أن يسدد لواضع اليد مقابل هذه التحسينات، فإن واضع اليد يستطيع أن يشتري الأرض بسعر تحدده هيئة محلفين محلية<sup>(٤٠)</sup> وسرعان ما استنسخت المستعمرات الأخرى هذا النظام

الأساسي وتوضح هذه الأحكام مدى تعاطف النخب المحلية مع الأشخاص الذين كانوا يريدون توليد فائض القيمة من أراضيهم وكان هذا الابتكار القانوني الذي يقضى بالسماح للمستوطن بشراء الأرض التي ادخل عليها تحسينات قبل عرضها للبيع العام، يعرف «بحق الشفعة» - وهو مبدأ شغل مفتاح إدماج ترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون في القانون الأمريكي خلال المائتي عام التالية وبدأ السياسيون وفقهاء القانون يفسرون «التحسينات» بطرق تعيد واضعي اليد بصورة بالغة ففى نورث كارولينا وفيرجينيا، اعتبرت «حقوق الكوخ» و«حقوق الذرة» تحسينات<sup>(٤١)</sup> وفى ماساتشوستس أدرجت «حقوق توماهوك»<sup>(٤٢)</sup> ومما له دلالة، أن إدراج مثل هذه الترتيبات المحلية التي لا تتمتع بحماية القانون في القانون، لم يكن فقط اعترافاً بأن بعض التسامح استحقق عن جدارة المستوطنين الأول بسبب الأعباء والمخاطر التي تكبدها، وإنما كان تعبيراً قانونياً عن شعور سائد بأن واضع اليد كان حقاً بمثابة محسن للولاية، وليس متمدياً على الحرمات»<sup>(٤٣)</sup> وبحلول زمن الثورة الأمريكية، كانت حقوق الذرة الخاصة بواضعي اليد المتقنين، قد تحولت في عقول أشخاص كثيرين، إلى حقوق الامتلاك بوضع اليد من قبل الرواد الجسورين وحتى عندما كان جورج واشنطن يلوم «قطاع الطرق» الذين غزوا أرضه الخاصة، كان هناك سياسيون آخرون في مكان آخر من ولايته الأصلية فيرجينيا يشجعون واضعي اليد بحماية سندات ملكيتهم التي لا تتمتع بحماية القانون وكان حق الشفعة أيضاً مصدراً للإيرادات بالنسبة للولايات قليلة الدخل إذ كانت تتقاضى رسوماً من واضعي اليد مقابل مسح الأرض التي اجروا فيها تحسينات، ومقابل إصدار سندات ملكية قانونية ونتيجة لذلك، انتشرت قوانين حق الشفعة قبل الثورة وبعدها على حد سواء وفى ١٧٧٧، فتحت نورث كارولينا مكتناً للألاك الأراضي لمقاطعة غربية، سمح للمستوطنين بتملك ٦٤٠ فداناً، مفضلاً الأشخاص الذين يضعون أيديهم بالعمل على أرض في المنطقة<sup>(٤٤)</sup> وبعد ذلك بعامين، أصدرت فيرجينيا قانوناً أعطى للمستوطنين الذين وضعوا أيديهم على أرض على حدودها الغربية، حق الشفعة على الأرض التي ادخلوا تحسينات عليها<sup>(٤٥)</sup>



## مزيد من العقوبات القانونية - مزيد من العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون

على الرغم من أن واضعى اليد الأمريكىين كسبوا معارك كثيرة، فقد كانوا معيدين عن كسب الحرب واستمرت ازدواجية الموقف تجاه العاملين خارج إطار القانون خلال القرن الأول للولايات المتحدة، ولم يكن ذلك واضحاً فى أى مكان آخر بقدر وضوحه فى الحكومة الاتحادية الجديدة، التى أصبحت فجأة تسيطر على أراضٍ عامة شاسعة. فعند نحو ١٧٨٤ إلى ١٨٥٠ استولت الولايات المتحدة على نحو ٩٠٠ مليون فدان من خلال الغزو والشرء وشمل شراء لويزيانا (١٨٠٣) ٥٠٠ مليون فدان وشراء فلوريدا (١٨١٩) ٤٣ مليون فدان وشراء جانسن (١٨٥٣) ١٩ مليون فدان؛ وكسبت من الحرب مع المكسيك (١٨٤٨) ٣٣٤ مليون فدان<sup>(٤٦)</sup> وبالإضافة لذلك، فإنه بحلول ١٨٠٢ استولت الحكومة الاتحادية على كل الأراضى الغربية للولايات الساحلية الشرقية

وبداية من ١٧٨٤، بدأ كونجرس الولايات التى اتحدت معاً فى شكل كونفيدرالى (وإن لم تتحد بعد دستورياً) فى وضع خطط لتقييد فرص الحصول على الممتلكات الوطنية والحقوق فيها وكان أخطر قرار هو الذى فرض أن تصبح المستوطنات فى الإقليم الشمالى الغربى فى نهاية المطاف ولايات بنفس الحقوق والمرايا مثل الولايات الثلاث عشرة الأصلية<sup>(٤٧)</sup> وفى ١٧٨٥، وسع الكونجرس القانون الذى كان قد أصدره فى العام السابق، بالنص على نظام لمسح وبيع الأراضى العامة وعلى غرار النموذج المستخدم فى مستعمرات نيو إنجلند، قسّم نظام المسح الأراضى إلى نواح، مساحة كل منها ستة أميال مربعة، ثم تقسيم كل ناحية من الباطن إلى ستة وثلاثين قسماً مساحة كل منها ميل مربع أو ٦٤٠ فداناً وبمجرد مسح هذه المساحة، كان يتعين بيع هذه الأقسام التى يبلغ كل منها ٦٤٠ فداناً بسعر دولار واحد للفدان

بعد ذلك بعامين غرّر الكونجرس فى ١٧٨٧ القانون السابق، بإصدار «قانون الشمال الغربى»، الذى ينص على تقسيم إقليم الشمال الغربى إلى

عدة أقسام، ويحدد ثلاث مراحل لزيادة التمثيل النيابي الذي يؤدي لإقامة ولاية ويصفة خاصة، أرسى القانون مفهوم «ملكية الإقطاعية القابلة للتوريث» (حيازة الملكية على نحو مؤبد مع قدرة غير محدودة على بيعها أو التنازل عنها) ووَقَّر أول ضمان لحرية التعاقد في الولايات المتحدة<sup>(٤٨)</sup> وعلى الرغم من أن هذه القوانين الاتحادية وفرت هيكلًا ممتازًا للقانون الرسمي لتوزيع الأراضي العامة - يعتبر المؤرخون «قانون الشمال الغربي» هو الإنجاز الرئيسي لحكومة الولايات المتحدة قبل وضع الدستور - فإنها لم تستطيع أن تسيطر على، أو تحتوي، العدد المتزايد من الأشخاص الذين يهاجرون لأطراف البلاد وتمثلت مشكلة أساسية في السعر الباهظ المانع للأراضي الاتحادية وإن واجه الآلاف من مهاجري أمريكا بطاقة السعر المرتفعة هذه، والتي تبلغ ٦٤٠ دولارًا - وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت - قاموا فورًا بتحديد الأسعار بمعرفتهم خارج سوق الأراضي الاتحادية<sup>(٤٩)</sup> بيد أن واضعي مشروع قانون الشمال الغربي كانوا قد افترضوا أن المستثمرين الأغنياء سيبيعون فائض قطع الأرض في مساحات صغيرة بسعر منخفض، ويوفرون الائتمان، أو يعرضون الأراضي بإيجارات مواتية وحتى هذه الخيارات المأمولة، كانت تتجاوز إمكانات الرواد<sup>(٥٠)</sup> وبدلاً من ذلك، فإن المهاجرين «اختاروا عدم اليقين المصاحب للاستيطان غير القانوني»<sup>(٥١)</sup> وهكذا، أصبح عدد أكبر من الأمريكيين يقدر بعشرات الآلاف من واضعي اليد على أساس ترتيبات غير قانونية

وبصورة مباشرة تقريبًا، تحركت الحكومة الاتحادية لتهميش وعقاب واضعي اليد هؤلاء فقد هوجموا بضراوة في المناقشات التي أحاطت باعتماد «قانون الشمال الغربي» وكتب ويليام باتلر ميثل نيوبيورك «افترض أن المجلس قد أحاط علماً بنذالة الناس في هذا البلد، الذين يتفقون من كل الأوساط ويحتلون ويستولون لا على أراضي الولايات المتحدة فقط، بل على أراضي هذه الولاية، لقد عبرت مئات كثيرة النهر، وندفقا يومياً بأعداد كبيرة مع أسرهم، وأمل أن يتصدى المجلس بواسع حكمته لهذا الشر الجسيم والمقتامي»<sup>(٥٢)</sup>

وإذ تأثر أعضاء الكونجرس كثيرا بمثل هذه المشاعر، فقد عملوا على ترحيل واضعي اليد، عادة بوسائل عنيفة وفي ١٧٨٥، أصدر الكونجرس قرارا يحظر صراحة وضع اليد على الممتلكات العامة، ويخول وزير الحرية السلطة لترحيل المستوطنين بصورة غير قانونية من الأراضي الاتحادية في إقليم الشمال الغربي وتم تنفيذ هذه السياسة في ربيع ١٧٨٥ عند نقطة اتصال نهرى موسكنجام واوهايو، حيث نزع الجيش الأمريكي ممتلكات عشر أسرى بتدمير بيوتها، في حين شيد حصنا لمنعهم من العودة<sup>(٥٣)</sup> وبعد ذلك بأربع سنوات، أمر الرئيس جورج واشنطن بتدمير الأكواخ وترحيل الأسرى التي استوطنت على أراضي حدود نسلفانيا التي يملكها أهل أمريكا الأصليين<sup>(٥٤)</sup>

بيد أنه على الرغم من أن معظم السياسيين كانوا يريدون الحفاظ على القانون القائم للدولة الجديدة ذات السيادة، فقد تشكل البعض منهم في إمكان تنفيذه بطريقة تتفق مع مصالح البلاد على خير وجه وهذا هو السبب في إثارة مسألة حق الشفعة فوراً<sup>(٥٥)</sup>، فخلال نفس الجلسة الأولى للكونجرس الجديد في ١٧٨٩، عرض أحد الأعضاء بصورة حادة الخيارات التي يواجهها واضعو اليد

يوجد في هذه اللحظة، عدد كبير من الناس في الواقع، ممن يربعون في أن يملكوا عن طريق الشراء الحق في الأرض التي وضعوا يدهم عليها ما الذي سيعتقده هؤلاء الناس، الذين وضعوا أنفسهم في مكان شاعر، منتظرين في قلق تحويل الحكومة للملكية إليهم، والحصول على حقهم في الشفعة في أراض يتم احتكارها عن طريق شراء ملايين الأفدنة؟ هل سيتوقعون أن يقهوا فرانس هؤلاء الرجال؟ إنهم سيفعلون أمرا من اثنين، إما التحرك إلى الأراضي الأسبانية، حيث لن يكونوا مدعويين غير مرغوب فيهم، ويصبحون مصدر قوة لدولة أجنبية تشكل بالنسبة لنا حدودا خطيرة، أو يتجسسون مسار التنقل في أراضي الولايات المتحدة والتملك بدون إذن منكم فما الذي سيصبح عليه الوضع عندهم؟ لن يدفعوا لكم بقودا هل ستحشدون القوة عندهم لطردهم؟ لقد تمت تجربة ذلك، فقد حشدت القوات، وتم إرسالها لتحقيق هذا الغرض وقامت بحرق الأكواخ، وتطعيم الأسوار، وبمرت المساحات الصغيرة لنزوعة بالبطاطس، لكن بعد ثلاث ساعات من رحيل القوات،

عاد هؤلاء الناس ثانية، وأصلحوا الأصرار. وهم الآن يحتلون الأراضي في تحد صريح للاتحاد<sup>(٥٦)</sup>

وكانت آراء لجنة الأراضي العامة في مجلس النواب نموذجاً للتناقض في موقف الكونجرس في ذلك الوقت فعندما أوصت اللجنة في ١٨٠١ بأن يرفض الكونجرس طلبات واضعي اليد بشأن حقوق الشفعة، اعترفت بأن واضعي اليد «قد قاموا، بكثير من الجهد الذي بذلوه والصعاب التي واجهوها، بالاستيطان في أراضٍ محدودة وزرعوها وحسبوها [ومن ثم] فإنهم لم يعزّزوا فقط قيمة الأراضي التي استوطنها كل منهم، وإنما أيضاً الأراضي الواقعة في جوارها، وكان في ذلك نفع كبير للولايات المتحدة». ورغم ذلك، حاجت اللجنة بأن منح «الفقران والتساهل المرجوين سيعود تشجيعاً للاعتداء على الأراضي العامة وتضعية لا مبرر لها بالمصلحة العامة»<sup>(٥٧)</sup> وإذا كان الشعور السائد بين رجال الكونجرس هو إنكار أي حقوق لهم

ويعد عقدين من إنشائه بموجب المادة الأولى من الدستور الأمريكي، استمر الكونجرس في عدائه للمستوطنين الذين يقيمون بصورة غير قانونية في الأملاك العامة وفي ١٧٩٦، رفع الحد الأدنى لسعر الأراضي العامة من دولار واحد للفدان المحدد في الأصر الإداري الصادر في ١٧٨٥ إلى دولارين للفدان<sup>(٥٨)</sup> وفي ١٨٠٧، أقر الكونجرس إجراء ينص على فرض غرامات، والسجن على أي واضع يد يتقاعس عن الامتثال للقانون بمجرد إخطاره، ويبيع استخدام القوة لإبعاد المستوطنين غير القانونيين عند الضرورة<sup>(٥٩)</sup> وفي ١٨١٢ لاحظت وثيقة للجنة المعنية بالأراضي العامة بالمجلس «أن الإستيطان غير الشرعي وغير المصرح به في الأراضي العامة يشكل في نواح عديدة اعتداء على الصالح العام»<sup>(٦٠)</sup>.

بيد أن المشكلة كانت تتمثل في أن الكونجرس كان بعيداً عن الواقع، كما هو الحال في كثير من البلدان حالياً فلم يكن لديه مفهوم عن مقدار ضغط واضعي اليد، كما لم تكن لديه الوسائل اللازمة لفرض ولايته، وحتى المكتب العام للأراضي، الذي أنشئ في ١٨١٢، لمسح، وبيع، وتسجيل الأراضي

العامة، لم يستطع القيام بوظيفته إذ كان على الوكالة الاتحادية الجديدة المكلفة بأثبات براءات الأرض المرسله إليها من مكاتب المناطق، أن تشرف أيضا على إمسك سجلات الشراء الذي يتم بانتظام وكان واضعو القانون يأملون في أن يعمل مكتب الأراضي كمركز للمعلومات يخدم المواطنين الذين يطلبون الحصول على أراضٍ. ولكن سرعان ما فاقت كل هذه المهام قدرة العدد الصغير من موظفيه، الذين سرعان ما تخلفوا عن أداء معظم واجباتهم<sup>(٦١)</sup> ومثلما أوضحت باتريشيا نيلسون ليمرك، فقد أسهم أعضاء الكونجرس أنفسهم في إثارة المشاكل لمكتب الأراضي «قبالنياة عن ناحبي دوائرهم، اشتكى أعضاء الكونجرس من البطء الذي يعمل به المكتب» وبالأصالة عن أنفسهم، قدم أعضاء الكونجرس طلبات كثيرة للحصول على معلومات مما التهم وقت الكتبة، ورفض أعضاء الكونجرس، بهدف التوفير وتقليل النفقات، زيادة مخصصات المكتب»<sup>(٦٢)</sup>

وبالإضافة لذلك، كانت الموارد المالية للولايات المتحدة محدودة في أيامها الأولى، وتعين عليها اللجوء لتقديم المنح من الأراضي لتعويض قطاعات معينة من السكان ويعتقد كثيرون من المؤرخين، أن الحكومة شجعت الخروج على القانون ووضع اليد باتباع أسلوب إصدار «سندات بقطع صغيرة من الأرض»، والتي وصفت بأنها «المكافئ لطوابع الأغذية في القرن التاسع عشر» - وهي أوراق يمكن استبدالها بالأرض<sup>(٦٣)</sup> ومن ١٧٨٠ إلى ١٨٤٨، قدم الكونجرس مليوني فدان من الأرض للجنود الذين حاربوا في الثورة، و٥ ملايين لقدامى المحاربين في حرب ١٨١٢، و١٣ مليوناً لخاضوا الحرب مع المكسيك وفيما بين ١٨٥١ و١٨٦٠، أضاف الكونجرس ٤٤ مليون فدان أخرى لمن خدموا في حرب الثورة، وحرب ١٨١٢، والحروب مع الهنود، والحرب المكسيكية الأمريكية<sup>(٦٤)</sup> وعندما نظر الكونجرس الاتحادى للمرة الأولى في سياسة سندات الأرض خلال الحرب من أجل الاستقلال، كان لهذه السياسة منطق محدد يتمثل في أنها سمحت للحكومة الأمريكية بدفع مقابل لخدمات الضباط والجنود. كما كان الكونجرس يخشى استمرار التهديد العسكري الذي كان يشكله السكان الاصليون للجمهورية الوليدة، سواء بمبارزة منهم أو باعتبارهم

مرتقة للإنجليز أو الفرنسيين وكان الهدف من توطين الجنود السابقين على الحدود هو حل كلتا المشكلتين في نفس الوقت

بيد أنه بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قامت سوق سوداء مزدهرة في سندات الأرض، مما أشعل وضع اليد والمصارية على حد سواء. فعن بين كل مائة جندي حصلوا على سندات الأرض، باع أربعة وثمانون حقوقهم في السوق السوداء. وهو موقف لا يختلف عما يحدث اليوم في كثير من البلدان النامية والشيوعية السابقة، التي قدمت مساكن عامة لمجموعات معينة من المواطنين<sup>(٦٥)</sup> ومثلما أوضح أحد المؤرخين، «لم يكن أحد يتوقع أن يشكل نصف مليون أرملة ورجل مسنّ ممن تلقوا [السندات] حاجزا أمام الغزو الأجنبي»<sup>(٦٦)</sup>

كما منحت الحكومة الاتحادية ملايين الأفدنة من الأراضي الخالية لشركات السكك الحديدية الجديدة التي تقطع القارة جيئة وذهابا. وخلال القرن التاسع عشر، تم تسليم ما يزيد على ٣١٨ مليون فدان - تقريبا خمس الأراضي الاتحادية كافة - سواء بصورة مباشرة لشركات السكك الحديدية الخاصة، أو للولايات لتحميد توزيعها على السكك الحديدية. وكان المبرر لهذه المنح المجانية الضخمة أن ذلك سيشجع الإستيطان المنتظم على الحدود. ورغم أن قيمة كثير من الأراضي كانت قليلة، فإن نسبة كبيرة منها كانت تحتوي على معادن، أو صالحة للزراعة<sup>(٦٧)</sup> وذهب نصيب الأسد إلى شركات السكك الحديدية الممتدة عبر القارة التي حصلت على قسم من كل قسمين على التوالي من الأرض الواقعة على امتداد مساراتها، مما خلق نمطا يشبه رقعة الشطرنج لتبادل وتعاقب الأرض الحكومية وأراضي شركات السكك الحديدية. وكان الكونجرس يعتقد أن شركات السكك الحديدية ستبيع الأراضي التي لا تحتاحها بصورة سريعة وبسعر رخيص لتشجيع الإستيطان<sup>(٦٨)</sup> بيد أنه مرة ثانية، تعارض واقع إستيطان الأرض مع آمال السياسيين. فحسبما قال أحد الباحثين، فإن ترتيب رقعة الشطرنج «أخر الإستيطان في ملايين الفدادير من أفضل الأراضي، وحجبها عن التملك»<sup>(٦٩)</sup> بل لقد أدى في حالات معينة إلى حرب صريحة بين شركات السكك الحديدية والمستوطنين. ويورد ستيفن شوارتز تقارير عن النزاع الذي ثار في ١٨٨٠، في جنوبي وادي جواكن في كاليفورنيا، الذي كان حينذاك يسمى «موسل سلو»، عندما احتل المزارعون

ومعربو الماشية أملاك شركات السكك الحديدية لكنهم لم يستطيعوا التوصل معها لاتفاق بشأن شرائها ولم يؤد هذا فقط إلى نزاع قضائى لم يستطع حل المشكلة، وإنما لتبادل لإطلاق النار تسبب فى وفاة خمسة مستوطنين، اعترف فيه مدير الشرطة المسؤول بأنه «لم يكن متأكدا ممن بدا بإطلاق النار» وفى افتتاحية عن الحادث، أدايت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونكل» شركة السكك الحديدية، وذكرت «أنه أيا كانت حقوقها القانونية بالكامل، فلا يمكن إنكار أن كل مبادئ العدل فى صالح المستوطنين» وعلى أية حال، فإن القوة المادية أيضا كانت فى جانب المستوطنين، حيث رأى المسؤولون أن ترحيلهم لمكان ما، سيتطلب ما بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ جندي متمرس<sup>(٧٠)</sup>.

ولم تستطع جهود الحكومة الاتحادية لإقامة نظام منهجى للملكية الأرض، التغلب على إرادة الناس العاديين فى تأكيد حقهم فى الممتلكات الوطنية وقد حاج واصع لليد فصيح بقوله «أقر بأن كل البشر المستعدين للموافقة على أى دستور يوضع فى أمريكا، لهم حق لاشك فيه للاستقال إلى كل بلد شاغر وأن الكونجرس غير مخول لمنعهم»<sup>(٧١)</sup> وخلال العقود الكثيرة الأولى من القرن التاسع عشر، تقاوت السياسسيون وواضعو اليد حول كيفية إضفاء حقوق الملكية فبين السياسسيين «ثار السؤال القالى ما الذى يجب عمله إزاءها» وطالب البعض بإعطائها للجنود وقال آخرون. لنستخدمها فى سداد الدين الوطنى وظل آخرون ينصحون بالإبقاء عليها لاستخدامها فى المستقبل، وكان هناك من تبناوا الرأى القائل بأن لكل من يرغب الحق فى الإستيطان فيها»<sup>(٧٢)</sup>.

## خروج على القانون أم تعارض النظم القانونية؟

فى بداية القرن التاسع عشر، كان نظام الملكية فى الولايات المتحدة فى حالة فوضى ولم يؤد قانون الملكية القائم والتنافض بين المشرعين إلا إلى تفاقم الأزمة التى كانت تواجه مهاجرى الأمة ويحاج بول جيتس فى دراسته الرائعة فيما بعد عن واضعى اليد وقوانين الأرض فى فيرجينيا وكنتاكى، بأن القانون الرسمى أسهم «فى إحداث زيادة مستمرة فى تكاليف التقاضى على سندات

الملكية الخالصة، وفرض الأشخاص نوى الإدعاءات المتعارضة، وحماية الأرض من التعدي والنهب» وكان عدم وفاء القانون الرسمي، مقترنا «برسوم المحاكم والفائدة المرتفعة على رأس المال المقترض»، يمثل تهديدا دائما لأمن الاستثمارات، وأبقى على المتقاضين في حالة اضطراب مستعر<sup>(٧٣)</sup>

وكما هو متوقع، فكثيرا ما كان لا يتوافر للمهاجرين الذين استوطنوا هذه الأراضي سندات رسمية بشأن ممتلكاتهم، وكان الأمر ينتهى بهم عادة إلى الاضطرار للتفاوض على سندات الملكية لا مع مالك واحد فقط بل مع اثنين من المالك: وحتى بعد قيامهم بشراء الأرض وإدخال تحسينات عليها، كان من المرجح أن يواجهوا دعاوى طرد يقيمها آخرون لديهم حقوق سابقة على قطع الأرض هذه<sup>(٧٤)</sup>. وقد لاحظ زائر أجنبي كان يجول خلال كنتاكي في ١٨٠٢ أن كل منزل توقف عنده، أعرب المالك عن شكه في سلامة سندات ملكية جيرانه<sup>(٧٥)</sup>.

وفيما بين ١٧٨٥ و ١٨٩٠، أصدر الكونجرس الأمريكي أكثر من خمسمائة قانون مختلفة لإصلاح نظام الملكية، الذي كان يستند بعناد على فكرة جيفرسون المثالية بوضع الملكية في أيدي المواطنين الخاصين بيد أن الإجراءات المعقدة المرتبطة بهذه القوانين، عرقلت عادة تحقيق هذا الهدف ومما زاد الأمور ارتباكاً، أن الولايات فرادى طوّرت قواعدها الخاصة بالملكية وتوزيع الأرض التي أفادت وحثت إلى حد كبير الصفوة المالكة فيها فقط ونتيجة لذلك، لم تؤد محاولات إصلاح نظام الملكية إلا إلى تفاقم الصعوبات المتعلقة بالأرض في البلاد، في حين جعلت المهاجرين يشعرون بالقلق لاتصسى حدّ من فقد أى شىء يشبه سندات الملكية ربما يكونون قد امتلكوه وفي تعليقه على الإصلاح في كنتاكي، أكد أحد المعاصرين «إن كثيرين من السكان يستمدون أمن ممتلكاتهم من هذه الفوضى [وبالتالى] لايجرؤ كثيرون على إثبات حقوقهم، خوفا من أن يضطروا إلى دفع تعويضات كبيرة»<sup>(٧٦)</sup> وخلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، فإنه «مع حلّ مشاكل قديمة، ظهرت مشاكل جديدة كانت هناك صعوبات مزمنة في تحديد سندات الملكية [عندما أصبحت سندات الملكية] مفهوما أكثر مراوغة من خطوط الطول. وأكثر



عدم وضوح من جذل شجرة أو جدول حار وأصبحت سندات الملكية موضوعا مثيرا للحنق ومستعصيا على العلاج مثل قانون الحيازة الملغى<sup>(٧٧)</sup> وببساطة تامة، فإن المؤسسات القانونية للولايات المتحدة كانت قد فشلت، فى جواب مهمة، فى أن تعالج بفعالية مشكلة تكاثر السكان المهاجرين

وبحلول ١٨٢٠، كان نظام الملكية الاصلى فى الولايات المتحدة يشكو من الفوضى لحد أن قاضى المحكمة العليا، جوريف ستورى، كتب: «ربما ستنفصى معصور قبل تسوية المنازعات القضائية القائمة [على قانون الملكية الأمريكى] وسيظل على الدوام قانونا مجهولا، له لهجات خاصة بجماعات معينة، يتعين استكشافها ودراستها، مثل النظام القضائى لبعض الدول الأجنبية»<sup>(٧٨)</sup> ولم تفت القاضى ستورى مفارقة أن الولايات المتحدة «لم تكن مجتمعا قديما محافظا، وإنما دولة جديدة لها محيط قانونى»<sup>(٧٩)</sup>

لقد أصبحت قوانين الولايات المتحدة مرهقة لحد أنها شغلت حجر عثرة كبيرة أمام المستوطنين الذين كانوا يريدون ضمان حقوقهم فى الملكية، ومن ثم يلغون وضعهم «كواضعى يد» ولم يترك لهم بديل سوى البدء فى تشكيل «قوانينهم» الخاصة، وبالأذات تلك المتعلقة بالملكية، بدمج القانون الإنجليزى بالتقاليد القانونية الأمريكية التى تطورت محليا مع فطرتهم السليمة وكانت النتيجة «محدد منظم من حقوق الملكية الراسخة»<sup>(٨٠)</sup> فى نظامين قانونيين واقتصاديين، تم تقنين وتدوين أحدهما وأدرج فى كتب النظم الأساسية، والآخر كان يعمل فى أرض الواقع وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها ولديها نظام قانونى تعددى، حدد فيه القانون غير القانونى كثيرا من الحقوق بشأن الملكية وترتيبات التملك

ووقعت المؤسسات السياسية والقانونية بين مكى رضى التزامها بالقانون الرسمى، وتعاطفها تجاه حاجة المستوطنين لإنشاء الترتيبات الخاصة بهم وعكس خطاب القاه توماس جيفرسون بصورة كاملة المشاعر المتناقضة التى شعر بها السياسيون دوما تجاه الترتيبات غير القانونية فيما بينهم «لقد كانت [هذه الترتيبات] متعددة الأنواع، لحد أنه لا يمكن تطبيق أى من مبادئ القانون والإنصاف الراسخة لتحديددها، فقد قام كثير منها على الأعراف

والعادات التي نشأت في المنطقة، وتأسست على وسائل الذبوع الخاصة بها، والتي دخلت تقريبا في كل سند ملكية بحيث لا يمكن إغفالها مطلقا»<sup>(٨٦)</sup>

### جهود الدولة لرفع النافوس الزجاجي

هكذا، توافرت للسياسيين الأمريكيين اختيارات ثلاثة إذ كانوا يستطيعون الاستمرار في محاولة قمع أو تجاهل العاملين خارج القانون، أو أن يقدوا تنازلات وهم ناقلين، أو يصبحوا نصراء لحقوق العاملين خارج القانون ويشير التوسع في قوانين شغل الأراضي - التي تعترف بالحق في الأرض استنادا للتحسينات التي يتم إدخالها عليها - في كل أنحاء الولايات المتحدة خلال الستين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، إلى أن السياسيين أخذوا بالمرار الأخير على نحو متزايد. إن تاريخ الأخذ بقوانين شغل الأراضي في الولايات المتحدة هو تاريخ صعود العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون كقوة سياسية

وجاءت نقطة التحول في ولاية كنتاكي الجديدة، التي كان نظام الملكية فيها، مثله مثل نظم كثير من الولايات، يشكو من فوضى تامة فقد اشتكى حاكمها من أن الإبداءات في الأرض في الولاية الجديدة تبلغ ثلاثة أمثال مساحتها ويحاج المؤرخ بول جييتس بأن هذا كان يرجع إلى إصدار السياسيين تشريعات تتعلق الناحيين من العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون بين ١٧٩٧ و ١٨٢٠ وأسهمت هذه التدابير في «إرساء المبدأين العظيمين للإنصاف في القانون التشريعي [الأمريكي] حق الشاغلين بموجب التحسينات التي أدخلوها، وحق المستوطنين في الأراضي المملوكة ملكية خاصة دون اعتراض لمدة سبع سنوات ويدفعون الضرائب عليها، في الحصول على سند ثابت وواضح للملكية، مهما كانت هناك سندات ملكية معارضة قائمة»<sup>(٨٧)</sup> بيد أن أهمية تشريع كنتاكي لم تكن تكمن في إسهامه في العقيدة القانونية، وإنما في تعبيره عن القوة السياسية المتنامية للرواد ومما له دلالة، أن الضغط الذي مارسه هؤلاء المستوطنون العاملون خارج القانون على المسؤولين المنتخبين

أدى بكثير من حكومات الولايات إلى رفض حكم للمحكمة العليا فى الولايات المتحدة خالف مصالح أعداد كبيرة من السكان العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون

فى ١٨٢١، أعلنت المحكمة أن قانون شغل الأراضى فى كنتاكي غير دستورى<sup>(٨٢)</sup> وقد شملت القضية كلا من ورثة واحد من كبار الملاك، جون جرين، ومعه ريتشارد بيدل، وهو واضع يد استقر فى أراضى جرين بصورة غير قانونية وكانت الأرض موضع النزاع فى الأصل فى فيرجينيا لكنها أصبحت حينذاك جزءاً من كنتاكي. وفى قضية جرين ضد بيدل، قضت المحكمة العليا ضد قانون شغل الأراضى فى كنتاكي، بالإشارة إلى «قواعد الملكية الراسخة» بموجب سوابق القانون العادى الإنجليزى<sup>(٨٤)</sup>

ولم يحاب الحكم صراحة سوى الأشخاص الذين لديهم سند ملكية قانونى فى الأرض التى يشغلونها وحسب حكم المحكمة، فإن قانون كنتاكي «يسرى بطريقة غير عادلة وقهرية لأن المالك القانونى مجبر على دفع، ليس فقط مقابل التحسينات الفعلية التى أنشئت على الأرض، وليس مقابل الزيادة فى قيمتها فقط، وإنما أيضاً النفقات التى يتكبدها شاغل الأرض فى إجراء التحسينات المزعومة، وسواء كانت مفيدة أو وهمية فقط، أو كانت مسألة ذوق أو زينة لاتعملها سوى أهوانه ونزواته»<sup>(٨٥)</sup> وبعد إعادة النظر فى قضية جرين ضد بيدل، أكدت المحكمة مجدداً فى ١٨٢٣ حكمها السابق، مؤكدة أن قوانين الشاغلين تحرم «المالك الشرعى للأرض، من الربيع والأرباح التى يحصل عليها الشاغلون»

ولام السياسيين الذين كانوا يسعون لحشد تأييد ناخبهم من العاملين خارج القانون، بيدل باعتباره «أكبر مدمر»، وأنه يثير «انزعاجاً كبيراً لاهل كنتاكي»<sup>(٨٦)</sup> ربما كانت المحكمة العليا قد غفلت عن الواقع السياسى - والقانونى - الجديد الذى طلق يتشكل فى منطقة الحدود الأمريكية الآخذة فى التوسع سريعاً، لكن السياسيين الغربيين كان يتعين عليهم فقط أن ينظروا من نوافذهم ليروا مدى السرعة التى تتغير بها البلاد. وفى ذلك الوقت، كان عشرات الآلاف من المهاجرين المجتهدين قد اتجهوا غرباً وهم مجهدون، قادمين من المستعمرات الأصلية الواقعة فوق جبال الأبالاش ليستقروا فى الأراضى

الخصبة العذراء في العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان سكان الولايات المتحدة يتضاعفون كل عشرين سنة ففي ١٦٢٠، كان هناك بالتقريب ٥٠٠٠ مستوطن في كل أمريكا الشمالية البريطانية وفي ١٨٦٠، زاد عدد سكان الولايات المتحدة على ٣٠ مليونا وكان خمسون في المائة من السكان الأمريكيين يعيشون غرب جبال الأبلاش

كان هؤلاء المهاجرون يودون أن تعترف المحاكم بحقهم في ملكية الأراضي التي حصلوا عليها<sup>(٨٧)</sup> لذلك كان رد الفعل العكسي السياسي والقضائي لحكم المحكمة العليا في قضية جرين ضد بيدل في كنتاكي، يمثل انتصارا صغما للعاملين خارج القانون، وسرعان ما انتقل هؤلاء إلى الهجوم ورأى كثير من السياسيين ومحرري الصحف المحلية أن المحكمة العليا الأمريكية هي التي أصبحت تمثل «الوغد» حينذاك. وتحدثت إحدى الصحف المحلية عن «السلوك الفاجر» للقضاة الذي يهدد «باستئصال» حقوق «غير المقيمين والأغراب»<sup>(٨٨)</sup>. وفي خضم الغضب من سلطة المحكمة، أعلن الرجل القوي في كنتاكي، ريتشارد م. جونسون، في خطاب له أمام مجلس الشيوخ أن الحكم «سيقلب رأسا على عقب سياسة [كنتاكي] المقصودة. وأنه إذا استمر سيحدث نتائج كالكوارث، بلإثارة كثير من عمليات التقاضي حول مشاكل تمت تسويتها منذ سنوات طوال، ويضع كل شيء يتعلق بالملكية الخاصة بالأراضي في حالة فوضى وارتباك كبيرة»<sup>(٨٩)</sup> وسلم سناطور كنتاكي الآخر، والذي ربما كان أكثر نفوذا، وهو هيري كلاي، والذي كان خصما لمدة طويلة لتوسيع حقوق واضعي اليد بصورة ليبرالية «بانهم أقاموا البيوت، وزرعوا البساتين، وسوروا الحقول، وزرعوا الأرض، ونشأوا أسرهم حولها وفي الوقت نفسه، فإن موجة تدفقات الهجرة عليها، وارتفاع قيمة مزارعهم التي أدخلوا عليها تحسينات، وقيام طلب عليها، جعلهم يبيعون لوافدين جدد ببيع كبير، ويمضون لدى أبعد غربا وبهذه الطريقة، شرع الآلاف وعشرات الآلاف يوميا في تحسين أحوالهم وجعل ظروفهم أفضل»<sup>(٩٠)</sup> كما أعرب حاكم كنتاكي والهيئة التشريعية فيها، كلاهما عن معارضتهما لحكم المحكمة العليا<sup>(٩١)</sup>

ومنذ بدايتها، كانت المحكمة هدفا أوليا لنقد السياسيين لسلطة مجموعة للصفاة من القضاة الذين لم ينتخبهم أحد ولكن في تحول غير عادي للأحداث، رفض قضاة كنتاكي أيضا حكم المحكمة العليا وفي قضية معاملة بعد ذلك بعامين، لاحظ قاض في كنتاكي أن قضية جرين ضد بيلل لا يمكن الإقضاء بها، لأن القضية «حكم فيها ثلاث قضاة فقط من سبعة قضاة يشكلون المحكمة العليا للولايات المتحدة» وأن رأى ما يقل عن غالبية القضاة لا يمكن اعتبار أنه يرسى مبدأ دستوريا<sup>(٩٢)</sup> وفي ١٨٢٧، رفض قاض آخر قضية بيلل، مؤكدا أن قانون مطالبات الشاغلين كان دستوريا «في قضايا أكثر من أن يستشهد بها»<sup>(٩٣)</sup>

وفي أعقاب الغضب على قضية جرين ضد بيلل، بدأ السياسيون الغربيون والديمقراطيون من شتى أنحاء البلاد ينظرون إلى الحشود المتنامية لدوائر الناخبين من واضعي اليد من منظور مختلف. فلم يعودوا المجرمين الحسيين الذين يقشرون زبدة أراضي الأمة، بل أصبحوا «الرواد النبلاء» الذين يساعدون في تنمية البلاد. بالطبع، كانوا أيضا ناخبين محتملين<sup>(٩٤)</sup> وبدأ السياسيون المتعاطفون يهاجمون نظام الملكية وأكد أحد أعضاء الكونجرس من كنساس أن «في كل أنحاء ولايته، استولى المستوطنون على الأراضي العامة، وأجروا تحسيناتهم، ودفعوا الرسوم المستحقة عليهم، وبعد ذلك أمروا بترك الأرض بدون تعويض بقرار من وزير الداخلية، لسبب أو لآخر»<sup>(٩٥)</sup>.

### الجهود الاتحادية لرفع الناقوس الزجاجي

في خضم النزاع حول قضية جرين ضد بيلل، كاد يظفر بالرناسة اندرو جاكسون، وهو من أبطال حرب ١٨١٢ ضد البريطانيين ومدافع بحماس عن الرواد وبعد ذلك بأربع سنوات، أصبح جاكسون في النهاية رئيسا وخلال إدارته التي امتدت فترتين، ومع اختفاء آخر اشتراطات الملكية المؤهلة للاقتراع والترشيح للمناصب السياسية، ومع انتشار المدارس العامة، ومع إضفاء الولايات طامعا إنسانيا على قوانين العقوبات وإغلاق سجون المدينين، زاد

التعاطف مع حقوق واضعى اليد كذلك راد عداء الراى العام تجاه القضاة والمحامين، الذين ساد تصور بأنهم وكلاء متحمسون للأغنياء والأقوياء»<sup>(٩٦)</sup> وبحلول عام ١٨٣٠، أصبحت الولايات الثلاث عشرة الأصلية أربعة وعشرين ولاية، منها سبع ولايات فى الغرب كان ممثلوها فى واشنطن ملتزمين بصورة كاملة بالسياسات التى تحابى واضعى اليد وللظفر بدعم هذه الكتلة المتزايدة النفوذ، تنافست الولايات الشمالية والجنوبية على إظهار مدى موالئتها للغرب<sup>(٩٧)</sup> وبدأت الولايات الغربية وواضعو اليد الذين يسيطرون على أراضيها يستعرضان عصلاتهما السياسية المتنامية، وكانت الفئانج مثيرة للإعجاب فقيما بين ١٨٣٤ و١٨٥٦، اعتمدت ميزورى، والاباما واركنسو، وميشيغان، وايوا، والميسيسى، ويسكونسن، ومينيسوتا، وأوريجون، وكانساس، وكاليفونيا، جميعها قوانين عن شغل الأرض لقانون كنتاكي الذى رفضته المحكمة العليا فى قضية جرين ضد ميل<sup>(٩٨)</sup> وحاج بول جيتس بأنه «لم يتم إسقاط حكم أصدرته المحكمة العليا على نحو كامل بهذه الصورة، نتيجة لتشريعات الولايات وأحكام محاكم الولايات، وفشل المحاكم الاتحادية فى الاستفادة من القضية، وأخيرا المرسوم الذى لم يجد اعتراضا الذى أصدره الكونجرس والذى يمدّ تغطية المحاكم الاتحادية لتشمل الشاغلين، مثلما حدث فى قضية جرين ضد ميل»<sup>(٩٩)</sup>

وأخيرا بدأت واشنطن تستوعب الرسالة ففى حين أنه فى ١٨٠٦، لامت لجنة الأراضي العامة واضعى اليد على الصعاب التى يلاقونها، فإنه بحلول عام ١٨٢٨، كانت هذه اللجنة نفسها تخطر مجلس النواب بأن واضعى اليد الأمريكين قدموا خدمة عامة قيّمة يستحقون عنها التعويض<sup>(١٠٠)</sup>، وأصبح واضع اليد الذى كان من قبل شخصا مروعاً، «إنساناً أثبتاً بمبادرته وحكته لنفسه ولاسرته ممزلاً فى البرية [و] يستحق المكافأة لقد وقرّ التسهيلات اللازمة لبيع الأراضي العامة، ووضع موضع المنافسة أراضى لم تكن بغير هذا تستحق ثمناً، ولم يكن أحد ليتقدم بعرض للحصول عليها، إلا بعد أن يدخل تحسيناته عليها»<sup>(١٠١)</sup>

وبدا أعضاء الكونجرس يقدمون مشاريع تشريعات تمهد الطريق لاستيعاب ترتيبات المستوطنين فى النظام القانونى<sup>(١) (٢)</sup> وكان فى القلب من ذلك، الأداة القابولية التى شكلت وسيلة الخلاص لواقعى اليد خلال الفترة الاستعمارية (والتي عارضها الكونجرس الأمريكى بعناد)، ألا وهى حق الشفعة وفى ١٨٣٠، أقرّ ائتلاف من أعضاء الكونجرس من الغرب والجنوب قانون الشفعة العام، الذى ينطبق «على كل مستوطن أو شاغل للأراضى العامة» الذى يجوزها حينذاك، ويزرع أى جزء منها فى العام ألف وثمانمائة تسعة وعشرين<sup>(٣)</sup> وكان فى مقدور واضع اليد أن يطالب بمائة وستين فدانا من الأرض، بما فى ذلك الأراضى التى أدخل عليها تحسينات، مقابل ١.٢٥ دولار للفدان وكان مطلوباً الدفع قبل طرح الأرض فى المزاد العام، وتم منع نقل أو بيع حقوق الشفعة بصورة قاطعة.

وفى السنوات ١٨٣٢، ١٨٣٨، و ١٨٤٠، جدد الكونجرس قانون الشفعة العام الصادر فى ١٨٣٠ وحاول فى كل مرة تدعيم حقوق أصغر واضعى اليد، فى حين حاول القضاء على بعض أوجه إساءة استغلال مبدأ الشفعة فعلى سبيل المثال، خفض قانون ١٨٣٢ الحد الأدنى من مساحة الأراضى التى يتعين على واضع اليد شرائها من ١٦٠ إلى ٤٠ فدانا وبحلول عام ١٨٤١، كان مبدأ الشفعة قد أصبح راسخاً بصورة ثابتة، لدرجة أن الكونجرس أصدر قانوناً عاماً للشفعة يسرى على المستقبل. ولم يشمل مرسوم ١٨٤١ واضعى اليد القائمين فحسب، وإنما شمل «كل شخص يقوم بعد ذلك بالاستيطان على الأراضى العامة»<sup>(٤) (١)</sup> وكان يتعين مسح الأرض التى تم الإستيطان بها، ولكن حتى هذا الحكم تم تجاهله فى النهاية<sup>(٥) (٢)</sup>

### الجهود غير القانونية لرفع الناقوس الزجاجى

قام كثيرون من واضعى اليد، المعزولين عادة من الناحية الجغرافية عن المناقشات السياسية والدستورية بشأن الملكية، بكل ما فى وسعهم لتأمين الأرض التى يشغلونها، بل لقد دفع بعضهم ثمن نفس قطعة الأرض مرتين، فى

حين دفع آخرون للمحامين أتعاباً ضخمة لمساعدتهم في جعل ملكيتهم للأرض قانونية<sup>(١٠٦)</sup> ولم تتوافر للكثيرين الوسائل اللازمة لتغطية تكاليف النظام القانوني الرسمي، ومن ثم أنشأوا ترتيباتهم غير القانونية الخاصة، وبذلك خلقوا مسالك جديدة للحصول على الملكية وحيازتها على الحدود الأمريكية وفي جميع الأعراض العملية، أخذوا القانون بين أيديهم - وأجبروا المؤسسة القانونية على أن تتبع خطاهم واقتضى الأمر مرور بعض الوقت، قبل أن يستيقظ السياسيون على حقيقة أنه إلى جانب القانون الرسمي، تشكلت عقود اجتماعية غير قانونية من أجل الملكية، وأصبحت تمثل جزءاً أساسياً من نظام حقوق الملكية في البلاد ولإقامة نظام قانوني شامل يمكن تطبيقه عبر البلاد كلها، كان عليهم استيعاب الطريقة التي كان الناس يحددون بها حقوق الملكية ويستخدمونها ويوزعونها

وهناك مثالان مهمان يفيدان في توضيح ظهور المنظمات غير القانونية لحماية حقوق الملكية التي تم الحصول عليها بصورة غير رسمية جمعيات الحقوق المدعى بها التي تكاثرت في كل أنحاء الغرب الأوسط الأمريكي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ومنظمات القانونيين بالتعدين التي اكتظ بها الغرب الأمريكي بعد اكتشاف الذهب في كاليفورنيا ويرى كثيرون من المؤرخين الأمريكيين أن جمعيات الحقوق المدعى بها، ومنظمات القانونيين بالتعدين، كانتا تمثلان «تجسيداً لقدرة الإنسان الذي يعيش على الحدود على العمل الديمقراطية»<sup>(١٠٧)</sup>. وحاج آخرون بأن هذه المنظمات عملت «كستار من دخان لإخفاء سرقة الأراضي من الملاك حسنى النية»<sup>(١٠٨)</sup> وليس هذا موضع بحثي، ذلك أن ما يهمني عن جمعيات الحقوق المدعى بها ومنظمات القانونيين بالتعدين هو أنها تبين أن المجموعات التي لا تتمتع بحماية القانون لعبت دوراً مهماً في تحديد حقوق الملكية في الولايات المتحدة وزيادة قيمة الأرض. ورغم أن واضعى اليد هؤلاء كانوا من الناحية الفنية متعدين على حرمة الملكية، إلا أنهم امتلكوا على حد تعبير المؤرخ ديوالد بيسانى، «عقلية قانونية ترسخت جذورها في الاعتقاد بأن «الناس» حقا في تحديد القواعد وتفسيرها أكثر من حق خبراء القانون»<sup>(١٠٩)</sup> وتحقيقاً لهذه الغاية، قامت المنظمات غير



القانونية بدائرة واسعة من الوظائف، من التفاوض مع الحكومة إلى تسجيل الملكيات والحقوق التي يدعى بها واضعو اليد

### جمعيات الحقوق المدهى بها

فى الأصل، شكل المستوطنون جمعيات الحقوق المدعى بها فى الغرب الأوسط الأمريكى لحماية حقوقهم ضد المضاربين والمغتصبين ذوى الإغراءات غير الصحيحة فعلى سبيل المثال، وافقت جمعيتان للحقوق المدعى بها فى أيوا، فى دساتيرهما، على [حماية حقوق كل عضو مدع بالملكية لفترة سنتين] بعد بيع الأرض<sup>(١١٠)</sup> . ولاحظ الآن بوج أن «واضع اليد كان فى مقدوره أن يتوقع أن يهب رفاقه فى النادى لمساعدته إذا هُذِّمَ مغتصبو الحقوق المدعى بها حياته . وأن أصدقاء سيدحرون المضاربين الذين قد يسعون لإخراجه من المزارع على الأرض عن طريق المفالاة»<sup>(١١١)</sup> . ولاحظ مؤرخ محلى فى أيوا أنه «عندما يستقر مستوطن فعلى . شخص يريد أرضاً لبناء منزل ولكى يشغلها فوراً على جزء من الملكية العامة [لجمعية ما]، تتصدى له فوراً كلاب المراساة، ويطلب منه إما أن يتخلى عن ادعائه أو يدفع لهم مقابل ما يؤكدون أنه حقهم» . وإذا «أعرب المستوطن عن شكه فى أن لهم حقوقاً مدعى بها سابقة على موقعهم، فإن [جمعية الحقوق المدعى بها] يكون لديها دائماً شاهد أو أكثر جاهزين للشهادة بصحة المصلحة التى يدعونها»<sup>(١١٢)</sup>

وكانت هذه الجمعيات توفر عدالتها الصارمة والبدائية الخاصة . وقد سأل وزير محلى ذات مرة أحد أعضاء جمعية ما عما سيحدث إذا نجح أحد مغتصبى الحق المدعى به فى شراء ما يدعيه ورد وأصبح اليد، «لماذا، سأقلته» ويحكم اتفاق المستوطنين، ستم حمايتى، وإذا حوكت لن يجرؤ أى مستوطن إذا اختير ضمن المحلفين، على إدانتى»<sup>(١١٣)</sup> . بيد أنه فى الغالب الاعم، كانت جمعيات الحقوق المدعى بها توفر على الأقل وهم اتباع العمليات السليمة . بعقد اجتماعات للمحلفين - من الزملاء واضعى اليد - للفصل فى قصايا

مغتصبى الحق المدعى به. وفى إحدى مقاطعات أيوا، تم اقتياد مغتصب حق مدعى به، حاول أن يشغل قطعة أرض شاعرة يملكها عضو فى جمعية الحقوق المدعى بها، «خلال ساعة»، بواسطة «عدد لايحصى من الرجال المتجهمين القاصيين» أمام هيئة محلفين من المستوطنين»<sup>(١١٤)</sup>

لكن وظيفة جمعيات الحقوق المدعى بها امتدت أيضا إلى ما وراء الحماية ضد الطرف الثالث، لتستمر طوال الطريق إلى القانون الرسمي فعلى سبيل المثال، فإن أعضاء الجمعيات، «وهم عادة من واضعى اليد الذين كانوا أول من استحوذوا على الأرض فى منطقة ما، وافقوا على عدم المزايدة على بعضهم البعض فى مزايدات الأرض، ومنع الآخرين من المزايدة على أعضاء [الجمعيات]»<sup>(١١٥)</sup>. وبصراحة تصف ديباجة دستور إحدى جمعيات الحقوق المدعى بها مهمتها بأنها

فى حين أننا أصبحنا نتصدق من الحكومة مستوطنين لأراضيها. واتفقنا وقتنا ومثلنا فى تحسينها، فإننا نعتقد ويعدل أن من حقنا شراءها بالثمن العادى وفى حين أنه قد يكون هناك أشخاص مستعدين للتدخل فى حقوقنا، وبذا يخلقون جوا من عدم الثقة، والإثارة والشعور بالخطر؛ لذلك فقد استقر عزمنا على أن السلامة فى حالتنا، لا تتحقق إلا بالاتحاد - والتصميم على التسوية الودية لآى مازعات بيننا، وأن نتبادل الامتيازات، وأن نتفادى كل شيء. قد يكون له اتجاه لخلق عدم الثقة والإثارة - وأن نقى صراحة مع حراس اللجان المعيدة، وأن ندافع عنهم فى القيام بالواجبات الموكلة إليهم<sup>(١١٦)</sup>

وهذه الوثيقة صارخة بشكل خاص فى تشابهها مع «عقود الاستيطان» التى أبرمتها مجموعات واضعى اليد عبر كثير من أنحاء العالم الثالث اليوم لقد وضعت كل جمعية دستورها الخاص وقانونها الداخلى وانتخبته المسؤولين فيها، ووضعت قواعد لفض المازعات، وحددت إجراء لتسحيل الإدعاءات بالملكية وحمايتها<sup>(١١٧)</sup> فعلى سبيل المثال، نص دستور جمعية مقاطعة جونسون، فى أيوا، على اختيار رئيس ونائب رئيس وكاتب ومسجل؛ وعلى انتخاب سبعة قضاة، أى خمسة منهم يستطيعون تشكيل محكمة

وتسوية المنازعات: وانتخاب مسؤولى شرطة مكلفين بإنفاذ قوانين الجمعية، والإجراءات التى تحدد حقوق الملكية فى الأرض<sup>(١١٨)</sup> وحسبما يقول الآن بوج، وهو مؤرخ «نوادى الحقوق المدعى بها» هذه فى أيوا، فإن معظم «اللوائح كانت تغطى حجم الحقوق المدعى بها المسموح بها» وتوجيه من أجل تمييز حقوق الملكية المدعى بها وتسجيلها ونقلها؛ والإجراء الذى يتعين اتباعه عندما يتنازع أعضاء الجمعية على الحقوق مع بعضهم البعض، وعندما يهدد مختصبو الحقوق المدعى بها الأعضاء، وعندما يحلّ تاريخ بيع الأرض<sup>(١١٩)</sup>

وقد عملت عقود التسوية الخاصة بالجمعيات بوصوح على زيادة قيمة الأرض التى يطالب بها واضعو اليد وفى مقاطعات باوشيك وجونسون وويسنر فى أيوا، وضعت الجمعيات مشروعات محددة «للوائح تحدد درجة التحسين التى ينبغى أن يدخلها العضو على الأرض التى يطالب بها»<sup>(١٢٠)</sup> كما أرست الجمعيات حدودا عليا ودينا لحجم الحق المدعى به المطلوب حمايته، وسمح معظمها للأعضاء ببيع الحقوق المدعى بها، بغية تحديد قيمة ملكيتهم بيد أن أعضاء كثيرين «لم يكونوا راضين بمقدار الأراضى الذى يخوله لهم القانون، وقدموا ادعاءات مزعومة فى نسبة جدّ كبيرة من الأراضى بحيث كان من الصعب فى بعض الحالات على المشترين أن يجدوا قطعة أرض لا يطالب بها أحد»<sup>(١٢١)</sup> وحظيت هذه الممارسة بمساندة ضمنية من كل أعضاء الجمعيات وعلى الرغم من أن أعضاء الجمعيات ادّأوا كبار المصارين، فقد كانوا هم أنفسهم، مثلما أوضح بوج، «من صغار المضاربين»<sup>(١٢٢)</sup> لقد كانت هذه الجمعيات فى التاريخ الأمريكى أكثر من مجرد خطة لحماية المسكن وما حوله من أرض، فقد استخدمت أيضا لحماية المهنة فى مجال الحقوق المدعى بها<sup>(١٢٣)</sup>

وهكذا ساعدت هذه الجمعيات فى إنشاء «دوع من القانون العادى الذى تم وضعه بالاتفاق المشترك، والضرورة المشتركة»<sup>(١٢٤)</sup> ومثلما أوضح أحد مؤرخى المستوطنين، فإنه «على الرغم من أن قانون الحقوق المدعى بها ليس قانونا مستمدا من الولايات المتحدة، أو من كتاب النظام الأساسى للبلاد، فإنه رغم ذلك هو القانون الذى صممه أصحاب السيادة أنفسهم واستمد منهم، وولايته حتمية»<sup>(١٢٥)</sup>. بيد أن المستوطنين لم يستغنوا عن القانون الرسمى بشكل

كامل فقد عملت ترتيباتهم غير القانونية كاستراحة مؤقتة على طريق احترام القانون

### منظمات القانمين بالتعدين

فى ٢٤ يناير ١٨٤٨، اكتشف جيمس مارشال ومجموعة من الهنود والمورمون الذهب على امتداد النهر الأمريكى فى كاليفورنيا وعلى الرغم من أن القانمين بالتعدين أقسموا على الحفاظ على السرِّ، فإنه خلال أربعة أشهر، وصلت أخبار اكتشافهم إلى صحف سان فرانسيسكو. وه آثار هذا الاكتشاف «ربما ما كان يشكل أكبر هجرة إنسانية طوعية فى التاريخ العالمى فى ذلك الوقت، فى اندفاع إلى كاليفورنيا من أجل الذهب»<sup>(١٢٦)</sup> وكان الأثر المباشر لذلك عميقا «فقد ترك المزارعون محاربتهم فى الحقول وفرَّ الجنود والبحارة من الخدمة وهجر أصحاب الحوانيت أعمالهم وبين عشية وضحاها أصبحت سان فرانسيسكو مدينة الأشباح»<sup>(١٢٧)</sup> وخلال عام واحد، كان هناك ١٠٠ ألف من العاملين بالتعدين فى كاليفورنيا، وبعد ذلك بعامين كان يوجد ٣٠٠ ألف منهم

وعندما اندفع هؤلاء المنقبون المضمعون بالأمل إلى كاليفورنيا ليثروها، لم يجدوا أسوارا ولا احتكارات للمساكين»<sup>(١٢٨)</sup> ومع ذلك، فقد كانوا من الناحية القانونية متعدين: حيث كان معظم الأراضى التى كانوا ينقبون فيها محل منات المصالح المتصاربة<sup>(١٢٩)</sup>. وفى زمن هوجة الذهب، كانت الحكومة الاتحادية تملك معظم الأراضى، وكان ما يصل إلى ٩ فى المائة من مساحة كاليفورنيا الكلية مشمولاً بمنح الأراضى المكسيكية، فى حين كان قدر كبير من الباقى صحارى وجبال، أو غير ذلك مما لا يمكن الوصول إليه<sup>(١٣٠)</sup> وعلى الرغم من حقيقة أن الحكومة الاتحادية كانت - كما رأينا - تتمخض عن فئات من النظم الأساسية واللوائح التى تنظم استخدام الأرض، فلم يكن فى الولايات المتحدة قانون ينظم بيع أو إيجار الأراضى الاتحادية التى تصوى

معادن ثمينة<sup>(١٣١)</sup> وبالإضافة لذلك، استبعد الكونجرس صراحة «أراضى المناجم» من قانون الشفعة العام الصادر فى ١٨٤١

لقد خلقت السلسلة المترابطة القابلة للاستعمال من منح الأراضى المكسيكية، والملأك العائين، والمستوطنين المتعطشين للأرض، وعدم وجود قانون اتحادى يمكن إنفاذه، حاجة مباشرة للترتيبات غير القانونية وكان مؤرخون مثل بيسانى يعتقدون أنه لم يكن أمام المستوطنين خيارات كثيرة فإذا «استقروا على أراض عليها حقوق مكسيكية مدعى بها بأمل رفضها، كانوا يواجهون احتمال فقد تكاليف التحسينات التى أجروها، ولكن إذا اشتروا الأرض من صاحب حق مدعى به، يتم تعديل حدوده بعد ذلك، أو يتم رفض طلبه بعد ذلك، فقد يفقدون تكلفة الأرض وكذلك قيمة التحسينات التى أجروها»<sup>(١٣٢)</sup> وفى حين وضع المستوطنون ترتيباتهم الخاصة، حاولت الحكومة إيجاد حلّ يستند إلى القانون الرسمى القائم والمشكلة أن الحكومة كانت جدّ بطيئة وفى ١٨٥١، أقام الكونجرس لجنة للحكم على سلامة منح الأراضى المكسيكية والأسبانية ورغم أن ولاية اللجنة الرسمية استمرت حتى ١٨٥٦، فإن المحاكم والمكتب العام للأراضى أجلا اتخاذ إجراءات لما بعد ذلك بسنوات وكانت النتيجة هى أنه كان يتعين على المستوطنين أن يعتمدوا على نحو متزايد على قانونهم غير القانونى للحفاظ على شكل ما من النظام وقد اضطروا لذلك لأنه على حد تعبير أحد المؤرخين القانونيين، «كلما استطل أجل عملية إثبات الحق، زادت فرص التناضى والعنف»<sup>(١٣٣)</sup>

ومثل واضعى اليد المنتمين لنوادى الحقوق المدعى بها فى الغرب الأوسط، كان لدى القائمين بالتعدين سابقتان إلى جانبهم: حق الشفعة، وحق الشاغلين فى التحسينات الى أجروها<sup>(١٣٤)</sup> ولذلك شكلوا تنظيمات تحكم حقوقهم غير القانونية، وتحديد التزامات القائمين بالتعدين فرادى تجاه الأراضى التى غزوها وعرفت عقود الاستيطان هذه باسم «تنظيمات مناطق التعدين» وكان القائمون بالتعدين يعرفون أنهم إذا صاغوا لوائحهم بحرص، مع أكبر مراعاة ممكنة للقانون القائم، فإنه سيتعين على الحكومة، عاجلا أو آجلا، أن تصل لاتفاق معهم

ولم يترك القائمون بالتعدين مجالاً كبيراً للمصادفة والحظ. فقد تضمن معظم تنظيمات مناطق التعدين بصفة عامة تسع مراحل متميزة: الأولى، يقدم القائمون بالتعدين إخطاراً أو يدلون بإعلان في اجتماع جماهيري حاشد في موقع معروف جيداً لتكوين منطقة جديدة الثانية، فإن السند الأول في جدول الاجتماع، هو أن يعيّن القائمون بالتعدين حدود ونطاق المنطقة ويطلقون عليها اسماً (عادة سمة جغرافية ما في المنطقة، أو صاحب حق مدعى به مطروح، أو تكريماً لرجل نظم المنطقة) الثالثة، يضع القائمون بالتعدين قيوداً على الملكية بالنسبة لعدد الحقوق المدعى بها حسب الموقع والشراء. وفي معظم مناطق التعدين، كان يسمح للطبع المكتشف عرق معدني جديد بحق مدعى به مزدوج، في حين يسمح للآخرين بحق واحد لكل شخص. ولم يكن هناك حدٌّ على الحقوق التي يمكن شراؤها، بشرط أن يتم الشراء «بحسن نية بالنسبة لإيلاء اعتبار مهم للصكوك المسجلة وشهادات الملكية التي يصدرها المسجل».

الرابعة، قصر العضوية في مناطق التعدين والحقوق الممنوحة على مواطني الولايات المتحدة، أو أولئك المذولين بموجب القانون القائم لأن يصبحوا مواطنين. وهكذا، ثم بصفة عامة استبعاد المكسيكيين والأسبوريين بسبب الأحكام العنصرية المسبقة في ذلك الوقت. ملّ لحد وجه الاتهام للقائمين بالتعدين المكسيكيين أو الأسبوريين بأنهم لم يسهموا «بشيء في ازدهار الناس الذين استولوا لأنفسهم على ثرواتهم التي اكتسبوها بشق الأنفس»، وأهم يشكلون خطراً على أخلاق «الشباب [الأمريكي] وهم الشباب الذين لم تؤثر فيهم ديوتهم» الخامسة، حددت اللوائح أبعاد حق التعدين المدعى به نفسه من ١٥٠ إلى ٣٠٠ قدم طويلاً بالنسبة للحقوق المدعى بها الكبيرة، إلى حجم جاروف القائم بالتعدين بالنسبة لعمليات الحفر الصغيرة. وقد أعطى حق الطريق على كل من جانبي الحق المدعى به لإقامة الأنفاق والحفر على أي مسافة طالما أنها لا تنتهك حقوق الحار السادسة، أرست اللوائح مبادئ توجيهية لكيفية تحديد القائمين بالتعدين لحدود حقوقهم المدعى بها. وكانت المطالبة بالحق المدعى به تبدأ عادة بتقديم إخطار مزورح بالحق مع ذكر أسماء المستقرين في المكان، والمنطقة، والمقاطعة

السابعة، حددت اللوائح إنشاء مكتب المسجل، حيث يتم الاحتفاظ بالسجلات الرسمية للمنطقة، وبيّنت كيفية تسجيل الحقوق المدعى بها وكان يتم انتخاب المسجلين لمدة عام عادة بل والأكثر أهمية، أن اللوائح طالبت القائمين بالتعدين «بتقديم ملفات إخطاراتهم بالعمل إلى المسجل خلال مدة تمتد من خمسة أيام إلى ثلاثين يوما من تقديم إدعاء الملكية، ومطالبة المسجل بإمسك دفاتر لمثل هذه الملفات، وكذلك تسجيل نقل سمات الملكية داخل المنطقة». الثامنة، حددت اللوائح اشتراطات تنمية الحقوق المدعاة بالنص على «زمن، ومدى، وطبيعة» العمل الذى يتعين القيام به بغية حيازة الحق المدعى به «وكانت عقوبة عدم الامتثال على الدوام هي إمكانية المصادرة» وأخيرا، حددت اللوائح نظاما لحل المنازعات<sup>(١٣٥)</sup>.

وإذ واحه القائمون بالتعدين فراغا قانونيا فى قانون التعدين الاتحادى، فقد أقاموا ببعض الفظة القانونية، نوعان من قانون التعدين كبديل مؤقت وبالتفاوض فيما بينهم، عملوا على حماية حقوقهم وزيادة قيمة ممتلكاتهم إلى أن تستطيع الحكومة الشروع فى التصديق على سلامة حقوقهم المدعى بها ولم يكن إنشاء حقوق ملكية من خلال وسائل غير قانونية أمرا نادرا إذ كان العمل خارج القانون - كما هو حاليا فى العالم الثالث - منتشرًا وفى السنوات التالية مباشرة لاكتشاف الذهب، كان فى كاليفورنيا ثمانمائة سلطة قضائية مستقلة، لكل منها لوائحها الخاصة<sup>(١٣٦)</sup> وكانت كل سلطة تحصل على مشروعيتها الأولى وقوتها من توافق آراء أعضائها ويلاحظ المؤرخ تشارلس هوارد شين أنه «لم يُعرض أى الكاليد [عمدة]، أو أى مجلس، أو أى قاص للصالح، على منطقة ما من قبل قوة خارجية فقد كانت المنطقة هي وحدة التنظيم السياسى، فى كثير من الأقاليم، بعد زمن طويل من إقامة الولايات؛ وكان المديون من المناطق المجاورة يجتمعون للتشاور بشأن الحدود، أو شؤون الحكم الحلى، ويقدمون تقارير إلى ناجبيهم فى اجتماعات مفتوحة، على سفح تل أو شاطئ» نهر<sup>(١٣٧)</sup>.

وأيد معظم السياسيين مطالب القائمين بالتعدين، وشرعت المحاكم فى إقرار ترسياتهم غير القانونية وفى ١٨٦١، علق قاص من محكمة كاليفورنيا العليا على

مشروعية الترتيبات غير القانونية للقائمين بالتعدين في قضية جور ضد ماكبراير يكفي أن يوافق القائمون بالتعدين - سواء في اجتماع عام، أو بعد إخطار مناسب - على قوانينهم المحلية، والاعتراف بهذه القوانين باعتبارها قواعد للجوار، مالم يظهر فيما بعد أنه كان هناك عثر، أو سبب آخر مماثل لرفض القوانين<sup>(١٣٨)</sup>.

وكان هناك سبب لسهولة قبول تنظيمات مناطق القائمين بالتعدين، هو أن مشروعاتها كانت توضع عادة على أساس مبادئ وأفكار وإجراءات لا تختلف كثيرا عن تلك الواردة في القانون الرسمي ويوضح لاسي أن لوائح المناطق «عكست الحكمة والأعراف المتراكمة» لجمع القصد الذي كان يضم أصحاب مناجم القصدير في كورنوال<sup>١</sup> وممارسات منطقة هاي بيك ومحكمة بارموت في ديربيشاير<sup>٢</sup> وتنظيم وممارسات بورجرمايستر في ساكسوني<sup>٣</sup> [والقوانين الكولونيالية] الأسبانية لنواب الملك في أسبانيا الجديدة وبيرو<sup>٤</sup> وبعض ممارسات مناطق التعدين في حزام الرصاص في ميزوري<sup>(١٣٩)</sup>. فعلى سبيل المثال، «عندما يتقدم أحد القائمين بالتعدين بحقه المدعى به وفق قواعد وأعراف التعدين، فإن الملكية الفعلية لجزء له تخوم محددة من الحق المدعى به، تعطيه حق الملكية في مجموع الحق المدعى به ويبدو هذا أكثر قليلا من مجرد تطبيق [لجانب] من قانون التملك المناوي<sup>(١٤٠)</sup>» وقد ناقش أحد محامي القائمين بالتعدين كيف كان قانونهم موازيا لنظام حقوق الملكية الرسمي، وكيف أدى إلى تبسيطه.

في ظل قانون القائمين بالتعدين، فإن محتل الموقع هو مسؤول التنفيذ الخاص نفسه، وذلك فيما يتعلق بالاستيلاء على الأرض، ومنح نفسه سند ملكية، وتعيين الحدود، وإعلان نفسه مالكا والإخطار بديل للطلب المكتوب<sup>٥</sup> ويحقق وضع علامات للحدود غرض المسح وقانون التعدين هو الإمتياز، والتسجيل لدى المسؤول المحلي هو الإثبات والتسجيل والمسؤول الوحيد الموطأ الأمر هو الجمهور العام، الذي يمنحه القانون بالتعدين، والذي يعد قانونه قانونا صارما لا يعرف التساهل<sup>(١٤١)</sup>.

وقد ملا هذا الدمج بين النماذج القانونية القائمة، والنماذج غير الرسمية، فراغ القانون الرسمي في أراضي التعدين الشاسعة في أمريكا - مثلاً تفعل



منظمات وأضعى اليد حالياً في العالم الثالث. وخلال خمسينيات القرن التاسع عشر، لم يبدل الكونجرس جهدا لتولى أمر موارد التعدين الغربية ويعتقد المؤرخون أنه ربما راق مجاح القائمين بالتعدين في الحكم الذاتي للفلسفة السياسية السائدة حينذاك، أو ربما كانت الأمة مشغولة أكثر من اللازم بقضية العبودية وخطر انفصال الولايات الجنوبية<sup>(١٤٢)</sup> وربما سلم رجال القانون بين المشرعين في الولايات المتحدة ببساطة بعملية صنع القانون الجيدة عندما رأوها. بيد أن هناك أمر واضحاً هو أن الافتقار إلى التحرك من جانب الكونجرس لم يؤد إلا إلى زيادة مصداقية العقد الاجتماعي الذي لم يستنبطه القائمون بالتعدين فحسب، بل جعلوه مجدياً أيضاً<sup>(١٤٣)</sup>.

بيد أنه بحلول ستينيات القرن التاسع عشر، اضطرت الحرب الأهلية، والحاجة إلى أموال لخصوصها، وشواغل المستثمرين في كاليفورنيا ونيفاذا وكولورادو، الكونجرس إلى النظر في دمج الآلاف من قوانين التعدين في نظام متكامل. ولعبت شواغل المستثمرين بشأن سندات ملكية الأرض دوراً بارزاً في هذا النقاش. ولأحظ أحد المعاصرين أنه نظراً للافتقار إلى نظام معياري لسندات الملكية، «لم يكن الرأسماليون راغبين في إنفاق أموالهم في حفر مداخل ومهابط مكلفة للمناجم، وتركيب الآلات وإقامة المباني. لاهتمام عرق معدني، يمكن بموجب قانون القائمين بالتعدين تقسيمه من الباطن إلى ما لا نهاية حسب ثرائه»<sup>(١٤٤)</sup>. وبدأت الحكومة الاتحادية بشكل جاد تنظر في الطرق التي يمكن بها تنظيم التعدين في الأراضي الاتحادية<sup>(١٤٥)</sup>، وحسبما قال لاسي، كان أحد الشواغل الأساسية لأعضاء الكونجرس من الغرب يتمثل في «الضجة المثارة بشأن تأمين سندات الملكية، والقدرة على شراء أراضي التعدين بسعر معقول»<sup>(١٤٦)</sup>.

وفي ١٨٦٦، أعلن الكونجرس رسمياً لأول مرة أن أراضي التعدين في البلاد مفتوحة أمام المواطنين الأمريكيين للتقيب فيها - بعد ثماني عشرة سنة من قيا مئات الآلاف من القائمين بالتعدين للمرة الأولى بالتنقيب عن الذهب في الأراضي الاتحادية في كاليفورنيا. وأعلن نظام ١٨٦٦ الأساسي صراحة أن كل عمليات التنقيب عن المعادن يجب أن تخضع لتلك الأعراف والقواعد

المحلية للقائمين بالتعدين في مناطق التعدين العديدة»، والتي لا تتعارض مع قوانين الولايات المتحدة<sup>(١٤٧)</sup> لم يكن هدف القانون هو تدمير حقوق نشأت بصورة غير قانونية، وإنما تدعيمها «ببعض اللوائح الحكيمة فيما يتعلق بطريقة حياتها وتشغيلها، والتي لا تتعارض مع قوانين التعدين القائمة، وإنما تضيف بساطة تجانسا واتساقا على النظام بأسره»<sup>(١٤٨)</sup> وكان هناك جانب مهم آخر لقانون التعدين الأول هذا هو أن «جوهر القانون ينبع مباشرة من لوائح التعدين الوفيرة لمنطقة التعدين في وادي الذهب في مقاطعة نيفادا بكاليفورنيا . ومنطقة التعدين في وادي الذهب في مقاطعة ستوري بنيفادا»<sup>(١٤٩)</sup> وفي إصداره للقانون، ذهب الكونجرس إلى حد الإشادة بالعنصرية الأمريكية في إنشاء ترتيبات غير قانونية

والعصر الاساسى ان هذا النظام العظيم الذى شاهده الناس بقدراتهم وصفاتهم الأولية، والذي يتبدى في ارقى شهادة عليه في العنصرية الخاصة للشعب الأمريكى في تأسيس إمبراطورية وبظام، سيتم الحفاظ عليه وترسيحه ويتبدى السيادة التسمية هنا في واحد من اعظم مظاهرها، وهي ببساطة لانهيب بان أن يدمرها، وإنما ان نصفى عليها طابع القوة الوطنية والسلطة التى لا مازع فيها<sup>(١٥٠)</sup>

وهكذا، فإن تشريع ١٨٦٦ لم يعترف فقط بمشروعية العقود الاجتماعية التى نشأت خارج القانون الرسمى، وإنما أدمج أيضا المبادئ والحقوق التى ظفر بها المستوطنون من خلال حق الشفاعة والحقوق المدعى بها فى الإستيطان كما مدّ القانون حقوق برامة التمليك لأى شخص أو رابطة انفتحت ١٠٠٠ دولار فى العمل وفى تحسين الحق المدعى به، سواء تم مسحه ام لا وكان هذا اعترافا صريحا بأن القيمة المضافة للأصول، امر يقتضى أن يشجعه القانون ويحميه.

وفى ١٠ مايو ١٨٧٢، أصدر الكونجرس قانون التعدين العام، الذى يحدد إطارا رسميا أساسيا لقانون التعدين الأمريكى الذى استمر حتى اليوم. وقد احتفظ هذا القانون بأهم مبادئ فى قانون ١٨٦٦ الاعتراف بقوانين القائمين بالتعدين، وحق أى شخص يدخل تحسينات على منجم ما فى شراء سند

ملكية من الحكومة بسعر مناسب<sup>(١٥١)</sup>. وخلال فترة قدرها عشرين عاما، اندمجت حقوق وترتيبات القائمين بالتعدين التى نشأت بصورة غير قانونية فى نظام رسمى جديد. وحتى المحكمة العليا التى أثار عداؤها للحقوق غير الرسمية رد فعل ماضى لواضعى اليد، أكدت مجددا سلامة قانونى التعدين الاتحاديين الصابرين فى ١٨٦٦ و ١٨٧٢ فى قضية جنيسون ضد كيرك فوق ما أعلنته المحكمة، فإن النظامين الأساسيين «أضعيا تصديق الحكومة على حقوق التملك المكتسبة بموجب الأعراف والقوانين المحلية وأحكام المحاكم [و] اعترفا بالتزام الحكومة باحترام الحقوق الخاصة التى استقرت فى ظل موافقتها ورضائها الضمنيين ولم تقترح أى نظام جديد، وإنما صادقت على ونظمت، واعترفت بنظام راسخ بالفعل، ارتبط به الناس»<sup>(١٥٢)</sup> وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، تم إدماج قواعد وأعراف مناطق التعدين غير القانونية فى نظام أحد متماسك من قوانين الملكية الرسمية<sup>(١٥٣)</sup>

\* \* \*

فى نهاية القرن التاسع عشر، كان السياسيون والقضاة الأمريكيون قد قطعوا شوطا طويلا فى ميدان قانون الملكية - وكان واضعوا اليد هم الذين قادوهم فى هذا الاتجاه ويصنق هذا أيضا على الإسكان: وفى ١٨٦٢، عندما أصدر الكونجرس «قانون هومستيد» الشهير، والذي أعطى ١٦٠ فدانا خالية لأبى مستوطن يرغب فى العيش على الأرض لمدة خمس سنوات وتعميرها، كان ذلك مجرد تصديق عما كان المستوطنون يفعلونه عمليا بأنفسهم<sup>(١٥٤)</sup> ورغم الشهرة الأسطورية للقانون، فإن معظم المستوطنات قام قبل إصداره «وفيما بين ١٨٦٢ و ١٨٩٠، نما سكان الولايات المتحدة بمقدار ٢٢ مليون نسمة - ولكن نحو مليونين فقط منهم استقروا فى ٣٧٢٦٤٩ مزرعة مدعى بالحق فيها من خلال قانون هومستيد»<sup>(١٥٥)</sup> وفى الوقت الذى اعتمد فيه الكونجرس القانون بصورة نهائية، كان لدى المستوطنين بالفعل بدائل قانونية كثيرة للحصول على

سندات ملكية الاراضى العامة<sup>(١٥٦)</sup> بيد أنه من الناحية التاريخية، كان للقانون قيمة رمزية كبيرة إذ كان يعنى إنتهاء صراع طويل ومرهق ومرير بين قانون الصفوة، والنظام الجديد الذى أنشأته الهجرة الحاشدة واحتياجات مجتمع مفتوح وقادر على الاستمرار وإذ ضم القانون الرسمى فى نهاية المطاف كثيرا من ترتيبات المستوطنين غير القانونية، فإنه أضفى بذلك المشروعية على نفسه، وأصبح القاعدة لمعظم الناس فى الولايات المتحدة وليس الإستثناء

### دلالة ذلك بالنسبة لبلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة

للتجربة الامريكية دلالة بالغة بالنسبة للبلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة التى تسعى لتحقيق الانتقال إلى الرأسمالية فقد كان الاعتراف بحقوق الملكية غير القانونية وإدماجها عنصرا أساسيا فى تحول الولايات المتحدة إلى أهم اقتصاد سوق، وأكبر منتج لرأس المال فى العالم، ومثلما يؤكد جوردون وود، فإنه خلال هذا الوقت «كان شيء هائل يحدث فى المجتمع والثقافة أطلق طموحات وطاقت الناس العاديين مثلما لم يحدث مطلقا من قبل فى التاريخ الأمريكى»<sup>(١٥٧)</sup>.

وكان الشيء «الهائل» ثورة فى الحق فى الملكية فقد أضفى الأمريكيون، وإن لم يكن بحماس ووعى دائما، تدريجيا، المشروعية على قواعد وترتيبات الملكية غير القانونية التى أنشأها أكثر الأمريكيين فقرا، وأدجوها فى قانون الأرض وفى بداية القرن التاسع عشر، كانت المعلومات بشأن الملكية والقواعد التى تحكمها مبعثرة ومتضائلة وغير مترابطة. كانت متوافرة فى دفاتر الاستاذ اللدائية، والمذكرات الشخصية، والرسايات غير الرسمية، ولوائح الماطق، أو الشهادات الشعبية فى كل مزرعة، معجم، أو مستوطنة حضرية وكما هو الحال حاليا فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، كان معظم هذه المعلومات يتعلق فقط بالمجتمع المحلى ولايتوافر فى أى شبكة

متسقة تمثل بصورة منتظمة وعلى الرغم من أن المسؤولين الأمريكين ربما لم يقصدوا ذلك أو لم يدركوه، فإنهم عندما وضعوا القوانين الوطنية مثل قانون حق الشفعة وقانون التعدين، كانوا ينشئون الأشكال التمثيلية التى تضم كل بيانات الملكية المتفرقة والمتعزلة هذه فى نظام رسمى جديد للملكية

لم يكن ذلك مهمة سهلة أو سريعة، كما لم تخل من العنف لكن التجربة الأمريكية تشبه كثيرا ما يتم حاليا فى بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، عجز القانون الرسمى عن مسايرة المبادأة الشعبية، وفقدت الحكومة للسيطرة ونتيجة لذلك، فإن الناس خارج الغرب يعيشون حاليا فى عالم المتناقضات، والذي لا يختلف عن العالم الذى وصفه المؤرخ ج. انوارد هوابت. «عندما كان القائم بالتعدين يترك كوخه ويمضى للعمل، كان يستخدم أحدث ما فى تكنولوجيا الصناعة وعندما كان المزارع يهدف إلى خارج كوخه، كان يستخدم عادة أحدث الآلات الزراعية»<sup>(١٥٨)</sup> كما يعيش سكان العالم الثالث ويعملون فى اكواخ وأحياء فقيرة، جنباً إلى جنب مع أجهزة التلفزيون والحاسبات الإلكترونية وهم جدٌ منظمين فى نواصر للحقوق المدعى بها. كما بدأت حكوماتهم فى إعطائهم حق الشفعة

ولكن الذى لايزالون يفتقدونه هو حق قانونى تمت صياغته بكفاءة فى إدماج ملكيتهم فى النظام القانونى الرسمى، بما يسمح لهم باستخدامه لخلق رأس المال ومن خلال قوانين الشغل، والشفعة، وتعمير البيوت والتملك بموجب «قانون هومستيد»، وقانون القائمين بالتعدين، شاد الأمريكين مفهوما جديدا للملكية، «يؤكد جوانبها الدينامية، ويربطها بالنمو الاقتصادى»، ويحل محل مفهوم «يركز على طابعها الاستاتيكي ويربطها بالتأمين من التغير السريع جدا»<sup>(١٥٩)</sup> لقد تغيرت الملكية الأمريكية من كونها وسيلة للحفاظ على نظام اقتصادى قديم، لتصبح بدلا من ذلك أداة قوية لإقامة نظام جديد وكانت النتيجة هى قيام أسواق متوسعة وخلق رأس المال اللازم لتزويد النمو الاقتصادى المتفجر بالوقود اللازم كان ذلك هو التغير «الهائل» الذى لايزال يحرك النمو الاقتصادى فى الولايات المتحدة

وأخيراً، فإن الدروس المستفادة من انتقال الولايات المتحدة إلى الطابع الرسمي لن مجدها في التفاصيل الفنية وإنما في التغييرات في المواقف السياسية وفي الاتجاهات القانونية العريضة وفي إصدار قوانين لدمج السكان العاملين الذين لا يتمتعون بحماية القانون، عبر السياسيين الأمريكيين عن فكرة ثورية هي أن المؤسسات القاموسية لا تستطيع الاستمرار إلا إذا استجابت للاحتياجات الاجتماعية<sup>(١٦)</sup> لقد استمد النظام القانوني الأمريكي طاقته من أنه قام على خبرة الأمريكيين العاديين على مستوى القاعدة، وعلى الترتيبات غير القانونية التي وضعوها، في حين رفض مبادئ القانون العادي الإنجليزي الذي ليس له صلة كبيرة بالنسبة للمشاكل الفريدة للولايات المتحدة وفي العملية الطويلة والمرهقة لإدماج حقوق الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، أنشأ المشرعون والفقهاء الأمريكيون نظاماً جديداً يفضي بدرجة أكبر لقيام اقتصاد سوق منتج ودينامي. وقد شكلت هذه العملية ثورة نشأت عن التوقعات المعيارية للناس العاديين، طورتها الحكومة إلى هيكل رسمي منظم ومهني

ولا يعني هذا القول بأنه يتعين على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة أن تقلد الانتقال الأمريكي على نحو خانع وأعمى فهناك فيض من النتائج السلبية في التجربة الأمريكية عليها أن تحرص على تفاديها ولكن كما رأينا بالفعل، هناك الكثير لتتعلمه والدرس الأول هو أن الزعم بأن الترتيبات غير القانونية غير موحودة أو محاولة إخضاعها، بدون استراتيجية لتوجيهها إلى القطاع القانوني، عمل أحمق - خاصة في العالم النامي - حيث يضم القطاع غير القانوني حالياً - مثلما رأينا في الفصل الثاني - غالبية السكان في تلك البلاد، ويشمل تريليونات الدولارات في صورة رأس مال غير منتج

وستواجه الجهود المبذولة لخلق ثورة في الملكية في أماكن أخرى في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة، متطلباتها وعقباتها وفرصها الفريدة الخاصة يتعين علينا أن نباري الثورات الأخرى الجارية في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات والحضرة السريعة لكن الوضع الأساسي هو نفسه فعالياً، لم يعد لقانون الملكية في كثير من البلدان النامية والبلدان الشيوعية

السابقة أهمية بالسبب للكمية التى تعيش بها غالبية الناس ويعملون كيف يطمح نظام قانونى إلى المشروعية إذا كان يستبعد ٨٠ فى المائة من الناس؟ ويتمثل التحدى فى تصحيح هذا القشل القانونى وتبين التجربة الأمريكية أن هذه مهمة ثلاثية إذ يتعين علينا التوصل إلى العقود الاجتماعية الحقيقية بشأن الملكية، وإدماجها فى القانون الرسمى، واستنباط استراتيجية سياسية تجعل الإصلاح ممكنا وموضوع الفصل التالى هو كيف تستطيع الحكومات أن تتصدى لهذه التحديات





## الفصل السادس

# سرّ الفصل القانوني

لم تكن حياة القانون مطلقاً، لقد كانت احتقارا

— أوليفر وبديل هولمز، القاضي بالمحكمة العليا الأمريكية

لدى كل البلدان النامية والشيوعية السابقة تقريبا نظام رسمي للملكية والمشكلة هي أن معظم المواطنين لا تتوافر لهم فرصة الوصول إليه إنهم يصطدمون بالناقوس الزجاجي لفيرناند برودل، هذا الهيكل الخفى في ماضي الغرب الذي احتفظ بالراسمالية لقطاع صغير جدا من المجتمع وكان البديل الوحيد أمامهم، كما رأينا في الفصل الثاني، هو الاتسحاب بأصولهم إلى القطاع غير الرسمي حيث يستطيعون أن يعيشوا ويقوموا بالأعمال - ولكن دون أن يتمكنوا مطلقا من تحويل أصولهم إلى رأس مال ومن المهم قبل أن نستطيع رفع الناقوس الزجاجي، أن نعرف أننا لن نكون أول من يحاول فكما سنرى في هذا الفصل، فقد حاولت حكومات البلدان النامية لمدة ١٨٠ عاما أن تفتح نظم الملكية فيها للفقراء

لماذا فشلت؟ يتمثل السبب فى أنها عملت عادة فى ظل خمسة مفاهيم أساسية خاطئة

- أن جميع الناس الذين يختننون فى القطاعات التى لاتتمتع بحماية القانون أو السرية، يفعلون ذلك للتهرب من أداء الضرائب
- حيازة الأصول العقارية ليست قانونية لأنه لم يتم مسحها ورسم خرائطها وتسجيلها بشكل سليم
- أن إصدار قانون ملزم بشأن الملكية كاف، وتستطيع الحكومة تجاهل تكاليف الامتثال لذلك القانون
- يمكن تجاهل الترتيبات التى لاتتمتع بحماية القانون أو «العقود الاجتماعية» القائمة
- يمكن تغيير أمور أساسية مثل أعراف الناس بشأن كيفية تمكنهم من حيازة أصولهم، القانونية والتى لاتتمتع بحماية القانون، بدون قيادة سياسية عالية المستوى

إن تفسير أسباب قيام الاقتصادات السرية فى هذه البلدان، التى يعمل فيها بصورة نموذجية من ٥٠ إلى ٨٠ فى المائة من السكان، من حيث التهرب الضريبى، تفسير غير سليم جزئيا على الأقل فلا يلجأ معظم الناس إلى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون لأنه ملاد من الضرائب، ولكن لأن القانون القائم، مهما كانت رشاقة صياعته، لا يعالج احتياجاتهم أو طموحاتهم ففى بيرو، حيث صمم الفريق العامل معى برنامج إدماج صغار منظمى المشروعات غير القانونيين فى النظام القانونى، سجل نحو ٢٧٦ الفا من منظمى المشروعات هؤلاء مشروعاتهم طوعا فى مكاتب التسجيل الجديدة التى أنشأناها لتتناسبهم - مع عدم الوعد بإجراء تحفيضات فى الضرائب، لم تكن مشروعاتهم السرية تدفع أية ضرائب على الإطلاق - ويعد ذلك بأربع سنوات، بلغ مجموع الضرائب من مشروعات الأعمال التى لم تكن قابوية من قبل، ١,٢ مليار دولار

لقد نجحنا لاسنا طوعا قانون الشركات والملكية ليلانم احتياجات منظمى المشروعات الذين كانوا قد اعتادوا على القواعد التى لاتتمتع بحماية القانون

كما خفضنا بصورة مثيرة التكاليف البيروقراطية لتسهيل المشروعات ولايعنى هذا القول ان الناس لايهتمون بعاتورة الصرائب التى يدفعونها لكن الصناع وأصحاب الحوانيت التى لاتتمتع بحماية القانون - الذين يعملون بهامش ربح فى سمك حدّ موسى، ويحسبون بالسنت وليس بالدولار - يعرفون مبادئ الحساب الأساسية كان كل ما يتعين علينا عمله هو أن نتأكد أن تكاليف العمل بصورة قانونية تقل عن تكاليف البقاء فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، وتسهيل العمل الورقى اللازم للتشريع، وبإدخال مجهود قوى للإبلاغ بمزايا البرنامج، ثم مراقبة مئات الآلاف من منظمى المشروعات وهم سعداء بترك العمل فى السر.

وعلى خلاف الحكمة الشائعة، فإن العمل فى السرّ من الصعب أن يخلو من التكلفة فالمشروعات التى لاتتمتع بحماية القانون يتم فرض ضريبة عليها عن طريق الافتقار لقانون جيد للملكية، واضطرابها بصورة مستمرة لإخفاء عملياتها عن السلطات ونظر لأنها لاتتخذ شكل شركات، فإن مشروعات منظمى الأعمال التى لاتتمتع بحماية القانون لايمكنها أن تغرى المستثمرين ببيع الأسهم؛ ولاتستطيع تأمين الحصول على ائتمان رسمى منخفض التكلفة لأنه لاتوافر لها حتى عناوين قانونية ولايمكنها أن تقلل المخاطر بإعلان المسؤولية المحدودة أو الحصول على تغطية تأمينية و«التأمين» الوحيد المتاح لها هو ذلك الذى يقدمه الجيران، والحماية التى يرغب البلطجية المحليون أو المافيا المحلية فى بيعها لها وبالإضافة لذلك، فإنه نظرا لأن منظمى المشروعات التى لاتتمتع بحماية القانون يعيشون فى خوف دائم من اكتشاف الحكومة لهم ومن امتزاز الموظفين الفاسدين، فإنهم يضطرون إلى تقسيم وتحزنة مرافقهم الإنتاجية بين عدة مواقع، وبذلك نادرا ما يحققون وفورات حجم كبيرة فى بيرو، تُدفع نسبة ١٥ فى المائة من الدخل الإجمالى للصناعة فى القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون كرشاوى، تتراوح من «العينات المجانية» و«الهدايا» الخاصة من السلع للنقد الصراح وإدراك مركز منظمى المشروعات السرية بصرهم دائما على الحذر من الشرطة، فإبهم لا يستطيعون الإعلان صراحة عن بصائعهم لتشكيل دائرة من الزبائن لهم، أو إرسال شحنات ضخمة أقل تكلفة للزبائن

وقد أكدت المحوٲ التي أجريهاها في البلدان التي عملنا معها أن التحرر من تكاليف القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون وإزعاجه، يعوض عادة دفع الضرائب ذلك أنك ستدفع صرائب، سواء كنت داخل الناقوس الزجاجى أم خارجه. والتكلفة النسبية للعمل بصورة قانونية هي التي تحدّد ما إذا كنت ستظل خارجه أم لا.

وهناك مفهوم خاطئ، رئيسى آخر هو أن الأصول العقارية لا يمكن تسجيلها رسميا إلا إذا تم مسحها ورسم خرائط لها وتسجيلها بأرقى تكنولوجيا عصرية للمعلومات الجغرافية. وفي أفضل الأحوال يصدق هذا بدوره بصورة جزئية فقد استطاع الأوروبيون والأمريكيون تسجيل كافة أصولهم العقارية قبل اختراع الكمبيوتر ونظم المعلومات الجغرافية بعقود وكما رأينا في الفصل السابق، فقد تعرّش المسح طوال القرن التاسع عشر في الأراضي التي كان قد تم الاستيطان فيها مؤخرا في الولايات المتحدة سنوات كثيرة وراء نقل حقوق الملكية. وفي اليابان، فحصت الوثائق المتاحة في مكاتب التسجيل، ورأيت كيف تم تسجيل بعض الأصول من الأراضي بعد الحرب العالمية الثانية باستخدام خرائط من العصر الذي كانت طوكيو تسمى فيه «أيديو». قبل اختراع التصوير الجوى والنظم العالمية لتحديد المواقع بفترة تبلغ من ثلاثة إلى أربعة قرون

وهذا لا يعنى القول بأن أرقى النظم العصرية للمعلومات الجغرافية والحساب الألى ليست مهمة لأقصى حد بالنسبة لآى جهود حكومية لفتح نظام الملكية أمام الفقراء. إن ما يعنيه هو أن نقص الرسملة الشائع، ووضع اليد غير الرسمى والإسكان غير القانونى في كل أنحاء العالم غير الغربى، لم ينجم عن الافتقار للتكنولوجيا المتقدمة للمعلومات ورسم الخرائط.

إن ناقوس برودل الزجاجى ليس مصنوعا من الضرائب والخرائط والحاسبات الآلية، وإنما من القوانين. إن ما يحول دون استخدام معظم الناس في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة للملكية الرسمية الحديثة لخلق رأس المال، هو النظام القانونى والإدارى السيئ. إذ توجد داخل الناقوس الزجاجى نجب تحرر الملكية، وتستخدم القانون المصنّف المستعار من الغرب

وخارج الناقوس الزجاجى، حيث يعيش معظم الناس، يتم استخدام الملكية وحمايتها بكل أنواع الترتيبات التى لا تتمتع بجماعية القانون التى تضرب بجنورها فى توافق الرأى غير الرسمى والمبثرة عبر مجالات شاسعة وتمثل هذه العقود الاجتماعية المحلية فهما جماعيا لكيفية امتلاك الأشياء، وكيف يرتبط الملاك ببعضهم البعض ويتضمن وضع عقد اجتماعى وطنى واحد بشأن الملكية فهم العمليات السيكولوجية والاجتماعية - المعتقدات، الرعات، النوايا، الاعراف، والقواعد - التى تضمنها هذه العقود الاجتماعية المحلية، تم استخدام الأدوات التى يوفرها القانون المهنى لنسجها معا فى عقد اجتماعى وطنى رسمى واحد وهذا هو ما حققته البلدان الغربية منذ زمن ليس ببعيد

والنقطة الحاسمة لفهم الموضوع هى أن الملكية ليست الشئ المادى الذى يمكن تصويره او رسم خريطة له، إن الملكية ليست سمة اولية للأصول، وإنما التعبير القاموسى عن توافق آراء هادف من الناحية الاقتصادية إزاء الأصول إن القانون هو الأداة التى تحدد وتثبت رأس المال وتجسده وفى الغرب، فإن اهتمام القانون بتمثيل الواقع المادى للمباني أو العقارات أقل من اهتمامه بتوفير عملية أو قواعد تتيح للمجتمع أن يستخلص فائض القيمة المحتمل من تلك الأصول. إن الملكية ليست هى الأصول نفسها، وإنما توافق الرأى بين الناس حول الكيفية التى ينبغى بها حيازة هذه الأصول واستخدامها وتبادلها ولا يمثل التحدى حاليا فى معظم البلدان غير الغربية فى وضع كل أراضى الأمة ومبانيها فى نفس الخريطة (والذى ربما تحقق بالفعل) وإنما فى إدماج الاعراف القانونية الرسمية القائمة داخل الناقوس الزجاجى مع الاعراف غير القانونية القائمة خارجه

ولن يتحقق هذا بئى قدر من المسح ووضع الخرائط ولن يحول أى قدر من الحساب الآلى الأصول إلى شكل يسمح لها بالدخول للأسواق المتوسعة وأن تصبح رأس مال فمثلا رأينا فى الفصل الثالث، فإن الأصول نفسها ليس لها تأثير على السلوك الاجتماعى فهى لا تخلق حوافز، وهى لا تخضع أى شخص للمساطة، ولا تجعل أى عقد قابل للإنفاذ إن الأصول ليست «منقولة وقابلة للاستبدال» بحكم جوهرها الداخلى - [قابلية للتقسيم، والتجميع أو للحشد] لتلائم أى تعامل إن جميع هذه الخصائص تنبع من قانون الملكية

الحديث إن القانون هو الذى يفصل ويثبت الإمكانات الاقتصادية للأصول كقيمة منفصلة عن الأصول المادية نفسها، ويتيح للبشر أن يكتشفوا ويجسّدوا هذه الإمكانات إن القانون هو الذى يربط بين الأصول فى دوائر مالية واستثمارية وهو تمثيل للأصول فى وثائق قانونية للملكية تعطيها القدرة على خلق فائض القيمة

منذ أكثر من ستين سنة خلت، كتب المؤرخ القانونى البارز مى راينولد دويس.

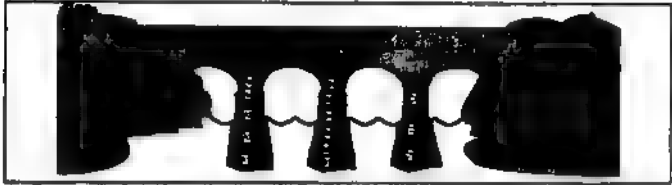
لم تعد ميثاق اللعبة الاقتصادية حالياً هي السلع المادية والخدمات الفعلية التى جرى بحثها على وجه الحصر تقريباً فى كتب الاقتصاد الدراسية، بقدر ما يمثل فى إقامة علاقات قانونية تسميها الملكية - وبدراسة تطور الواقع الاجتماعى، ينتهى المرء إلى اعتباره شبكة من الروابط غير الملموسة - بيت للعمليات من حيوط غير مرئية - تحيط بالفرد وتستوعبه، وبذلك تنظم المجتمع - والعملية التى ندرك بها العالم الفعلى الذى نعيشه فى عملية تحويل هذه العلاقات لأشياء ندرك بالحواس<sup>(١)</sup>

ومن ثم، فإن رفع الناقوس الزجاجى هو الأساس تحد قانونى فلا بد أن يتفاعل النظام القانونى الرسمى مع القترينات التى لاتتمتع بحماية القانون القائمة خارج الناقوس الزجاجى لخلق عقد اجتماعى بشأن الملكية ورأس المال ولتحقيق هذا التكامل، يستلزم الأمر بالطبع تضافر عدة نظم أخرى للمعرفة فعلى الاقتصاديين أن يحددوا التكاليف والأعداد بدقة، ويتعين على المحللين الحضريين والمهندسين الزراعيين أن يحددوا الأولويات، ولاعنى عن واضعى الضرائب والمساحين وخبراء الكمبيوتر فى تشغيل نظم المعلومات ولكن فى نهاية المطاف، لن يتجسد عقد اجتماعى وطنى متكامل إلا فى القوائم وكل أنظمة المعرفة الأخرى لا تلعب إلا دوراً مسانداً

هل يعنى ذلك أن القانونيين يحب أن يقودوا مسيرة التكامل؟ لا ذلك أن إجراء تغيير قانونى أساسى هو مسؤولية سياسية وهناك أسباب مختلفة لذلك أولاً، إن القانون يتعلق بصعة عامة حماية حقوق الملكية ومع ذلك، فلا تتمثل المهمة الحقيقية فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة فى تحسين الحقوق القائمة مثل منح الجميع الحق فى حقوق الملكية - «أسمى الحقوق» إن أردت. إن منح مثل هذه الحقوق السامية، وتخريب الناس من القانون السيسى،

عمل سياسي ثانياً، من المرجح أن تعارض قلة من اصحاب المصالح، صغيرة وإن كانت راسخة بقوة - يمثلها أساساً أفضل رجال القانون التحارى فى البلاد - التغيير، إلا إذا اقتنعت بغير ذلك ولا يتطلب جذب الاشخاص المتربطين جيداً والأثرياء ذوى الأموال للإنحياز لموكب الدعاية للتغيير، مستشارين ملتزمين بخدمة عملائهم، وإنما يتطلب سياسيين موهوبين ملتزمين بخدمة شعوبهم ثالثاً، إن إقامة نظام متكامل لاتعلق موضع مشروعات القوانين واللوائح التى تبدو جيدة على الورق، وإنما تتعلق بتصميم قواعد جذورها راسخة فى معتقدات الناس، ومن ثم يزداد احتمال إطاعتها وإنفاذها ومهمة السياسى هى الارتباط بالناس الحقيقيين رابعاً، إن حدث الاقتصادات السرية على أن تصبح قانونية هى وظيفة أساسية لترويج السياسات. ويتعين على الحكومات أن تقنع أفقر المواطنين - الذين يفتقرون إلى الثقة فى الحكومة ويبقون على ترتيبات ضيقة صارمة - وبعض رجال المافيا الذين يحمونهم، بشراء تذكرة دخول إلى لعبة أكبر وفضفاضة بصورة أشد ويتعين على الحكومات أن تقنع أيضاً اليساريين ذوى النفوذ، الأقرب إلى الجماهير فى بلدان كثيرة، بأن تمكن الدوائر المناصرة لهم من إنتاج رأس المال هو أفضل وسيلة لمساعدتهم إن المواطنين الذين يعيشون داخل الناقوس الزجاجى وخارجه يحتاجون إلى الحكومة فى إثبات أن نظاماً للملكية متكاملأ وأعيد تصميمه، أقل تكلفة، وأكثر كفاءة وأفضل للامة من الترتيبات الفوضوية القائمة ويدون النجاح على هاتين الجبهتين القانونية والسياسية، لا يستطيع أى بلد أن يتقلب على الفصل العنصرى القانونى بين من يستطيعون خلق رأس المال ومن لا يستطيعون ذلك ويدون وجود ملكية رسمية، لا يستطيع الناس تحقيق الازدهار فى مجتمع رأسمالى، مهما بلغ قدر الأصول التى يراكمونها، ومهما بلغ اجتهادهم فى العمل إذ سيقون خارج رادار صانعى السياسة، خارج متناول السجلات الرسمية، ومن ثم يبقون غير مرئيين من الناحية الاقتصادية لقد نجحت الحكومات الغربية فى رفع الناقوس الزجاجى، لكنها كانت عملية غريبة الأطوار تفتقر للوعى استغرقت مئات السنين وقد جمعنا - أنا وزملائي - ما اعتقدنا أنهم فعلوه صواباً فى صيغة أسميناها «عملية الرسملة»، نساعد بها مختلف الحكومات فى شتى أرجاء العالم والصيغة موجزة فى

## شكل (٦ - ١) عملية الرسملة: التحرك من رأس المال غير المنتج إلى رأس المال المنتج



### A - استمرارية الإكتشاف

- ١.١ تحديد وتقييم نوع وتصنيف الأصول التي تتضمن بمعية القانون رأس المال غير المنتج
- ١.٢ وضع مؤشرات جديدة معينة لتخطيط في القطاع الذي يتضمن بمعية القانون
- ١.٣ تحديد أسباب ترقم الأصول التي تتضمن بمعية القانون مؤشرات وضع برامات محددة لرفع
- ١.٤ تحديد القطاعات الاقتصادية والمناطق الجغرافية التي تكون أبعاد الأنشطة التي تتضمن بمعية القانون أكثر شمولاً
- ١.٥ تحديد القدرة المالية والهيكلية والبيانات الأساسية التي تتضمن بمعية القانون رأس المال غير المنتج
- ١.٦ وضع المؤشرات اللازمة لتقدير حجم الأصول التي تتضمن بمعية القانون باستخدام معلومات جديدة
- ١.٧ تعديل المعايير الحالية الموضوع من أجل جمع ونهجه البيانات والمعلومات والمؤشرات
- ١.٨ تحديد أهمية قيمة الأصول التي تتضمن بمعية القانون
- ١.٩ تحويل نظام القطاع خارج القانون مع باقي المجموع
- ١.١٠ بحث التوافق العامة بين الحكومة والأصول التي تتضمن بمعية القانون
- ١.١١ بحث التوافق العامة بين مشروعات الأعمال التجارية والأصول التي تتضمن بمعية القانون
- ١.١٢ تحديد المعايير التي تضمنت فيها الحكومة بموجب مع الأصول التي تتضمن بمعية القانون
- ١.١٣ تحديد الأرباح خارج القانون التي تضمنت فيها الأصول التي تتضمن بمعية القانون
- ١.١٤ اعتماد وثيقة شروط الأرباح التي تتضمن بمعية القانون التي تضمن الحماية على مختلف
- ١.١٥ تحديد بمعية القانون في الحياة
- ١.١٦ تحديد العلاقات التي تضمنها البلاد جديدة ضمن قدر يتضمن بمعية القانون
- ١.١٧ تحديد المعايير بالنسبة للقطاع الذي يتضمن بمعية القانون
- ١.١٨ التحديد بالنسبة للقطاع الذي يتضمن بمعية القانون
- ١.١٩ تحديد بالنسبة للمعركة

### B - الإستراتيجية السياسية والاقتصادية

- ٢.١ كتابة أي برنامج على مستوى سياسي شامل وأية من رسملة القطاع
- ٢.٢ تحديد الهيئات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣ تحديد الطرق بمعية الرسملة الخطط المؤشرات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤ تحديد وتصميم الهيكل على القطاع على وسائل الهيئات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥ تحديد وأبعاد أي خطة الوالية على رسملة الأصول والمكان لا مركزية لتضمين الخدمات في كل أنحاء البلاد
- ٢.٦ تحديد أن تضمن التنمية الاقتصادية الإقليات السياسية المتعددة وتضمن ذلك في كل منط القطاع مما يضمن تنفيذ الخطة على حد سواء
- ٢.٧ كتابة الإحصائيات الإحصائية والقانونية
- ٢.٨ حساب الخلفيات رسملة الأصول خارج القانون بما في ذلك
- ٢.٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون على كافة المؤسسات الحكومية
- ٢.١٠ كتابة التشريعات والبيانات الاقتصادية بناء على قدر معين
- ٢.١١ عدم الاعتمادات والوثائق الأخرى القانونية
- ٢.١٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون بما في ذلك التشريعات المتعلقة
- ٢.١٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٢٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٣٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٤٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٥٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٦٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٧٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٨٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩١ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٢ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٣ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٤ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٥ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٦ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٧ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٨ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.٩٩ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون
- ٢.١٠٠ كتابة التشريعات التي تضمنت فيها القانون



الشكل (٦ - ١) والواقع أن شرح التفاصيل لا يعد جزءاً من هذا الكتاب، لكن القراء الذين يودون الإطلاع على الوصف التقني للخطة بأسرها مدعوون للرجوع للوثائق غير المنشورة في محفوظات «معهد الحرية والديمقراطية» وسأركز في باقي هذا الفصل على مكوبين لا غنى عنهما في الصيغة التحدي القانوني والتحدى السياسي

### الجزء الأول: التحدي القانوني

مثلاً تبدو عليه الأمور، فإن إقامة نظام متكامل موحد للملكية في البلاد غير الغريبة أمر مستحيل فترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون مبعثرة بين عشرات، وأحياناً مئات، المجتمعات المحلية، ولا يعرف إلا أهل الداخل المطلعين والجيران فقط الحقوق وغيرها من المعلومات وينبغي دمج كل ترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون المنفصلة والسائبة التي تميز معظم بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة في نظام واحد يمكن استخلاص مبادئ القانون العامة منه خلاصة القول، ينبغي إدماج العقود الاجتماعية الكثيرة «هنا وهناك» في عقد اجتماعي واحد يشمل كل شيء.

كيف يمكن تحقيق ذلك؟ كيف تستطيع الحكومات أن تتوصل إلى ماهية ترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون؟ كان ذلك هو على وجه التحديد السؤال الذي وجهته إلى خمسة أعضاء في الوزارة الإندونيسية فقد زرت إندونيسيا لحضور احتمال بإصدار طبعة من كتابي السابق بلغة الساسا الإندونيسية، واستغلوا هذه الفرصة لدعوتي للحديث حول كيف يمكنهم التوصل إلى «من يملك ماذا» بين ٩٠ في المائة من الإندونيسيين الذين يعيشون في القطاع غير القانوني وخوفاً من أن أعقد انتباه وتركيز المستمعين، إذا أسرفت في الشرح الفني حول كيفية بناء جسر بين القطاعين غير القانوني والقانوني، تقدمت بطريقة أخرى، طريقة إندونيسية، للرد على سؤالهم خلال الجولة المكرسة للكتابي، اقتطعت بضعة أيام لزيارة بالي، وهي من أحمل

الاماكن على سطح الأرض ولم تكن لدى وأنا اتجول عبر حقول الأرز، اى فكرة عن اين تقع حدود الملكية لكن الكلاب كانت تعرف ففى كل مرة كنت أعبر فيها من مزرعة لأخرى، كان كلب مختلف ينبح ربما كانت هذه الكلاب الإندونيسية جاهلة بالقانون الرسمى، لكنها كانت متأكدة من الأصول التى يملكها اصحابها

وأجبرت الوزراء أن لدى الكلاب الإندونيسية المعلومات الاساسية التى يحتاجونها لإقامة نظام رسمى للملكية، وأنهم بالتجول فى شوارع المدن وفى الريف والإصغاء للكلاب التى تنبح، يستطيعون تدريجيا أن يشقوا طريقهم للامام، خلال غابة وثائق التمثيل غير القانونية المبعثرة فى كافة انحاء البلاد، حتى يتوصلوا إلى العقد الاجتماعى الحاكم، ورد احد الوزراء بقوله «أه، جوكونم عادات (قانون الناس)»!

لقد كان اكتشاف «قانون الناس» هو الاسلوب الذى بنت به دول الغرب نظمها الرسمية للملكية ويتطلب الأمر حكومة جادة معنية بإعادة هندسة الاتفاقيات غير الرسمية الحاكمة فى عقد اجتماعى رسمى وطنى واحد بشأن الملكية، الإصغاء إلى كلابها التى تنبح وإدماج كل اشكال الملكية فى نظام موجود، ينبغى أن تتوصل الحكومات إلى كيف ولماذا تجدى الأعراف المحلية ومدى قوتها فى واقع الأمر

ويفسر الفشل فى القيام بهذا السبب فى أن المحاولات الماضية للتغيير القانونى فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لم تكن مجدية إذ ينزع الناس إلى النظر إلى «العقد الاجتماعى» باعتباره تجريدا غير مرئى ويمثل قوة إلهية، لايمكن سوى فى عقول اصحاب الرؤى مثل لوك، وهيوم، وروسو لكننا اكتشفنا - أنا وزملائى - أن العقود الاجتماعية فى القطاع غير القانونى ليست مجرد التزامات اجتماعية ضمنية يمكن استنتاجها من سلوك المجتمع بل هى أيضا ترتيبات يقوم الناس الحقيقيون بتوثيقها صراحة وبنتيجة لذلك، يمكن عمليا لمس هذه العقود الاجتماعية غير القانونية، ويمكن أيضا تجميعها لإقامة نظام للملكية ولتكوين رأس المال يعترف به المجتمع نفسه وينعذه

### الانتقال من نظام ما قبل رأسمالي للملكية إلى نظام رأسمالي لها

لا يتصور قيام اقتصاد حديث للسوق، بدون نظام رسمي متكامل للملكية. فلو لم تكن دول الغرب المتقدمة قد ادمجت كل أنواع التمثيل للملكية في نظام معياري موحد لها وجعلته متاحا للكافة، لما استطاعت أن تخصص وتقسم العمل لخلق شبكة سوق موسعة ورأس المال اللازم لإنتاج ثروتها الحالية وترتبط أوجه عدم كفاءة الأسواق غير الغربية كثيرا بتجزؤ تربيقات الملكية لديها، وعدم توافر تمثيل معياري للملكية ولا يحدّ هذا الاقتدار إلى التكامل من التفاعل بين القطاع القانوني وغير القانوني فقط، وإنما بين الفقراء أنفسهم ذلك أن مجتمعات العاملين خارج إطار القانوني تتبادل فيما بينها، ولكن بصعوبة كبيرة فحسب، إنها مثل الأساطيل الصغيرة من السفن التي تظل على هيئة تشكيل عند الإبحار استنادا إلى بعضها البعض وليس استنادا إلى معيار ما موضوعي ومشترك، مثل النجوم أو البوصلة المغناطيسية

إن المعايير المشتركة المدمجة في كيان قانوني موحد ضرورية لإقامة اقتصاد سوق حديث<sup>(٢)</sup> ومثلما أوضح س راينولد نوبس

تتطلب الطبيعة الإنسانية الانظام واليقين، ويقتضى هذا المطلب أن تتسق هذه الأحكام الأولية معا مما يتيح لها أن تتبلور في قواعد محددة - في هذا الكيان من المبادئ أو التنبؤ المنتظم الذي سمي القانون - إن الملائمة العملية التي يأخذ بها العامة تؤدي إلى بدل جهود متكررة لإصفاء طابع نظامي على كيان القوانين إن المطلب على التقين هو طلب من الناس بأن يتم تصريحهم من الأسرار ومن عدم اليقين المحيط بالقانون غير المكتوب أو حتى القانون المستمد من السوابق<sup>(٣)</sup>

والانتقال من الحالة التي يعتمد فيها الناس بالفعل على تنوع الممارسات غير القانونية التي يرسخها الاتفاق المتبادل، إلى نظام قانوني موحد ومقنن، يمثل تحديا مروعاً ومثلما رأينا، هذا هو ما كان يتعين على دول الغرب أن تحققه للانتقال من «الأحكام البدائية» لما قبل الرأسمالية، إلى كيان منظم من

القوانين وتلك هي الطريقة التي رفعت بها المناقوس الزحاحى بيد أنه بقدر ما نجحت هذه البلدان، فإنها لم تكن واعية دوماً بما كانت تعمله، ولم تخلف مخطط أصلى وأصبح وراءها وحتى فى بريطانيا التى كانت توافقه لتوسيع منافع الثورة الصناعية، امتدت جهود الإصلاح لنحو قرن كامل (من ١٨٢٩ إلى ١٩٢٥) قبل أن تصبح الحكومة فى وضع يمكنها من التاكيد من أن الأصول العقارية يمكن تسجيلها مركزياً ويسهل نقلها ويلخص جون سى باين مدى صعوبة وغرابة أطوار إصلاح نظام الملكية بالنسبة لإنجلترا

تم إصدار كثير جداً من النظم الأساسية، وتم وضع قانون الملكية الإنجليزى من أعلى لأسفل وكان كثير من هذا الإصلاح ارتجالاً فى حالات معينة، ويخرج المرء بانطباع أن قادة الحركة لم تكن لديهم على الدوام فكرة واضحة عما يفعلونه والسبب فى قيامهم بذلك لقد أصبح القانون الإنجليزى للملكية جَدُّ تقنى، واكتسب إضافات جد كثيرة على مر القرون لحد أن المهمة لا بد وأنها بدت فى البدء مروعة وساحقة تقريباً وكانت الصعوبة تكمن فى أنه كان هناك قدر كبير من التفاصيل يتعين العناية بها، بحيث كان من الصعب الوصول لجوهر الأمور. لذلك بدأ دعاة الإصلاح الإنجليز التصدى لها بكل الحماس، وإن كان بطاقة أكبر من مجرد وضوح المفهوم وعلى المدى الطويل، أبلوا بلاء حسناً، لكن الأمر اقتضى منهم قرناً ليحققوا ذلك، وفى إبان ذلك جربوا عدة تمارب فاشلة، واضطروا فى النهاية إلى الأخذ بمبدأ من الحلول الوسط<sup>(٤)</sup>

### فشل القانون الإلزامى

يمكن للمرء أن يفترض أن رفع النواقيس الزجاجة سيكون أسهل نسبياً حالياً على البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وفى نهاية المطاف، فإن الحق فى الحصول الشامل على الملكية معترف به حالياً تقريباً فى كل دستور وطنى فى العالم، وفى كثير من الاتفاقيات الدولية وتوجد برامج لمحو الفقراء الملكية فى كل البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تقريباً وفى حين لاقت

الإصلاحات التي تمت في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مقاومة فكرية وأخلاقية واسعة تعارض تقاسم حقوق الملكية الرسمية، فإن فرص الحصول على الملكية تعد اليوم جزءاً لا يتجزأ من الحقوق الأساسية للجنس البشري. وتؤكد طائفة عريضة من المعاهدات الدولية المعاصرة، التي تتراوح من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٩٤٨ وكتب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، إلى «ميثاق منظمة العمل الدولية رقم ١٦٩ المعنى بالسكان الأصليين وأهل القبائل في البلدان المستقلة الصادر في ١٩٨٩، على أن الملكية حق أساسي ومستقر للإنسان وبدرجات مختلفة، تعتبر المحاكم والقوانين في كل أنحاء العالم هذا الحق مبدأ قانونياً مهماً وقد حظر القانون الدولي منذ اتفاقية لاهاي الدولية المبرمة في ١٨٩٩، العادات القديمة للجيش الغازية في نهب الممتلكات. وهكذا يعامل القانون الدولي حقوق الملكية للأفراد باعتبارها أكثر قداسة من حقوق سيادة الدول، وينص على أنه حتى إذا فقدت الحكومة أراضي، فإن أصحاب الملكية في هذه الأقاليم مفسها لن يفقدوا أراضيهم

لقد ازدهرت الولايات المتحدة وكندا واليابان وأوروبا - الخمسة وعشرون بلداً المتقدمة في العالم - بدرجة أكبر كثيراً من تلك البلدان التي لا يتوافر لها ذلك النوع من نظم الملكية الرسمية المتكاملة الذي يسهل الوصول إليه، لدرجة أنه ليس هناك حالياً من يقترح على حواد الوصول لحلول اقتصادية تتجاهل الحاجة إلى الملكية الرسمية وهذا هو السبب في أن معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة تعترف حالياً بمبدأ الحصول الشامل على حقوق الملكية، باعتباره ضرورة سياسية وأيضاً عنصراً ضمناً في برامجها للإصلاح الاقتصادي الكلي وإصلاح السوق.

لقد تم تكريس القصد السياسي في تقنين الأصول المملوكة للفقراء في القانون في أمريكا اللاتينية لمدة قرنين تقريباً وقد نص أول دستور يصدر في ميرو في ١٨٢٤، بعد عامين فحسب من الاستقلال عن إسبانيا، بوضوح على أن الفقراء، ومن ثم معظم أبناء بيرو من السكان الأصليين، ملاك شرعيون

لأراضيهم ومع ذلك، فعندما أصبح واضحاً أن المخمة في بيرو طفقت تنزع تدريجياً ملكية الفقراء من أبناء البلاد الأصليين، أصدرت الحكومة على مرّ السنين سلسلة قوانين تعزز قصد دستور بيرو لكن لم يُجد أي منها لقد حصل السكان الأصليون على نظم أساسية تؤكد أن الأصول التي يحوزونها مملوكة لهم قانوناً أما ما لم يحصلوا عليه فهو الآليات التي تتيح لهم تثبيت الحقوق الاقتصادية على الأصول المملوكة لهم في صكوك تمثلها ويحميها القانون

والسبب جدّ واضح حالياً ففي بيرو (وفي كثير من البلدان الأخرى خارج الغرب)، لا يتجه معظم الإجراءات القانونية لإنشاء الملكية الرسمية لمعالجة البراهين والإثباتات التي لا تتمتع بحماية القانون للملكية التي تفتقر إلى أي سلسلة مرئية من سندات الملكية. وهي بالطبع النوع الوحيد من الإثبات الذي يملكه الفقراء. كذلك لا يستطيع القانون القائم متابعة وتسجيل التغيرات اللاحقة في سند ملكية أصل ما حيث تستمر المعاملات في تعديل علاقات الملكية على مرّ الزمن ومثلما رأينا في الفصل الثاني، فإن الإجراءات القانونية اللازمة حالياً لتسجيل سندات الملكية والتغييرات فيها قد تستغرق عشرين سنة، في أفضل الظروف، مع توافر الخرائط الحديثة وأجهزة الكمبيوتر، ووقوف منظمات حقوق الإنسان متاهية، ومع توافر أفضل النوايا في العالم ويتضح من الأدلة التي اكتشفناها، أن أهل بيرو الأصليين واحدها في القرن التاسع عشر عمليات تأخير لم تكن أفضل من ذلك، وربما كانت أسوأ وبالنسبة للناس الذين كانوا يعترضون على هذه المعقبات، كان إنشاء القواعد غير القانونية لحماية الأصول المملوكة لهم هو الشيء الرشيد الوحيد الذي يتعين عليهم القيام به.

وعندما أصبح واضحاً أن القوانين الإلزامية لا تساعد السكان الأصليين في بيرو على تجسيد حقوقهم، هبت الصفوة الاقتصادية ثانية إلى العمل، أملة في التوصل إلى خدع جديدة للالتفاف على قصد القوانين وحيثما لم توجد سندات الملكية الرسمية، بدأ نثر الاتصالات الجيدة معاً ومحاوهم في اختراعها، فأعادوا تشكيل الأدلة الوثائقية، وجعلوا السلطات المحلية

والمسجلين العموميين يصدرّون سندات قانونية لصالحهم (والتي كان يسمونها *titulos supletorios*) ومرة ثانية جردت الصفوة السكان الاصليين لبيرو من ممتلكاتها، أو أجبرتهم على بيعها برخص التراب وبدلاً من أن تتحرى الحكومة السبب في عجز الفقراء عن استخدام القانون بكفاءة لصالحهم، افترضت أن القانون ليس هو المشكلة، وإنما المشكلة هي أن الفقراء أقل شأناً بصورة لصيقة بهم ومن ثم قبدلاً من تحسين القانون، اقتلعت بعض الفقراء وبنّت أسوار منع الحرائق حول أراضيهم وفي ١٩٢٤، أصدرت بيروقائوها أساسياً لحماية أبناء البلاد الاصليين من الوقوع ضحية مزيد من الحيل القانونية، بحشد الآلاف منهم في مجتمعات ريفية زراعية يحظر فيها صراحة نقل حقوق ملكية أى أرض وإذ حمت بهذا أبناء البلاد الاصليين من الصفوة الماكورة والمخادعة، فقد حرمتهم أيضاً، وإن كان بغير قصد من الأدوات الأساسية اللازمة لخلق رأس المال

بيد أن هذه الجيوب الريفية لم تكن تستطيع أن تضم سوى نسبة صغيرة من السكان الاصليين، وبحلول أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، كانت الأغلبية الباقية لاتزال معرضة للمعاذاة وتعميس، وبالتالي يحتمل أن تشكل طبقة متقلبة، خاصة مع الصعود المفاجئ، لحركات يسارية قوية ومنظمة جيداً وللتغلب على خطرهما، طبقت حكومة بيرو مثلها مثل حكومات كثير من بلدان العالم الثالث، برامج للإصلاح الزراعى صادرت مساحات شاسعة من الأراضى من المزارع الكبيرة ومزارع تربية الماشية الضخمة (*haciendas*)، لإنشاء ما يريد على ستمائة تعاونية زراعية تديرها الحكومة من أجل المزارعين ومرة ثانية كان الهدف نبيلاً التأكد من حصول أبناء البلاد الاصليين على فرص امتلاك العقارات وكان ما حوّل حتى هذه الجهود إلى مشل هو أن كثيرين من السكان الاصليين كانوا يكرهون العمل داخل بيروقراطيات مفروضة وقاموا بتفتيت التعاونيات إلى قطع من الأرض أصغر ومملوكة ملكية خاصة، وتحولوا مرة أخرى إلى الترتيبات غير القانونية المألوفة والمرة مدرجة أكبر لحماية حقوقهم التي ترسخت حديثاً وكان ما يتعين على الحكومة أن تضعه فى اعتبارها هو أنه عندما يحصل الناس فى

نهاية المطاف على الملكية، تكون لهم أفكارهم الخاصة بهم عن كيف يستخدمونها ويتبادلونها ذلك أنه إذا لم ييسر النظام القانوني تلبية احتياجات الناس وطموحاتهم، فإنهم سيخرجون من النظام جماعة

ويقدم تاريخ بيرو درسا مهما لدعاة الإصلاح من كل الألوان السياسية. لقد فشلت البرامج الحكومية لمنح الملكية للفقراء خلال المائة وخمسين عاما الماضية، سواء اتبعت مزعة اليمين (حقوق الملكية الخاصة خلال القانون الإلزامي) أو اليسار (حماية أرض الشعب الفقير في التعاويث التي تديرها الحكومة) إن جداول الأعمال السياسية المعوقة «لليسار مقابل اليمين» ليس لها أهمية إلى حد كبير بالنسبة لاحتياجات معظم الناس في البلدان النامية إن هؤلاء الناس لا يخرجون عن القانون لأن القانون طبق الخصخصة أو التجميع عليهم، وإنما ببساطة لأنه لم يتصد لما يريدونه قد تتباين رغباتهم. ففي بعض الأوقات يحتاجون لتجميع ملكياتهم، وأحيانا يحتاجون إلى تقسيمها فإن لم يساعدهم القانون، فإنهم عندئذ سيساعدون أنفسهم خارج إطار القانون إن ما يميز به أعداء الملكية وتكوين رأس المال في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة، لا يتمثل فيما إذا كانوا يساريين أو يمينيين، وإنما فيما إذا كانوا اصدقاء للوضع القائم أم لا ويقتضي الأمر أن تتوقف الحكومات في البلدان النامية عن العيش على الأحكام المسبقة لأهل الغرب التي تبرز قسوة الحصار الذي صاحب خلق الملكية في بريطانيا منذ قرون مضت، أو في تجريد أهل أمريكا الأصليين من ملكيتهم بصورة دموية في كل أنحاء أمريكا الشمالية هذه الديون المعنوية ينبغي دفعها في الغرب، وليس في الخارج وما يتعين على الحكومات في البلدان النامية أن تفعله هو الإصغاء للكلاّب التي تبع في مجتمعاتها المحلية الخاصة، وأن تتوصل إلى ما ينبغي لقانونها أن يقوله وعندئذ فقط سيكف الناس عن العيش خارجه

إن القانون الرسمي يفقد بصورة متزايدة مشروعيته لأن الناس يواصلون خلق الملكية خارج متناوله وقد اظهرت البيانات التي حصلنا عليها من الخارج أنه من ستينيات إلى تسعينيات القرن العشرين، لم ينم القطاع غير القانوني بدرجة أكبر في بيرو فقط، وإنما أيضا في غيرها من البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة ويفترض أن مثل القانون الإلزامي ليس ظاهرة تخص



بيرو وحدها، قمت في ١٩٩٤ بتشكيل فريق بحث خاص للتوصل إلى ما إذا كانت المؤسسات المالية الدولية قد أوردت خلال الثلاثين عاما الماضية أنباء عن تنفيذ أي برنامج ناجح وحاشد «الإصفاء الطابع الرسمي» في العالم الثالث. برنامج تمثل فيه كل الأصول بطريقة صحيحة، وتتكامل في نظام موحد بهدف إنتاج رأس المال وعلى الرغم من قضاء شهور، قمنا خلالها بغزيلة منهجية لسجلات الخزامة في الولايات المتحدة والمنظمات الدولية، لم نجد شيئا يشبه نجاح البلدان المتقدمة حتى من بعيد.

وكان ما توصلنا إليه هو أنه خلال العقود الأربعة الماضية، شرعت حكومات مختلفة في تنفيذ كثير من مثل هذه البرامج، بتخصيص مليارات الدولارات لتمويل حشد ضخم من الأنشطة المتعلقة بالملكية مثل نظم المسح ورسم الخرائط والتسجيل بالكمبيوتر. وكانت هناك سمتان رئيسيتان مشتركتان لهذه المشروعات. إجهاد عدد غير عادي منها قبل الأوان بسبب ضعف النتائج («مقايير هائلة من الخرائط الحديثة وأجهزة الكمبيوتر، لكن قليل من الملاك الرسميين الجدد»، كما أورد أحد مديري مشروع حكومي في البرازيل) وفيما عدا بعض برامج إصدار شهادات الملكية في ريف تايلند، لم ينجح أي من هذه الجهود في تحويل الأصول غير القانونية لأصول قانونية. ومن المؤكد أننا لم نجد أدلة على أن الأصول كان يجري تحويلها إلى رأس مال

هل كان ذلك راجعا إلى أن الحكومات لا تبالى حقا؟ من المؤكد لا ففي بيرو على سبيل المثال، حاولت الحكومة إخضاع طابع رسمي على الملكية على الأقل اثنتين وعشرين مرة في خلال أربعمئة سنة منذ الفتح الأسباني وكان معدل نجاحها صفرا وبحسنا الأمر مع سلطات إصدار سندات الملكية في بلدان نامية أخرى، وحصلنا على ردود مماثلة لقد فشلت برامج كبرى، أو لم يكن لها سوى تأثير هامشي. ومما له دلالة ثانية، أنه لا أحد ممن تحدثنا إليهم في تلك البلدان استطاع أن يدعي أن أي عدد له شأن من سندات الملكية المصدرة أصبح من المنقولات القابلة للاستبدال، وتم تحديده وتثبيتته بطريقة تجعله جزءا من شبكة متكاملة يمكن أن يتم فيها تكوين رأس المال

والأدلة ساحقة فمهما بلغ اجتهد البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة في مساعيها، ومهما حسنت موانئها، ظلت هناك مسافة ضخمة بين ما

يقضى به القانون الإلزامى وما يتعين القيام به لجعل القانون فعالاً إن القانون الإلزامى لا يكفي ومثلما أوضح أندريه راباكزينسكى.

إن المفهوم القائل بأن مجرد إنشاء نظام قانونى مناسب سينشئ مجموعة من الحقوق القانونية للملكية التى يمكنها أن تشكل أساساً لنظام اقتصادى حديث، غير مقنع بصورة عميقة؛ لأن معظم قوانين حقوق الملكية يمكن تنفيذها بصورة هامشية فقط بواسطة النظام القانونى إلى جوهر مؤسسة الملكية هو مسألة تتعلق بالممارسات الاجتماعية والاقتصادية التى لا تتعرض للتساؤل والتى تتحقق بدون وعى إلى حد كبير، والتى ينبغي أن ترسخ جذورها فى التطورات غير القانونية وتلك مشكلة هوبز القديمة عندما يمثل معظم الناس للقانون، تستطيع الحكومة إنفاذه بطاعية وبتكاليف رخيصة [نسبياً] فى مواجهة قلة من الأفراد ينتهكونه، ولكن عندما يهباز الامتثال للقانون بقدر كبير كاف، لا توجد سلطة قوية بما يكفي لتعقب كل الناس مثلاً تفعل الشرطة وفى مثل هذا الإطار، وعندما يصبح إنفاذ القانون أقل فاعلية بدرجة متزايدة، يتولد لدى الأفراد حافز لأن يغيروا مصالحهم، بغض النظر عن أى قيود ورقية<sup>(٤)</sup>

وعبر التاريخ الحديث، لم تفتقر البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة للإرادة السياسية، والتمييزات، والبيانات الدولية، أو القانون الإلزامى الموضوع بغرض إعلان هو منح غالبية المواطنين حقوقاً فى الملكية فالمشكلة هى أنه عندما تشرع الحكومات لضمان حقوق الملكية للفقراء، فإنها تنصرف كما لو كانت ترتحل إلى مكان يوجد به فراغ فى الملكية، وكما لو كانت تهبط على سطح القمر وتفترض أن كل ما عليها أن تقعله هو سدّ هذا الفراغ بقانون ملزم بيد أنه لا يوجد فراغ فى معظم الحالات فالناس يحوزون بالفعل مقادير ضخمة من الملكية من خلال الترتيبات التى لا تتمتع بحماية القانون ورغم أن الأصول الملوكة للفقراء قد توجد خارج القانون الرسمى، فإن حقوقهم على هذه الأصول تحكمها على الرغم من ذلك العقود الاجتماعية التى صنعوها بأنفسهم وعندما لا ينسجم القانون الملزم مع هذه الأعراف والاتفاقيات التى لا تتمتع بحماية القانون، فإن أطراف هذه الاتفاقيات سوف يمتعضون من هذا التطفل ويرفضونه

### ترسيخ جذور القانون في العقد الاجتماعي

تشكل العقود الاجتماعية غير القانونية بشأن الملكية أساس كل نظم الملكية تقريباً، وهي حرة من واقع كل بلد، حتى في الولايات المتحدة حالياً<sup>(٦)</sup> ومثلما يذكرنا ريتشارد بوسنر، فإن الملكية تتشكل اجتماعياً<sup>(٧)</sup> ويعنى هذا أن ترتيبات الملكية تعمل على خير وجه عندما يحقق الناس توافقاً في الرأي حول ملكية الأصول والقواعد التي تحكم استخدامها وتبادلها وهي خارج الغرب، تسود العقود الاجتماعية غير القانونية لسبب قوى فقد استطاعت أن تستند على محور الفصل من القانون الرسمي على توافق فعلي في الرأي بين الناس بشأن كيف يتعين حكم الأصول التي يملكونها وأي محاولة لإقامة نظام موحد للملكية لا يراعى العقود الجماعية التي تشكل أساس ترتيبات الملكية القائمة. ستتصادم مع نفس جذور الحقوق الذي يعتمد عليها معظم الناس لحياسة الأصول المملوكة لهم وتفشل الجهود المبذولة لإصلاح حقوق الملكية. لأن الموظفين المسؤولين عن وضع مشروعات القواعد القانونية الجديدة لا يدركون أن معظم مواطنيهم قد أقاموا بثبات قواعدهم الخاصة عن طريق العقد الاجتماعي

إن المفهوم القائل بأن العقود الاجتماعية تكمن وراء القوانين الناجحة يرجع إلى أفلاطون، الذي كان يعتقد أن المشروعية يجب أن تقوم على نوع ما من العقد الاجتماعي وحتى إيمانويل كانط، كتب في بياناته المعارضة للوك، أنه يجب أن يسبق أي عقد اجتماعي، الملكية الحقيقية، وأن كل حقوق الملكية تنبع من الاعتراف الاجتماعي بمشروعية الحق المدعى به ولا تقتضي مشروعية حق ما بالضرورة، أن يحدده القانون الرسمي، ذلك أن تأييد مجموعة من الناس لاتفاق معين بقوة كاف للتمسك به باعتباره حقاً والدفاع عنه في مواحه القانون الرسمي

وهذا هو السبب في أن قانون الملكية وسندات الملكية المفروصين دون استناد إلى العقود الاجتماعية القائمة يفشلان على الدوام مهما يفتقران إلى المشروعية ولكي يكتسما المشروعية، ينبغي أن يرتبطا بالعقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون التي تحدد حقوق الملكية القائمة بالطبع، فإن المشكلة

تتمثل في أن هذه العقود الاجتماعية مبعثرة خلال مئات الاختصاصات القضائية غير القانونية في القرى المتفرقة وفي المحاورات في المدن والطريقة النظامية الوحيدة لإدماج هذه العقود الاجتماعية في نظام رسمي للملكية هي إقامة هيكل قانوني وسياسي، جسر إن أردت، راسخ جيداً في الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون للناس، والتي يسعددهم أن يمضوا من خلالها للانضمام إلى هذا العقد الاجتماعي الرسمي الجديد الشامل لكل شيء. ولكن ينبغي أن يكون هذا الجسر جَدَّ متين حتى لا ينهار ويجعل الجميع يفرون مذعورين عائدين إلى الترتيبات غير القانونية، وأن يكون جسراً عريضاً على نحو يحول دون سقوط أي شخص من عليه تلك هي الطريقة التي حقق بها الغرب ذلك، عبر مئات السنين. ويزكرنا هارولد بيرمان بمايلي

لم يكن إضفاء طابع النظام على القانون في مجتمعات كثيرة ممكناً إلا لأنه كان قد سبق تطوير هيكل غير رسمي للعلاقات القانونية في هذه المجتمعات. لقد نشأت التقاليد القانونية الغربية - في الماكن - عن هيكل من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المتبادلة داخل وفيما بين المجموعات في أرض الواقع واكتسبت الأنماط السلوكية للعلاقة المتبادلة أبعاداً معيارية تحولت العادات إلى أعراف والأعراف إلى قانون<sup>(٨)</sup>

وكان بناء جسر قانوني وسياسي من العقود الاجتماعية المبعثرة «في أرض الواقع» إلى قانون وطني واحد هو ما فعله يوجين هيوبر في سويسرا في منتصف القرن العشرين. فقد طوَّع هيوبر المبادئ الرومانية في القانون التشريعي السويسري لتلائم الأعراف، والقواعد، وأنواع السلوك المتفرقة في كل أنحاء المدن والبلدات والمزارع في بلاده. وجمع معاً كل الاتفاقات والأعراف الخاصة بالملكية في مدونة قانون واحد تكفل حقوق والتزامات الناس، اتساقاً مع القواعد المحلية التي اعتادوها وكان هيوبر يحب الاستشهاد بمثل ألماني قديم، تعني ترجمته بتصريف «ينبغي أن يأتي القانون من فم الناس». وقد أبدى القانون الأمريكي مثلاً رأينا في الفصل الخامس،

نفس الاحترام للعقود الاجتماعية القائمة ولم يكن مصدر قوته متمثلاً في تماسك النظرى أو المهنى، وإنما فى فائدته فى أيدي السلطات التى كانت تريد تحويل الأصول غير النامية إلى أصول منتجة

ولم يتحقق الانتقال من العلاقات غير القانونية إلى الملكية الرسمية الموحدة فى البلدان المتقدمة من فراغ ذلك أن خلق طابع النظام على القوانين التى تقوم عليها نظم حقوق الملكية الحديثة لم يكن ممكناً إلا لأن السلطات سمحت للعلاقات غير القانونية الموجودة سلفاً بين مجموعات الناس على أرض الواقع، بأن تنسخ أحياناً القوانين الرسمية لقد كتب ميرمان يقول إن «القانون ينمو صاعداً لأعلى من هياكل وأعراف المجتمع كله، وهو يتحرك نازلاً لأسفل من السياسات والقيم الخاصة بحكام المجتمع إن القانون يساعد على تحقيق التكامل بين الاثنين»<sup>(٩)</sup>

وبترسيخ جذور قانون الملكية الرسمية فى العقود الاجتماعية التى كان الناس ملتزمين بها بالفعل، حققت حكومات الغرب قبولاً شعبياً واسعاً كان مطلوباً للتغلب على أى مقاومة وكانت النتيجة هى قيام نظام قانونى واحد للملكية ومع تحقق ذلك، استطاعت أن تشرع فى دمج الاتفاقات والأعراف المتناثرة فى عقد اجتماعى وطنى واحد وحيث كان مالك المنزل وجيرانه وحدهما من قبل هم الذين يستطيعون تأكيد ما إذا كان المنزل يخصه أم لا، فإنه مع قيام الملكية الرسمية، أصبح البلد بأسره يعرف أنه المالك ذلك أن سندات الملكية الرسمية أتاحت للناس نقل ثمار عملهم من دائرة ضيقة من الاعتراف بها إلى دائرة الاعتراف بها فى سوق متوسعة وهكذا أرسى الدول الغربية الأساس لمحة الطاقة التى تحرك سوقاً حديثة ونظاماً رأسمالياً

لقد جعل نقل الاعتراف بالملكية من الترتيمات المحلية إلى نظام أكبر من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، الحياة وإدارة الأعمال أسهل كثيراً فلم يعد الناس فى حاجة للاعتماد على المداينة والمرابطة الضيقة المرهقة لحماية حقوقهم فى ملكية الأصول لقد حررتهم الملكية الرسمية من الترتيبات المحلية التى تستهلك وقتاً طويلاً واللصيقة بالمختمات المغلقة وأصبحوا حينذاك

قادرين على السيطرة على الأصول المملوكة لهم. بل الأفضل من ذلك، أنهم استطاعوا بما توافر بين أيديهم من وثائق تمثيل كافية للملكية، أن يركزوا على الإمكانات الاقتصادية الكامنة للأصول التي يملكونها ونظرا لأنه أصبح من السهل حينذاك تعيين موقع عقارات الملاك ومشروعاتهم، وأصبح في الإمكان تحديدها على النطاق القومي، فقد الملاك طابعهم المجهول وأصبحوا خاضعين للمساءلة وتدرجيا، هيأت آليات الملكية القانونية هذه، المسرح لقيام أسواق متوسعة وخلق رأس المال على نحو يتضمن عددا ضخما من القوى الفاعلة

### متانة العقود الاجتماعية فيما قبل الرأسمالية

هل تعد العقود الاجتماعية غير القانونية السائدة حاليا في البلدان النامية أساسا متينا على نحو كاف لخلق قانون رسمي؟ لاشك في ذلك فهناك حشد هائل من الأدلة على أن موظفي الحكومة يمثلون ضمننا وعلائية للعقود الاجتماعية غير القانونية عندما يعملون في قطاع يشكر عدم كفاية رأس المال وتشير تقارير المنظمات المانحة الدولية باستمرار، وإن كان بشكل غير مباشر، إلى الاتفاقات والأعراف التي لا تتمتع بحماية القانون كيف استطاعت الحكومات تنفيذ برامج للتجديد الزراعي والحضري في الأقسام الأشد فقرا من بلدانها، بدون التوصل لاتفاق مع المنظمات التي لا تتمتع بحماية القانون المستفيدة؟ وحقيقة أن الحكومات والمنظمات المالية الدولية استطاعت مساعدة مستوطنات وضع اليد على الاستعادة من الخدمات العامة (الطرق، والكهرباء، والمياه، والمدارس)، في تحد لقانون الملكية، هي اعتراف ضمنى بترتيبات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون ومثلما لاحظ روبرت كوتر وتوماس يول، فإن «شروط [حقوق الملكية] تكون عادة أكثر كفاءة عندما يتفق الناس عليها، منها عندما يفرضها واضعو القوانين»<sup>(١٠)</sup>.

إن العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون تعتمد على توليفة من الأعراف والاتصال بما يناسب حالات محددة، والقواعد المستعارة بصورة

انتقائية من النظام القابوي الرسمي وفي ظل الافتقار إلى حماية قانونية من الدولة في معظم البلدان النامية، فإن القامون غير القانوني هو الذي ينظم الأصول الملوكة لعظم المواطنين وقد يبدو هذا متناقضاً أو حتى هداماً بالنسبة للقارئ الغربي الذي يؤمن بقانون واحد ينبغي إطاعته لكن تجربتي في زيارة عشرات من البلدان النامية والعمل فيها، أوضحت لي أن القوانين القانونية وغير القانونية تتعايش فيها جميعاً ومثلما أوضحت مرجريت جروتر ببلاغة.

إن القامون ليس مجرد مجموعة من القواعد المنطوقة والمكتوبة أو التي أضفى عليها طابعاً رسمياً، والتي يتبعها الناس وهم مغمضى الأعين بل إن القانون يمثل إصفاء الطابع الرسمي على القواعد السلوكية، التي توافق عليها نسبة عالية من السكان، والتي تعكس المروج السلوكي، وتتيح مبالغ محتملة لمن يلتزمون بها (عندما لايعترف الناس بهذه المبالغ المحتملة أو لا يؤمنون بها، يتم عادة تجاهل القوانين أو عصيانها)<sup>(١١)</sup>

وقد لاحظ باحث قانوني آخر أنه في الغرب «ليست القاعدة التأسيسية هي الاعتماد الحديث على الحكومة في وضع القانون وإقامة النظام»<sup>(١٢)</sup> ولا شيء جديد في وجود قوانين متباينة داخل البلد الواحد فقد حكمت التعددية القانونية قارة أوروبا حتى أعيد اكتشاف القانون الروماني في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ودمج كل تيارات القانون تدريجياً في نظام واحد منسق ومن ثم ينبغي ألا يدهشنا أن نعرف أن النشاط غير القابوي في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة نادراً ما يكون مصادمة واتفاقاً ففي خلال إصدار سندات الملكية الرسمية لمئات الآلاف من ملاك المنازل ومشروعات الأعمال في بيرو، لم تصانف منطعتي مطلقاً مجموعة غير قانونية لم تمتثل لكل القواعد المقررة بتوافق الآراء والمحددة جيداً وحيثما زرنا منطقة تشكو من عدم كفاية رأس المال، سواء في آسيا أو أمريكا أو الشرق الأوسط، لم نجد مطلقاً مراغاً وبرارياً لنخضل فيها وعن طريق الملاحظة الدقيقة، استطعنا دوماً التمييز بين انماط القواعد لقد وجدنا ذلك في أسوأ الحالات، حديقة مهمة. وليس أدغالاً

ومثل أسلافها في الغرب، ولدت القطاعات التي تشكو من عدم كفاية رأس المال في بلدان العالم الثالث والبلدان الشيوعية السابقة بصورة تلقائية السلالات الخاصة بها من قواعد الملكية ولحماية حقوق الملكية الأولية بها من الآخرين، اضطرت إلى أن تشكل فيما بينها المؤسسات التي لا تتمتع بحماية القانون الخاصة بها تذكر أن عقلك وحده ليس هو الذي يمنحك حقوقاً حصرية على أصل معين، بل العقول الأخرى أيضاً التي تفكر في حقوقك بنفس الطريقة التي تفكر بها أنت وتحتاج هذه العقول بصورة حيوية إلى بعضها البعض لحماية أصولها والسيطرة عليها إضافة لذلك، فإن الناس يتعين عليهم أن يجعلوا عقودهم الاجتماعية أقوى حتى من القانون الرسمي لدرح المعتبرين، خاصة الحكومة وأي شخص يشك في قوة العقود الاجتماعية ليس عليه إلا أن يطعن على بعض هذه الحقوق غير القانونية وسيجد أن المقاومة ضارية

لقد أصبحت الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون واسعة الانتشار على نحو يدعو للدهشة خلال السنوات الأربعين الماضية إن التقارير الواردة عن «التكاثر السريع للقطاع غير القانوني» تبدو أمراً مألوفاً مثل أهداف كرة القدم في الصحف في كل مدينة في العالم الثالث من الناحية العملية والسبب هو أن القانون الرسمي لم يستطع أن يتسع للترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون المتكاثرة سريعاً ففي مجال العقارات مثلاً، لم تنشأ العقود الاجتماعية غير القانونية من وضع اليد صراحة على الأملاك من قبل المهاجرين محسب، وإنما أيضاً من عدم كفاية برامج الإسكان وبرامج الإصلاح الزراعي والحضري، والتهجير التدريجي في برامج تحديد الإيجار، والشراء أو التأجير غير القانوني للأراضي للسكنى وللأغراض الصناعية وقد سهلت قوى ناشطة إبرام معظم العقود الاجتماعية «سماسرة العقارات» الذين تحركهم دوافع تجارية أو سياسية أو دينية، والذين إما أن لديهم شيئاً يكسبونه من هذه المعاملات أو أنصاراً يحموهم والقاسم المشترك بين عملاتهم هو أنهم لا يستطيعون دفع تكاليف الحصول على الملكية بصورة قانونية، وفي بعض البلدان التي زرتها، تعين أفرع من القوات المسلحة ضباطاً عسكريين للحصول على العقارات بصورة غير قانونية باعتبارها أحياناً سكنية لضباط الصف



مما يدعو للدهشة بدرجة أكبر، أنني رأيت سلطات بلدية مسؤولة عن إصدار سندات الملكية العقارية وعمليات التسجيل، تنظم وضع اليد غير الرسمي بهدف تزويد أعضاء نقاباتها بأرض جيدة لإقامة بيوت فيها وقد أنشأ مستوطنة كبيرة أقيمت بوضع اليد قمت بزيارتها مؤخراً، مجلس المدينة نفسه، لتوفير بيوت لنحو ٧ آلاف أسرة من موظفي الحكومة وفي بلد آخر، تحررت صحيفة محلية أغرتها الأدلة التي جمعناها عن الحيازات العقارية الشاسعة التي لا تحظى بحماية القانون، لمعرفة ما إذا كان المسكن الرسمي لرئيس الدولة له سند ملكية مسجل ولم يكن له ذلك وأطلقت الصحيفة نكتة تقول إن قوانين البلاد تصدر من مكان لا يتمتع بحماية القانون

وبمجرد إنشاء الحقوق في الأرض بصورة لا تتمتع بحماية القانون، يقيم المعنيون بذلك المؤسسات اللازمة لإدارة العقد الاجتماعي الذي شادوه إذ تجتمع المنظمات غير الرسمية لمشروعات الأعمال والإسكان بصورة منتظمة، وتتخذ القرارات، وتحصل على الاستثمار في البنية الأساسية وتشرف عليه، وتتابع الإجراءات الإدارية، وتصدر أوراق الاعتماد وعلى نحو نموذجي، يكون لها مقر رئيسي يمكن العثور فيه على الخرائط ودفاتر الأستاذ اليدوية الخاصة بسجلات الملكية والسمة الأكثر لفتاً للنظر في هذه المؤسسات في كل أنحاء العالم هي رغبتها في التكامل مع القطاع الرسمي ففي المناطق الحضرية، تتطور المباني ومشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون على مرّ الزمن حتى يصعب تمييزها عن الملكية القانونية بصورة تامة وهي جميع البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة التي زرتها، هناك جبهة طويلة تعصل ما يتمتع بحماية القانون عما لا يتمتع بها وعلى امتدادها، هناك نقاط تفتيش حيث تتصل المنظمات التي لا تتمتع بحماية القانون بالمسؤولين الحكوميين: إذ تجاهد الأولى لاكتساب القبول الرسمي، ويحاول الآخرون تحقيق ما يشبه النظام<sup>(١٣)</sup> وعادة، يتعين على المنظمات التي لا تتمتع بحماية القانون أن تقطع شوطاً طويلاً للتعايش مع بعض طبقات الحكومة، ربما على المستويين البلدي والمحلي وتحاول معظم المجموعات أن تتفاوض للحصول على مكنن قانوني لحماية حقوقها، في حين يصل آخرون بالفعل إلى نوع ما من الاتفاق يثبت

وضعهم خارج قانون التيار الرئيسي وهناك إيماء أخرى تشير إلى حقيقة أن الذين لا يتمتعون بحماية القانون يريدون أن يحتسبوا بالقانون من الفوائل، هي، إن القادة الملتزمين والديبلوماسيين الذين يختارونهم للتفاوض نيابة عنهم، نادرا ما يتفقون مع ممثلي زعماء الشوارع

### الإصغاء للكلاب التي تنبح

ربما كان معظم حكومات البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة مستعدا للتسليم بأن السبب في أن القطاعات التي لا تتمتع بحماية القانون بها تنمو بصورة أسية لا يرجع إلى أن الناس تخلو فجأة عن احترامهم للقانون، وإنما يرجع إلى أنه ليس أمامهم من بديل لحماية ملكيتهم وكسب وسائل رزقهم غير ذلك وبمجرد أن تعترف الحكومات بحقيقة الحياة الحديثة هذه، يتعين عليها أن تبرم صفقة وعلى الرغم من أن الذين لا يتمتعون بحماية القانون متأهبون بالفعل لعبور الجسر للوصول إلى الاعتراف القانوني بهم، فإنهم لن يفعلوا ذلك إلا إذا جعلت حكوماتهم هذه الرحلة سهلة وأمنة ورخيصة. إن ملاك الأصول في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون منظمون بصورة جيدة نسبيا بالفعل كما أنهم «ملتزمون بالقانون»، رغم أن القوانين التي يلتزمون بها ليست قوانين الحكومة ويقع على الحكومة أن تتوصل إلى ماهية هذه الترتيبات التي لا تتمتع بحماية القانون، ثم أن تجد الطرق اللازمة لإدماجها في نظام الملكية الرسمي. ولكنها لن تستطيع القيام بذلك باكتراء رجال القانون في المكاتب الموجودة في العمارات العالية هي نهى وجاهارتا وموسكو لوضع مشاريع قوانين جديدة وإنما عليها أن تخرج للشوارع والطرق وأن تصفى للكلاب التي تنبح

إن القانون السائد حاليا في الغرب لم يات من المجلات المغطاة بالغبار أو من كتب الحكومة الرسمية عن النظام الأساسي إنه كائن حي، ولد في العالم الحقيقي ورعاه الناس العاديون قبل أن يقع في أيدي رجال القانون المحترفين بزمان طويل إذ يتعين اكتشاف القانون قبل إصغاء طابع النظام عليه ومثلما يذكرنا الباحث القانوني برونو ليونتي، فقد

تقاسم الرومان والإنجليز فكرة أن القانون هو شيء يتبع اكتشافه أكثر مما يتبع سنّه، وأنه ليس هناك أحدًا قوى في مجتمعه بدرجة تجعله في وضع يمكنه من جعل إرادته هي قانون البلاد. وقد عهد بمهمة «اكتشاف القانون في البلدين إلى مشورة الفقهاء والقضاة على التوالي. وهما فئتان من الناس مماثلتان للحبراء العلميين الحاليين، على الأقل لحد ما»<sup>(١٤)</sup>

وه اكتشاف القانون، هو على وجه التحديد ما كنا نفعله - أنا وزملائي - في بلدان محتلة خلال الخمسة عشر عاما الماضية، كخطوة أولى تجاه مساعدة الحكومات في البلدان النامية على إقامة نظم رسمية للملكية تشمل الناس جميعا. وعندما تنحى جانبا قوائم هوليرود النمطية عن أهل العالم الثالث والشيوعيين الساقطين باعتبارهم تشكيلة متنافرة من الباعة الجائلين، ورجال حرب العصابات ذوي الشوارب، والعصابات السلافية، ستجد فروقا قليلة بين ثقافات الغرب وثقافات الأماكن الأخرى فيما يتعلق بحماية الأصول والقيام بالأعمال. وقد أصبحت مقتنعا بعد سنوات من دراسة الأوضاع في بلدان كثيرة، أن معظم العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون عن الملكية متشابهة بصورة أساسية مع العقود الاجتماعية الوطنية في البلدان الغربية. فكلها ينزع إلى احتواء بعض القواعد الضمنية أو الصريحة عن من يملك الحق في ماذا، وحدود هذه الحقوق والمعاملات، كما تشعلمان احكاما لتسجيل ملكية الأصول، وإجراءات لإنفاذ حقوق وإدعاءات الملكية، ورموزا لتعيين أين تقع الحدود، وقواعد تحكم المعاملات، ومعايير لتقرير ما العمل الذي يتعين التصريح به، وما يمكن القيام به بدون تصريح، ومبادئ توجيهية لتحديد أي وثائق للتمثيل هي السليمة، وأدوات لتشجيع الناس على الوفاء بالعقود واحترام القانون، ومعايير لتحديد درجة إعفал الهوية المصرح به في كل معاملة

لذلك، فإنه من العدل افتراض أن الناس مستعدون للتفكير في حقوق الملكية بطرق متشابهة جدا. ويبدو أن يمثل ذلك مفاجأة كبيرة؛ فالاتفاقات التي يقرها الناس تنتشر على الدوام قياس التمثيل من مكان لآخر بصورة تلقائية وبالإضافة لذلك، فإن الهجرات الحاشدة في الأربعين سنة الماضية، ناهيك عن الثورة في الاتصالات على النطاق العالمي، تعني أننا نتقاسم مريدا ومزيدا من

القيم والطموحات (فسكان العالم الثالث يشاهدون التلفزيون هم ايضاً، كما يذهبون للسينما، ويستخدمون التليفونات، ويرعون في أن يحصل اسازهم على تعليم جيد ويصبحوا متعلمين في مجال الكمبيوتر) ومن المحتم أن تكون العقود الاجتماعية غير القانونية الفردية في نفس البلد متماثلة أكثر منها متباينة<sup>(١٥)</sup>

والمشكلة في العقود الاجتماعية غير القانونية هي أن تمثيلها للملكية لم يقن بما يكفي، ولم يصبح [منقولاً وقائلاً للاستبدال] على نحو يجعل له دائرة واسعة من الاستخدامات خارج محيطه الجغرافي الخاص. إن أنظمة الملكية غير القانونية أنظمة مستقرة وهادئة بالنسبة لمن يشكلون جزءاً من المجموعة، لكنها تعمل على مستوى أدنى من النظام وليس لها تمثيل يتيح لها التفاعل بسهولة فيما بينها. ومرة ثانية، فإن هذا يشبه ماضى الغرب عندما لم تكن سندات الملكية الرسمية موجودة فليل القرن الخامس عشر في أوروبا مثلاً، لم يكن معظم القواعد الرسمية الخاص بكيف يجب أن تتم المعاملات المتعلقة بالملكية، مسجلاً ومعروفاً إلا من خلال التقاليد الشفهية، حتى على الرغم من أن بعض السجلات المتفرقة قد وجدت في بعض أنحاء ما يشكل ألمانيا حالياً

ويرى كثيرون هذه الشعائر والرموز باعتبارها أسلاف سندات الملكية الرسمية والأسهم والسجلات الحالية. وحسبما قال فيلسوف ومؤرخ القرن الثامن عشر البريطاني ديفيد هيوم، فإنه في أجزاء معينة من أوروبا في عصره، كان ملاك الأرض يتبادلون الأحجار والثرى فيما بينهم للاحتفال بذكرى تبادل الأراضي وكان المزارعون يرمزون لببيع القمح بتسليم مفتاح المخزن الذي وضع فيه وكانت المخطوطات المكتوبة على الرقّ والتي تشهد على معاملات الملكية في الأراضي يتم ضغطها على الأرض كشعيرة ترمز للاتفاق وبالمثل، فقد نص القانون الروماني قلد قيام الإمبراطورية الرومانية بقرون، على أنه يتعين نقل العشب والعروع من يد ليد لترمز للانتقال القانوني لحقوق الملكية وكان لدى اليابانيين أيضاً، شعائريهم لإثبات المعاملات؛ فعلى سبيل

المثال، كان ملاك الأراضي في منطقة جوما كودزوك، خلال فترة توكوجاوا من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، عندما كان القانون يحظر بيع الأراضي الزراعية، يملكون ملكية أصولهم على أية حال، ويثبتون هذه الصفقات التي لا تتمتع بحماية القانون في وثائق مكتوبة يختمها أقارب البائع وزعيم القرية

وتم تدريجيا جمع الوثائق المكتوبة في سجلات محلية واستغرق الأمر وقتا قبل أن توضع الوثائق التمثيلية هذه في شكل دفتر ولكن لم يتم تنسيق سجلات الملكية المختلفة هذه والعقود الاجتماعية التي تحكمها، ولم يجر جمعها معا لإنشاء نظم رسمية متكاملة للملكية مثل تلك المتوافرة للغرب حاليا، إلا خلال القرن التاسع عشر فقط

إن البلدان الشيوعية السابقة وبلدان العالم الثالث تقف على وجه الدقة حيث كانت تقف أوروبا واليابان والولايات المتحدة قبل مائتي عام مضت ويتعين عليها مثل الغرب أن تحدد وتجمع ووثائق تمثيل الملكية القائمة المبعثرة في كل أنحاء بلدانها، ودمجها في نظام متكامل واحد لجعل الأصول المملوكة لكل مواطنيها [منفولة وقابلة للاستبدال]، وإنشاء الجهاز البيروقراطي والشبكة البيروقراطية المطلوبين لإنتاج رأس المال

### حل شفرة القانون غير القانوني

عندما واجهنا - أنا ورملائي - للمرة الأولى مهمة إمماج ترتيبات الملكية قبل الرأسمالية في نظام رسمي رأسمالي للملكية، كان الغرب هو ملهمنا ولكن عندما شرعنا في البحث عن المعلومات المتعلقة بكيفية إمماج البلدان المتقدمة ترتيباتها التي لا تتمتع بحماية القانون في القانون، لم نجد محطلا أصيلا نستند إليه ولسوء الحظ، فإن الوثائق قليلة عن كيفية حدوث البلدان العربية فئات البراهين غير القانونية للملكية التي تشكل القاسم المشترك لنظام الملكية الرسمي المعياري ويشرح جون باين الوصف الذي كان قائما في إنجلترا

من الواضح أن المهرمان الرسمي على سند الملكية باعتباره جزءاً من المعاملات التجارية على الأرض، هو تطور حديث في القانون الإنجليزي، ولكن المعلومات الرامّة كانت جدّ شحيحة بما يجعل مثل هذا الفرص تجريبياً فحسب، ومما يشكّل مصدراً للسخط بالنسبة للمؤرخين أنه في حين تم تأريخ الأحداث الكبرى بالتفصيل، فإنه نادراً ما يشعر الناس بأنه من الضروري تدوين تسجيل للأنشطة المألوفة اليومية التي يحرطون فيها، فسيبدو القيام بذلك أمراً غير ضروري وتافهاً. لأنه لا أحد يريد تذكيره بما هو واضح وبالتالي فإن كل ما يعتبره المرء أمراً مسلماً به في عصر ما، يصبح مجهولاً في عصر ثال، وتتطلب إعادة تشكيل الإجراءات العادية تجميعاً مرهقاً للمصادر التي تركت لفرض مختلف تماماً ويصدق هذا على وجه التأكيد بالنسبة إلى ممارسات مجرري وثائق نقل الملكية لأن حتى لقرون [التاسع عشر] لم يكن لدينا سوى معرفة محدودة بكيف كانوا يقومون عملياً بعملهم<sup>(١٦)</sup>

وإهداء بالسجلات التاريخية القليلة التي استطعنا الوصول إليها، ويسد الثغرات ببحوثنا التجريبية التي أجريناها، طويلاً طريقنا خلال العوالم غير القانونية، وتعلمنا في النهاية كيفية التوصل إلى العقود الاجتماعية التي تشكل أساس حقوق الملكية هناك واكتشاف هذه الترتيبات لا يشبه البحث عن أدلة الملكية في نظام قانوني رسمي، حيث تستطيع الاعتماد على نظام إمساك السجلات الذي انشأ على مرّ السنين مساراً ورقياً، «سلسلة سنوات التملك» التي تتيح لك البحث عن الأصل وسلسلة سندات التملك عامضة، في أحسن الأحوال، بالنسبة للغريب، في القطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال فالقطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال ليس لديه، ضمن أشياء أخرى، بيروقراطية مركزية للتسجيل والتتبع، وهي لبّ المجتمع الرسمي وما يتوافر للناس في القطاع الذي يشكو من عدم كفاية رأس المال، هو تفاهات قوية وواضحة وتفصيلية فيما بينهم عن يملك ماذا

ومن ثم، فإن الطريق الوحيد للتوصل إلى العقد الاجتماعي التي لا يتمتع بحماية القانون الخاص بالملكية في منطقة محددة، هو الاتصال بمن يعيشون بموجبهم ويعملون وإذا كانت الملكية مثل شجرة، فإن نظام الملكية الرسمي متسلسل زمنياً، بمعنى أنه يتبع لك تعقب أصول كل ورقة للوراء إلى وقت

ظهور الغصين والفرع والحدع وأخيرا الجذور أما النهج الذى يتبع تجاه بحث الملكية غير القانونية، فلا بد أن يكون ترامنيا. فالطريقة الوحيدة التى يستطيع بها غريب أن يحدد أى الحقوق تخص من، هي عن طريق أخذ شرائع من الشجرة بروايا قائمة، وصولا إلى الجذع لتحديد حالة كل فرع وورقة بالسسية لما يجاورها

ويتطلب الحصول على معلومات متزامنة عملا ميدانيا الذهاب مباشرة إلى تلك المناطق التى لا يتم فيها تسجيل الملكية رسميا (أو تسجل بصورة سيئة) والاتصال بالسلطات القاموسية وغير القانونية المحلية، للتوصل إلى ماهية ترتيبات الملكية وليس هذا بمثل الصعوبة التى يبدو عليها وعلى الرغم من أن التقاليد الشفوية قد تسود فى المناطق النائية الريفية فى بعض البلدان، فإن معظم الناس فى القطاع الحضرى الذى يشكو من عدم كفاية رأس المال توصلوا إلى طرق لتمثيل ملكيتهم فى شكل مكتوب حسب القواعد التى يلتزمون بها، والتى تكون الحكومة، عند مستوى ما، مضطرة لقبولها

ففى هاييتى مثلا، لم يكن أحد يعتقد أننا سنجد وثائق تثبت تمثيل حقوق الملكية. إن هاييتى من أفقر بلدان العالم: ٥٥ فى المائة من سكانها أميون ومع ذلك، بعد مسح واسع فى مناطق هاييتى الحضرية، لم نجد أرضا غير قانونية واحدة، ولا كوخا أو مبنى، لايتوافر لمالكه وثيقة واحدة على الأقل يدافع بها عن حقه - حتى «حقوقه بوضع اليد» (انظر الشكل (٦ - ٢) بالنسبة لمجموعة مختارة من سندات الملكية غير الرسمية فى هاييتى) وفى كل مكان زرنانه من العالم، كان لدى معظم الملاك غير الرسميين شىء مادى ما من صنع الإنسان يمثل ويجسد حقه المدعى به فى الملكية وعلى أساس هذا التمثيل غير القانونى، وكذلك السجلات واللقاءات، استطعنا فى كل مكان أن نستخلص العقود الاجتماعية التى تشكل أساس الملكية

وعلى الرغم من أن المصادر غير القانونية للمعلومات اللازمة لتحديد اتفاقات الملكية مهمة، فهناك أيضا مصادر رسمية وقانونية ونادرا ما يعى السياسسيون على مستوى القمة المدى الذى يرتبط به الناس عند المستويات





الإدارية الأدنى للحكم باستمرار بالقطاع غير الرسمي ويتعين على السلطات البلدية، والمخططين الحضريين، ومسؤولي الصرف الصحي، ورجال الشرطة، وكثيرين غيرهم أن يضعوا تقييماً رسمية لدى عدم قانونية المستوطنات غير الرسمية، أو مجموعات مشروعات الأعمال الجديدة غير الرسمية التي تنمو سريعاً باستمرار في جميع المناطق لقد تعلمنا كيفية قراءة الوثائق الرسمية لاكتشاف المناطق التي تسودها العقود الاجتماعية التي لا تتمتع بحماية القانون

وبمجرد أن تعرف الحكومات أين تبحث عن التمثيل غير القانوني وتضع يدها عليه، فإنها تجد الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى العقد الاجتماعي إن التمثيل ينشأ نتيجة لوجود مجموعة محددة من الناس توصلوا إلى توافق للآراء يحترمونه حول من يملك ماذا، وما الذي يستطيع كل مالك أن يفعله بملكه ولا تتطلب قراءة التمثيل نفسه واستخلاص معناه، الحصول على شهادة في علم الآثار القديمة. وهو لا يتضمن شفرات غامضة ينهض عليها. لقد كتب الناس ذوى المقاصد الأمنية والتي تشبه مقاصد رجال الأعمال هذه الوثائق؛ ليوضحوا بصورة مطلقة لكل المعنيين الحقوق التي يدعونها على أصول محددة يسيطرون عليها إنهم يريدون إبلاغ مشروعية حقوقهم، وهم مستعدون لتقديم أكبر قدر ممكن من الأدلة المؤيدة لذلك ووثائق تمثيل ملكيتهم ليس بها شيء تخفي، فقد قصد بها التعريف بماهيتها وليس هذا واضحاً على هذا النحو على الدوام؛ لأنه للأسف، عندما نتعامل مع الفقراء ننحو إلى الخلط بين الافتقار إلى مرفق مركزي لإمساك الدفاتر وبين الجهل ومثلما خلص جون ب. يارولسون محق في «قصة الأرض» The Story of Land، فإنه حتى في المناطق الريفية البدائية من البلدان النامية، كان الناس أنفسهم هم أشد المدافعين عن أنفسهم، واستطاعوا دائماً تمثيل أنفسهم بذكاء.<sup>(١٧)</sup>

وعندما تحصل الحكومات على الأدلة الوثائقية للتمثيل، فإنها تستطيع عندئذ أن «تفككها» لتحديد المبادئ والقواعد التي تشكّل العقد الاجتماعي الذي يبقى عليها وبمجرد أن يفعل دعاة الإصلاح ذلك، ستتوأم لهم كل

الأجزاء الرئيسية المهمة للقانون غير القانوني وتصبح المهمة التالية هي تقنيها - تنظيمها في نظام أساسي رسمي مؤقت؛ حتى يمكن فحصها ومقارنتها بالقانون الرسمي القائم وتقنين النظم الفضافاصة ليس مشكلة هو أيضا والواقع، أنه لا يختلف كثيرا عن الإجراءات الحكومية لتوحيد النصوص القانونية داخل البلدان (مثل القانون التجاري الأمريكي الموحد) أو بين البلدان على مستوى دولي (مثل كثير من القوانين الملزمة المتكاملة التي وضعها الاتحاد الأوروبي أو منظمة التجارة العالمية) ويستطيع قادة الحكومات عن طريق مقارنة القوانين القانونية بالقوانين غير القانونية تبين الكيفية التي يتعين بها تعديل كل منهما ليتلاهما معا، وبعد ذلك يتم وضع إطار تنظيمي للملكية - الأساسى الوعيد للقانون بالنسبة لكل المواطنين - والذي يعد بصورة أصيلة مشروعاً ويقبل التنفيذ ذاتياً، لأنه يعكس الواقع القانوني وغير القانوني على حد سواء. وذلك هو الطريق الذي تتصدى به البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة للتحدي القانوني، وكان ذلك في الأساس هو الكيفية التي تم بها وضع القانون الغربي بالتخلي تدريجياً عما هو غير مفيد وغير قابل للتطبيق واستيعاب ما يجدي

وإذا كان كل هذا يبدو كمغامرة انثروبولوجية أكثر منه أساساً للإصلاح القانوني، فإن ذلك يرجع إلى أن المعارف عن الفقهاء كان يحتكرها الأكاديميون والصحفيون والنشطاء الذين تحركهم الأهواء أو الفضول الفكرى وليس حقائق الإصلاح القانوني ومقتضياته أين كان رجال القانون؟ لماذا لم يلقوا نظرة فاحصة مدققة على القانون والنظام اللذين انتجتهما الشعب الذى ينتميان إليه؟ الحقيقة أن رجال القانون هي هذه البلدان جدّ مشغولين بدراسة القانون الغربي وتطويبه لقد درسوا أن الممارسات المحلية ليست القانون الأصل، وإنما هي مجال رومانسى للدراسة يحسن تركه للمتخصصين فى الفولكلور ولكن إذا أراد رجال القانون أن يلعبوا دوراً فى وضع القوانين الجيدة، يجب أن يخرجوا من مكاتهم إلى القطاع غير القانوني، وهو المصدر الوحيد للمعلومات التي يحتاجونها لإقامة نظم قانونية رسمية مشروعة حقاً وبدراسة

«قانون الشعب» هذا وفهم منطقته، يستطيع دعاة الإصلاح إبراك ما يحتاجونه لوضع نظام قانونى ذاتى التنفيذ وعندما تفعل الحكومات ذلك، ستلمس بالمعنى الحرفى العقد الاجتماعى إذ ستتوافر لها المعلومات المطلوبة لإدماج الفقراء وممتلكاتهم فى إطار قانونى، حتى يستطيعوا فى النهاية أن يبدأوا فى أن تكون لهم مصلحة فى النظام الراسمالى ولكن تنفيذ الإصلاح القانونى يعنى العبث بالوضع القائم، مما يجعل منه مهمة سياسية كبيرة

### الجزء الثانى: التحدى السياسى

لم يخطط أحد التطور من النظم الإقطاعية ونظم الوقف الكنسى إلى نظم الملكية الحديثة التى توجد فى الغرب اليوم بيد أنه على طريق التطور الطويل نحو الحدائة، فى تلك المراحل من الرحلة التى شرع فيها دعاة الإصلاح فى تنفيذ برامج عامدة لجعل الملكية أسهل منالاً لدائرة أوسع من المواطنين، نصحت هذه البرامج بسبب دعم استراتيجيات سياسية أحسن التفكير فيها وهذا ما فعله توماس جيفرسون فى فيرجينيا فى نهاية القرن الثامن عشر، عندما زاد الطابع «المنقول للملكية وقابليتها للاستبدال»، بإلغاء ممارسة حبس الممتلكات (عدم القدرة على نقل الملكية خارج الأسرة)، إلى جانب أشياء أخرى وعندما هيا شتاين وهاردنبيرج المسرح لحقوق ملكية شاملة فى ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر، وعندما بدأ يوجين هيوبر فى سويسرا فى بداية القرن العشرين، فى إدماج كل نظم الملكية المعثرة فى بلاده، استخدموا بالمثل استراتيجيات جرى تخطيطها بحرص للعصف بثكنات الأمر الواقع وتاكدا من أنهما مسلحان بتشريع موجه بذلك يتبع للحكومة أن تشعل ثورات يدعمها الشعب وخالية من الدماء ولايمكن وقفها

لماذا تحتاج إلى استراتيجية سياسية حالياً؟ من يمكنه أن يقف ضد إلغاء الفصل العنصرى القانونى الجائر على محو ماد للعيان؟ الواقع أن قلة

ستعارض الحاجة إلى الإصلاح ولكن أقلية ضئيلة وقوية سيحدثها حدسها بأن الإصلاح قمين بإثارة الاضطرابات في المكامن التي تحتلها، وستقاوم في صمت ومكر وهناك أيضا مشكلة متصلة بذلك إن كثيرا من النظم الأساسية التي تشكل سدّا يحول بين أغلبية الناس وبين رأس المال، قد تحتوى أيضا على احكام لحماية المصالح الحيوية للمجموعات القوية إن فتح ابواب الرأسمالية أمام الفقراء لن يكون في مثل بساطة إطلاق بولدوزر خلال اكوام من القمامة إنه أكثر شيها بإعادة ترتيب الاف القروع والأغصان في عش سر صخم - بدون إثارة النسر وعلى الرغم من أن إعادة الترتيب هذه لن تفرض سوى إزعاج قليل على هذه الأقلية الضئيلة، بالمقارنة بالمخاطر التي ستتحقق على النطاق الوطني، والمترتبة على توصيل رأس المال إلى الفقراء، فلن يرى هذا المتأثرون بالتغيير ما لم تحرك الإصلاح مبادرة سياسية قوية لها رسالة تحتشد لمساندتها أعداد غفيرة

ومن الواضح، أن هذا عمل قوى فاعلة سياسية محنكة لديها الحقن اللازم لإعادة ترتيب عش النسر دون أن تخدشها مخالبه إنها الوحيدة التي في وضع يهيئ لها الجمع بين التغيير من أجل الأغلبية واستقرار الأقليات الحذرة في نفس الوقت ويتعين على استراتيجية رسملة الفقراء أن تحقق تكامل نظامين للملكية متناقضين فيما يبدو داخل نفس الكيان القانوني ولكي ينجح ذلك، يتعين على رئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء والذي لا يعد مجرد تكنوقراطي، أن يتولى المسؤولية ويحمل إضفاء الطابع الرسمي أحد اعمدة سياسة الحكم ذلك أنه عند أعلى مستوى سياسي فقط، يستطيع الإصلاح أن يحظى بدعم ساحق وأن يتغلب على القصور الداتى العنيد للوضع القائم والمستوى الأعلى من الحكم فقط هو الذى يستطيع منع البيروقراطية من التقاتل فيما بينها، ومنع الصراعات السياسية من أن تشل تقدم الإصلاح وعندما يشرع بلد ما في إحداث تغيير أساسى، سواء كان ذلك لتثبيت النقود، أو لحصصنة الهيئات الحكومية، أو لفتح المدارس لكل الاعراق، يتقدم رئيس الدولة لتولى المسؤولية هلاريب أن تحرير الفقراء يندرج ضمن مسؤوليات زعيم الأمة.

لقد علمنا التاريخ والخبرة الشخصية أنه لإحداث ثورة فى الملكية، يتعين على القائد أن يقوم بثلاثة أشياء محددة على الأقل تبنى منظور الفقراء، وتحييد واستمالة الصفوة، والتعامل مع البيروقراطيات القانونية والفنية التى تعتبر القيمَ حالياً على الناقوس الزجاجى

### تبنى منظور الفقراء

إن الجميع سيستفيدون من عوالة الرأس مالية داخل البلد، لكن أوضح وأكبر مستفيد هو الفقراء وإذا ضمن القائد وقوف الفقراء إلى جانب، فإن نيته فى الإصلاح تكسب نصف المعركة على الأقل وستجد أى معارضة أنه من المستحيل عليها التصدى لرئيس الدولة ومعظم الناس ولكن لكى ينتصر الرئيس، فإن عليه أن يجمع الحقائق اللازمة للدفاع عن قضيته ويتضمن ذلك القيام ببحوث أصيلة ذلك أن على دعاة الإصلاح أن يضعوا أقدامهم فى أحذية الفقراء ويمشوا فى شوارعهم إذ لا تتضمن الإحصاءات الرسمية المعلومات التى يحتاجونها ولا يمكن التعرف على الحقائق والأرقام إلا من خارج الناقوس الزجاجى

عندما بدأت دراسة إمكانية إتاحة الفرص للفقراء للحصول على الملكية الرسمية فى بيرو فى ثمانينيات القرن العشرين، أكدت لى كل مؤسسة قانونية كبيرة استشرتها أن إقامة مشروع أعمال رسمى للحصول على رأس المال لن يستغرق سوى بضعة أيام قليلة، كنت أعرف أن هذا صحيح بالنسبة لى وبالنسبة للمحاميين العاملين معى، لكن كان لدى إحساس باطنى بأنه ليس صحيحاً بالنسبة للأغلبية من أهل بيرو لذلك قررت أنا ورملائى إقامة مصنع للملابس يضم ماكيتى خياطة فى مدينة الأكواخ فى ليما ولتجربة السيرة من وجهة نظر الفقراء، استخدمنا ساعة ميقاتية لقياس مقدار الزمن الذى يتعين على منظم مشروع نموذجى فى ليما أن ينفقه ليشق طريقه مع البيروقراطية واكتشفنا أنه لكى يصبح العمل قانونياً، فإن الأمر يستغرق أكثر من ثلاثمائة يوم والعمل ست ساعات يومياً والتكلفة تبلغ اثنين وثلاثين مثل الحد الأدنى

الشهري للأجر وأجرينا تجربة مماثلة للتوصل إلى ما يستغرقه شخص يعيش في مستوطنة إسكان غير قانونية، اعتزقت الحكومة بالفعل ببقائها، للحصول على سند ملكية قانوني ليثبت وتطلب الحصول على موافقة بلدية ليما وحدها - وهي مجرد هيئة واحدة من إحدى عشرة هيئة حكومية معنية - ٧٢٨ خطوة بيروقراطية (انظر الشكل ٦ - ٢) وأكد هذا ما كنت أشك فيه منذ البداية إن معظم البيانات العرفية يعكس مصالح أولئك الذين يعيشون داخل الناقوس الزوجاجي، مثل المحامي الذي استشرته وهذا هو السبب في أن الناقوس الزوجاجي لا يمكن رؤيته إلا من الخارج وبالنظر لداخله - من منظور الفقراء وبمجرد حصول الحكومة على هذه البيانات، تستطيع أن تعسر نيتها بطريقة يستطيع الفقراء فهمها والإرتباط بها ونتيجة لذلك، فإنهم يؤيدون بحماس جدول أعمال الإصلاح. ويصبح الفقراء أكفأ جهاز علاقات عامة يدعو للإصلاح، موفرا تغذية مرتدة من الشوارع لضرورة لاستمرار البرنامج في مساره وهذا هو ما حدث في بيرو فعند ١٩٨٤ إلى ١٩٩٤، وجهت أنا وزملائي كل جهودنا لإعلام الرأي العام بمصافع رفع الناقوس الزوجاجي (كنا نسمى ذلك حينذاك «إضفاء طابع رسمي») وكان هدفنا هو أن نثبت للسياسيين أن هناك توافقا وطنيا مستترا في الرأي على الإصلاح، وأن إضفاء طابع رسمي على الأصول التي يملكها الفقراء هو استراتيجية ظافرة من الناحية السياسية ويحلل أواخر ثمانينيات القرن العشرين، أكد الاقتراح ذلك. فقد حظي الاقتراح الذي قدمناه بتغيير نظام الملكية الرسمي بموافقة تبلغ تقريبا ٩٠ في المائة ومع رقم مثل هذا، لا يدعو للدهشة أنه عندما عرضت الأجزاء الأولى من التشريع واللوائح التي وضعت منطقتي مشروعاتها، من أجل إقرارها رسميا، على الكونجرس في بيرو في ١٩٨٨ وأوائل ١٩٩٠، تم اعتمادها بالإجماع وخلال حملة انتخابات الرئاسة في ١٩٩٠، تبى جدول أعمال إضفاء الطابع الرسمي، كل المرشحين، بمن فيهم ماريو فارغاس لوزا، الروائي ومرشح التحالف بين الأحرار والمحافظين، وألبرتو فوجيموري، الحصان الأسود الشعبي، والذي فاز في النهاية، إلى جانب الرئيس الاشتراكي الراحل الآن جارسيا وحتى في الوقت الحالي، وعلى الرغم من أن جهود التمهيد كانت

عربية الأطوار وغير كاملة للغاية، فإن إضفاء الطابع الرسمي لا يزال عنصرا لا نزاع عليه وثابت في المشهد السياسي في بيرو ومع تأييد الحقائق والأرقام والرأي العام للإصلاح، تصبح الحكومة في وضع يؤهلها لطرح قضية الفقر كلها بصورة مثيرة في جدول أعمالها من أجل تحقيق النمو الاقتصادي إن تخفيف عبء الفقر لم يعد يعتبر قضية إحسان، يمكن الاضطلاع بها إذا، وعندما، يصبح ذلك ممكنا على النقيض من ذلك، إن مستقبل الفقراء يمكن أن يحتل حاليا قمة برنامج الحكومة لتحقيق النمو

### تحييد واستمالة الصنفوة

بمجرد الكشف عن الإمكانيات الاقتصادية الكامنة للفقراء - أكبر جمهرة في الأمة - واتضاح تأييدهم للإصلاح، يحلّى دعاة الإصلاح باهتمام الصنفوة وتلك هي اللحظة الملائمة لتحويل الوهم الذي يراودها عن أن رفع الناقوس الزجاجي لن يفيد سوى الفقراء، إن سدّ الفجوة بين الفقراء لا يقتصر على تحقيق مصلحة اجتماعية عامة فحسب، وذلك أن هذا النوع من التكامل القانوني يمكن أن يفيد تقريبا جميع مجموعات المصالح في البلاد ومثلما يجمع دعاة الإصلاح الحقائق والأرقام للظفر بتأييد الفقراء، يتعين عليهم أيضا استخدام حقائق وأرقام أخرى لاكتساب مساندة أصحاب المصالح الراسخة فلا بد أن تساند الصنفوة الإصلاح، ليس بدافع الوطنية أو الأثرة، ولكن لأنه يوسع أيضا مواردها ويدخلها

فعلى سبيل المثال، فإن إدماج القطاع غير القانوني داخل القانون سيتيح الفرصة لتنفيذ برامج حاشدة للإسكان منخفض التكلفة الذي يزود الفقراء بالمنازل التي ليست فقط أفضل ماء وإما أيضا أرخص كثيرا مما كانوا يبنونه بأنفسهم في القطاع غير القانوني ذلك أن إقامة بيت في عالم القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون المقلوب رأسا على عقب، يعادل أن تبدأ ارتداء ملابسك بالحداء أولا، ثم تلبس جواربك تأمل ما يتطله الأمر من مهاجر جديد من

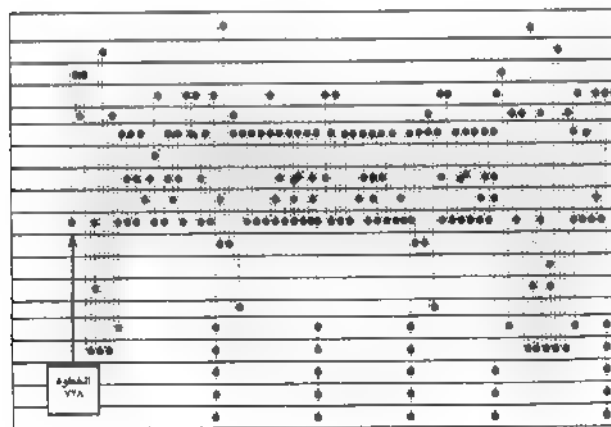
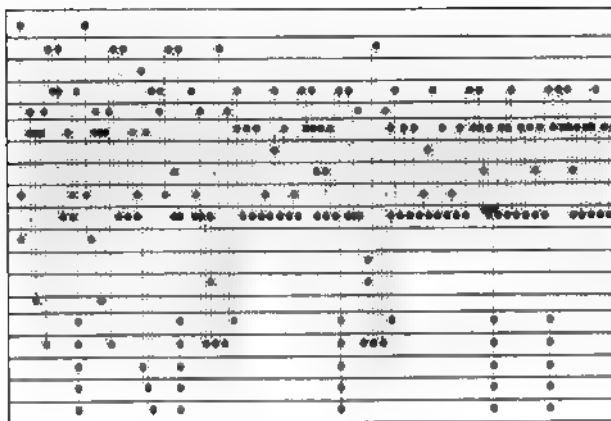
شكل (٣٠٦) ٧٢٨ خطوة ببروقراطية تتطلبها بلدية ليما للحصول على سند ملكية  
أقانوني لجيت في مستوطنة للإسكان تم الترخيص به.

مكتب التجهيز	العمدة
مكتب البلدية	معم
	الفرع الإداري
	المرور القديم أفكار
مكتب التخصيص	رئيس خدمة
	لجنة خدمة
	مهندس محلي
مكتب الحضرة	أمن قانوني
	إدارة خدمة
	مؤام
استقبال	المرور في الخدمة
	مهندسين
	مهندسين
مقدم الطلب	أمن قانوني
	مكتب الخدمة
	مكتب الخدمة
مقدم الطلب	أمن قانوني
	مكتب الخدمة
	مكتب الخدمة

الخطوة ١

مكتب التجهيز	العمدة
مكتب البلدية	معم
	الفرع الإداري
	المرور القديم أفكار
مكتب التخصيص	رئيس خدمة
	لجنة خدمة
	مهندس محلي
مكتب الحضرة	أمن قانوني
	إدارة خدمة
	مؤام
استقبال	المرور في الخدمة
	مهندسين
	مهندسين
مقدم الطلب	أمن قانوني
	مكتب الخدمة
	مكتب الخدمة





منطقة ريفية لإقامة منزل لأسرته في مدينة للاكواخ خارج مدينة كبيرة فأولاً، يتعين عليه ليس فقط العثور على موقع لبناء البيت، لكن عليه أن يشغل الأرض شخصياً، مع أسرته والخطوة الثانية أن يقيم خيمة أو مأوى مصنّع من حصر القش، الطوب اللبن، الكرتون، الأبلكاش، الصاج المضلع، علب الصفيح، حسب البلد - وبذا يثبت حقاً مادياً مدعى به (لأن الحق القانوني غير متاح) وبعدئذ يجلب المهاجر وأسرته تدريجياً، الأثاث والمستلزمات المنزلية الأخرى ومن الواضح، أنهم يحتاجون لبنیان أكثر صلاحية للعيش فيه وأكثر بؤماً لك كيف يشيدونه دون أن تتوافر لهم فرص الحصول على الائتمان؟ إنهم يفعلون ما يفعله الجميع - يخزنون مواد البناء الصلبة ويبدأون في بناء بيت أفضل، مرحلة تلو أخرى، حسب أنواع المواد التي يستطيعون جمعها

وبمجرد أن ينظم سكان إحدى هذه المجاورات الجديدة أنفسهم بما يكفي لحماية حيازاتهم، أو أن تتعاطف السلطات المحلية مع الحرمان الذي يعانيه، يستطيعون توفير الرصف والمياه والتخلص من النفايات والكهرباء - عادة على حساب تدمير أجزاء من بيوتهم بغية توصيلها بالمرافق وفقط بعد سنوات من البناء وإعادة البناء، وتوفير مواد البناء، يصبح ملاك البيوت هؤلاء في وضع يمكنهم أخيراً من العيش بصورة مريحة

وفي الغرب، فإن بناء البيت يماثل لبس الجورب قبل الحذاء، ومن ثم فهو أقل خطورة وتكلفة ومهانة مالم تأت بالتزمية العمرانية لديه بصورة نموذجية سند ملكية الأرض، مما يور له الأمان لتطوير البنية الأساسية اللازمة (الطرق المرصوفة، المرافق، إلخ) ثم يبيع البيت الذي يشرع في بنائه حسب تفضيلات المشتري وبعدئذ ينقل المالك الجديد للبيت، الذي ربما يكون قد اقترض معظم ثمنه من بنك، الأثاث إليه، وأخيراً ينقل الأولاد والقطعة

وبمجرد أن يصبح الفقراء خاضعين للمساءلة بموجب القانون الرسمي، يصبحون قاننين على تحمل أسعار الإسكان منخفض التكاليف، وبذا يهربون من عالم القطاع غير القانوني المقلوب رأساً على عقب وعندئذ تبدأ

الصفوة فى حصد جوائزها هى أيضا إذ سيجد القانونيون بالبناء وصناع مواد التشييد أسواقهم وقد توسعت، ونفس الشيء يصدق على البنوك وشركات الرهن ووكالات سندات الملكية وشركات التأمين كما سيساعد إضفاء الطابع الرسمى موردي المرافق العامة على تحويل عنوان البيت إلى محطة نهائية مسؤولة ويوفر للحكومات ودوائر الأعمال المعلومات والعناوين اللازمة للتجارة فى السلع، وتأمين الفوائد، وتحصيل الديون والرسوم والضرائب وبالإضافة إلى ذلك، يوفر نظام الملكية الرسمى قاعدة بيانات لقرارات الاستثمار فى الرعاية الصحية والتعليم، وتقدير الضرائب، والتخطيط البيئى.

بل إن الملكية القانونية واسعة النطاق ستساعد فى حل واحدة من أشد شكاويهم مرارة وأكثرها استمرارا عن تزايد فقراء الحضر - الحاجة إلى مزيد من «القانون والنظام» إن ازدهار المجتمع المدنى فى اقتصادات السوق لا يرجع إلى الإزدهار الاقتصادى الأكبر فحسب ذلك أن الحق فى الملكية يؤكّد أيضا احترام القانون ومثلما أوضح ريتشارد بايبس المؤرخ البارز فى كتابه عن الثورة الروسية:

إن الملكية الخاصة هى، على نحو قابل للنقاش، أهم مؤسسة للتكامل الاجتماعى والسياسى ذلك أن تملك الممتلكات يخلق التزاما بالنظام السياسى والقانونى. حيث إن الأخير يكفل حقوق الملكية إنه يجعل المواطن شريكا فى السيادة وبهذا، فإن الملكية هى الأداة الرئيسية التى تطبع فى ذهن جماهيرى السكان احترام القانون، وتجعل لها مصلحة فى الحفاظ على الوضع القائم وتبين الأدلة التاريخية أن المجتمعات ذات التوزيع الواسع للملكية، خاصة فى الأرض ومبائى الإسكان، أكثر اتساما بالمحافظة وأشد استقرارا، ولهذا السبب، فإنها أكثر مرونة فى مواجهة حالات الاضطراب من كل الأنواع وهكذا، فإن الفلاح الرئيسى، الذى كان فى القرن الثامن عشر مصدر عدم الاستقرار، أصبح فى القرن التاسع عشر، عماد الاتجاه المحافظ نتيجة المكاسب الثورية الفرنسية<sup>(١٨)</sup>

وعندما يثق الفقراء في أن أراضيهم ومشروعات أعمالهم مملوكة لهم قانوناً، يزداد احترامهم للملكية الآخرين.

كما ستزود سجلات الملكية الرسمية المستكملة لآخر وقت، الشرطة بالمعلومات الضرورية لضبط الأمور بطريقة متحضرة ذلك أن عدم وجود عنوان قانوني من السمات الأساسية للخارجين على القانون في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وعندما ترتكب جريمة، لا تتوافر للشرطة السجلات والأدلة الموجهة للأماكن وغيرها من المعلومات المستندة للملكية الضرورية «لتفسي أثر» المشتبه فيهم الرئيسيين وهذا هو السبب في أن سلطات إنفاذ القانون لا يمكن أن تكون انتقائية على نحو يماثل نظيراتها في الغرب عند مطاردة المشتبه فيهم، ومن ثم يرجح أن تنتهك الحقوق المدنية لأشخاص أبرياء.

كما ينحو امتلاك ملكية رسمية إلى إحباط السلوك الجامح. فعندما يضطر الناس إلى تقسيم ملكيتهم إلى أجزاء أصغر فأصغر، فإن وريثة وريثهم المستبعدين من أرض الأسرة لضيقها، يرجح أن يضفوا أيديهم على أراض في أماكن أخرى كذلك، فإنه عندما يعجز شخص ما عن أن يثبت ملكية لأي شيء، يرجح أن يقدم رشاً ليشق طريقه خلال البيروقراطية، أو يأخذ أمر تنفيذ القانون بين أيديه، بمساعدة جيرانه والأسوأ من ذلك، أنه بدون توافر قانون جيد للوفاء بالالتزامات، فإن المجتمع يشجع في واقع الأمر رجال العصابات والإرهابيين على القيام بهذا الدور وقد قمت أما وزملائي بحملات لإصدار سندات ملكية رسمية مما حيد الإرهابيين، عن طريق انتحال دورهم كقوة للأمن في المنطقة ضد خطر حقيقي أو متصور للاستيلاء على الأرض.

كذلك توفر الملكية بديلاً قانونياً لتهديب المخدرات فطالما بقي المزارعون ملاكاً غير قانونيين للأرض، تظل المحاصيل النقدية قصيرة الأجل، مثل الكوكا وخشخاش الأفيون، هي البديل الوحيد أمامهم ذلك أن الأموال التي يقدمها مهربي المخدرات هي عملياً الانتماء الوحيد المتاح لصغار المزارعين في مناطق معينة من العالم النامي ونظراً لأن ترتيباتهم الخاصة بالملكية لا تظهر في أي نظام رسمي، فإن إنفاذ القانون لا يمكن أن يتوصل إليها، ناهيك عن الوصول إلى إتفاق بزراعة محاصيل بديلة قابل للتنفيذ كما يعني هذا الافتقار إلى

الحماية القانونية أن زراع محاصيل المخدرات يتعيّن عليهم أن يشكلوا معاً عصابات للدفاع عن الأصول التي يملكونها، أو يدعوا المهريين للدفاع عنهم ويدون نظام رسمي للملكية يشمل ملاك الأرض هؤلاء، فإن السيطرة على زراع محاصيل المخدرات، ومطاردة مهربي المخدرات، وتحديد شخصية ملوئي البيئة، يصبح مستحيلاً من الناحية الفعلية ولا يعود هناك من طريق أمام السلطات لاختراق الترتيبات غير القانونية المحكمة التي يبرمها الناس لحماية مصالحهم

إن إضفاء طابع قانوني على الملكية ليس عملاً خيراً بالنسبة للفقراء ذلك أن إقامة سوق منظمة تجعل الملاك خاضعين للمساطة وتمنع سندات ملكية واضحة لبيوتهم تجعلها تستحق التمويل، تخلق سوقاً متوسعة، وتشجع القانون والنظام، وتضع النقود في جيوب الصفوة

### التعامل مع القوامين على الناقوس الزجاجي

ما أن يكفل دعاة الإصلاح مساندة الفقراء وبعض من الصفوة على الأقل لهم، يكون الوقت قد حان للاستفادة من البيروقراطية العامة والخاصة التي تدير الوضع القائم وتحافظ عليه - أساساً المحامون ورجال القانون والفنيون

**المحامون ورجال القانون.** من الناحية النظرية، لا بد أن يجذب المجتمع القانوني الإصلاح لأنه يدعم حكم القانون لكن معظم رجال القانون والمحامين في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لم يتدربوا في الواقع على توسيع حكم القانون، وإنما على الدفاع عنه كما يجدونه إن رجال القانون والمحامين هم المهنيون الأكثر انخراطاً في شؤون الملكية اليومية وهم يحتلون المكاتب الحكومية الرئيسية حيث يستطيعون تعطيل القرارات الأساسية وليس هناك أي مجموعة - بخلاف الإرهابيين - في وضع أفضل منهم لتخريب التوسع الرأسمالي وعلى خلاف الإرهابيين، فإن رجال القانون والمحامين يعرفون كيف يقومون ذلك بصورة قانونية

ورغم أن منظّمى المشروعات والناس العائدين هم بناء رأس المال والراسمالية، فإن رجال القانون والمحامين هم الذين يثبتون ويحددون مفاهيم الملكية فى شكل تمثيلى ملموس ويضعون هذه المفاهيم فى نظم أساسية ففى نهاية المطاف، يجب أن يتجسد ضمان الملكية، وخصوص الملك للمساهمة، وقابلية المعاملات للإنعاز، فى إجراءات وقواعد يضع رجال القانون والمحامين مشروعاتها والواقع أنهم يمثلون المهنة القانونية التى تنحصر كافة أسانيد الملكية الرسمية: سندات الملكية، السجلات، العلامات التجارية، حقوق التأليف، السندات الإذنية، الكمبيالات، حقوق البراءات، وأسهم الشركات. وسواء كنت تحب رجال القانون والمحامين أم لا، فإنه لن يتم أى تغيير حقيقى فى نظام الملكية وعملية تكوين رأس المال بدون تعاون البعض منه على الأقل

وتتمثل الصعوبة فى أن قلة من رجال القانون والمحامين يدركون النتائج الاقتصادية لعملهم، ورد فعلهم المتمثل فى اهتزاز ركبهم إزاء السلوك غير القانونى والتغيير واسع النطاق عدائى بصفة عامة. إن جميع دعاة الإصلاح الذين اتقيتهم والذين كانوا يعملون على جعل الملكية أسهل مئالا بالنسبة للفقراء، كانوا يفترضون أن المهنيين من القانونيين هم أعداؤهم الطبيعيون وقد أصيب الاقتصاديون المشتركرون فى الإصلاح بالإحباط من النزعة المحافظة القانونية، لدرجة أنهم استثمروا أموالهم ووقتهم فى إضعاف الثقة فى المهنيين من القانونيين وقد استخدم سامارك داتا، وجيفرى ب نوجنت البيانات الاقتصادية المستمدة من اثنين وضمسين بلدا من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠، لبيان أن كل زيادة فى عدد المحامين فى قوة العمل مقدارها نقطة مئوية (مثلا من ٥، إلى ١٠، فى المائة) يقابلها نقص فى النمو الاقتصادى بمقدار يتراوح من ٢، ٦٨ إلى ٤، ٧٦ فى المائة - مما يبين أن النمو الاقتصادى يرتبط عكسيا ببقظة رجال القانون والمحامين<sup>(١٩)</sup>

إن ما يثير بصفة خاصة كثيرين من دعاة الإصلاح هو الكيفية التى يحول بها رجال القانون والمحامون اللوم من نظم الملكية السيئة إلى أناس آخرين وكثيرا ما سمعت رجال قانون ومحامين يشيدون بقانون الملكية القائم، ويسلمون هى نفس اللحظة بأن سندات الملكية المصدرة بصورة قانونية يصعب

أو يستحيل استخدامها وهذا بالطبع أمر غير مقبول إن رجال القانون والمحامين لا يستطيعون أن يضعوا القانون والإجراءات الإدارية اللازمة لتنفيذه، ثم يلقون باللوم في فشلها على عدم كفاءة التكنوقراط من المستوى المنخفض الذين ينفذون القانون، أو ضعف تعليم من يستخدمونه لا يكتفى وضع مشروعات قوانين رشيقة إذ يتعين عليها أيضا أن تعيد في الواقع الإداري والاجتماعي الذي وضعت من أجله

ومن المثير للاهتمام بقدر كاف، أن أقوى نقد لجهود رجال القانون والمحامين في وقف إصلاح الملكية يأتي غالبا من زملائهم «أبناء كارهم» وفيما يلي ما كتبه س. روتون سمبسون، وهو رجل قانون وأشهر مؤلف في العالم عن موضوع تسجيل الأرض، عن زملائه

إن رجال القانون والمحامين في العالم كله، سينو السمة بسبب معارستهم حتى لأصغر تغيير في إجراءاتهم التقليدية [إن توريث [الاسترالي الذي أنشأ واحدا من أكثر نظم التسجيل في العالم أمانا] الذي عارضه بضراوة القانونيون المهيبون، تطلب على معارضة المحامين في جنوب «استراليا» لكن قصته استثناء. إن الحديد لا يفتقه إلا الحديد، وفي معظم البلدان يدين تسجيل سمكات الملكية، ككفاءة، إلى جهود محام ما، وأجه العراقيل من جراء المعارضة البشيمة من «أبناء كارهم» الممارسين: والمعارضة السلبية قد تكون أسوأ من المعارضة النشيطة، التي على الأقل إما تكسب وإما تفسر فإلعارضة السلبية أكثر دهاء. وتستطيع أن تحبط التقدم ولم يكن قليلا عدد النظم الرئيسية الذي ذبل على عروشها بعد أن حصل على ترخيص الممارسين، الذي شئت فيما بعد أنه مجرد نفاق وولاء كلامي أو حتى «قبلة الموت» وتصبحت نظم أساسية أخرى إجراءات مطولة على نحو يجعل تحقيق التقدم جنـ ضئيل تقريبا. ومثل هذه النظم لا تشكل بالتأكيد أى خطر على الممارسات الراسخة، ومن ثم تنحو إلى أن تكون مقبولة للمهنيين القانونيين، لكنها لا تحقق الهدف حقا، وتؤدي إلى تصفح القائمة فحسب، إن لم يكن بحالات الفشل، فبحالات «عدم النجاح» على الأقل<sup>(٢٠)</sup>

وعلى الرغم من أن رجال القانون والمحامين يسلمون بأنه يتعين على العلوم الأخرى أن تكون دينامية، فإنهم يحتاجون بأن القانون يجب أن يكون مستقرا وثابتا وقد يصل مثل هذا التبرجيل لحكم القانون، مهما كانت النتائج، إلى حد

أن المحامين الذين يساندون الإصلاح يتعرضون لخطر النيد من قبل أقرانهم في البلدان التي تحدث الألمانية خلال القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، بلغ عدا مهنة القانون لإصلاح الملكية ذرى عالية، لحد أن أي محام كان يدعو للإصلاح كان يوصف بأنه «بهيمة تتلف مأواها»

والأنباء الطيبة بالنسبة لدعاة الإصلاح هي أن معظم رجال القانون والمحامين اللامعين (وإن لم يكن بالضرورة الأكثر نجاحا) يؤمنون بأن القانون صنع لخدمة الحياة وليس العكس. وقد انتصر فقهاء القانون المتطلعون للمستقبل في النهاية على الاتجاه الرجعى «لأبناء كارهم» في الغرب، حتى في سياق القانون الرومانى ولاريب أن المعركة كانت عسيرة على امتداد الطريق، كما لاحظ بيتر شتاين، لأن «مساهمة [رجال القانون والمحامين] في الفهم السليم للمؤسسات القانونية تعرضت للتشويش من جراء تركيزهم على نزعة المحافظة على القديم، وقبولهم للقانون الرومانى باعتباره منتجا «كامل الأوصاف»<sup>(٢١)</sup>. ومع ذلك، فعلى مرّ الزمن، تغلب الفقهاء الأوروبيون العظام على الصرامة المبالغ فيها لأنهم كما أوضح شتاين، «جعلوا من ذلك مهنة لهم ليسمحوا خبراء في تعقيدات القانون الرومانى، وليسمنوا تحركه على مرّ الزمن»<sup>(٢٢)</sup> وفي مواجهة عدم استجابة زملائهم المتفشية، نشأت في كل بلد أوروبى عصابة من صفوة رجال القانون والمحامين للمساعدة في رفع النافوس الزجاجى

ومن ثم يتعين على أى حكومة تتطلع إلى الأحذ بنظام متكامل للملكية، أن تضع استراتيجية هريصة للتعامل مع مهنة القانون ومفتاح هذا هو اختيار رجال القانون والمحامين المناسبين ويقتضى الأمر توافر قائد حكيم وماكر لتفادى رجال القانون والمحامين ذوى المهارة والذهن الحاد في إرهاب السياسيين ودفعهم إلى حالة من الشلل والتجمد، والعثور بدلا من ذلك على أولئك الذين سيضعفون شكلا قانونيا على جدول أعمال التغيير حتى لو كان ذلك يعنى طرح النظام أرضا وما لم يحس السياسى ذو العقلية الإصلاحية اختيار محاميه، فسيكون تحت رحمة التكنوقراط القانونيين الحاكمين الذين سيبدون ولاء كلاميا فقط للإصلاح في حين يخبون في الستر

إن رجال القانون والمحامين الشجعان ذوى العقلية الإصلاحية موجودون في كل البلدان، وبمجرد أن تصبح معايير الاختيار لمثل هذه الصفات واضحة،



يمكن التوصل للأشخاص المناسبين ويعتقد كثيرون أن المحددات الأولى للتغيير تقع خارج القانون وفي كل بلد زرقته، وجدت مجموعات من محامي الحكومة ورجال القانون فيها، مطلعين على واقع القطاع غير القانوني، ويجاهدون يوميا للتوصل إلى التناسق بين النظام الرسمي والترتيبات غير القانونية كما أن بعض رجال القانون الأكاديميين يدركون بقوة أن المظلم المتوازية للقانون القانوني وغير القانوني تعمل متزامنة لكن عملهم ينحو إلى أن يعرض في طريقه دون أن تلحظه المستويات الأعلى من الحكم، ومن ثم يظل هو أيضا غير مرئي. والواقع أن هناك تقريبا قاعدة تقول إن رجال القانون اللماحين والذين يدركون وجود النظامين، والذين يتعاطفون مع الإصلاح، يتم دفعهم إلى هامش عملية اتخاذ القرارات السياسية

إن هؤلاء الناس هم الذين يتعين على القيادة السياسية تنظيمهم للإطاحة بالوضع القائم، وتنفيذ برنامج قومي لا يمكن مقاومته لإضفاء الطابع الرسمي على الملكية. بيد أن مثل هذا الجيش لا يتقدم الصفوف عفويا إذ يتعين تحديد مكان كل رجل قانون وتجنيدته، وهم معا، يشكلون الطليعة التي يمكن أن تدافع عن الإصلاح أمام زملائهم من رجال القانون. إنهم هم الذين سيستطيعون هزيمة الديناصورات ونحريها، وأن يشرحوا «لأبناء كار» القانون بلغتهم الخاصة مدى الأهمية الحاسمة لإدماج كل الملكية في نظام قانوني موحد واحد مفتوح لكل الناس، بالنسبة لمستقبلهم ومستقبل بلدهم إنهم وحدهم هم الذين يستطيعون أن يشرحوا لباقي «أبناء الكار» أن الإجراءات القانونية القائمة لم تصبح مزعجة فحسب وإنما عقبة لا يمكن التغلب عليها، تحول دون أن يحتل معظم الناس في العالم وضعا يمكنهم من خلق رأس المال ورجال القانون بشر هم أيضا فمجرد أن يدركوا أن النظام الذي يدافعون عنه أصبح متقادما بصورة لا أمل فيها، فإنهم سيتصرفون بصورة إيجابية

**الفنيون.** تتفق البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة باستمرار مئات الملايين من الدولارات على تكنولوجيا رسم الخرائط وإمساك السجلات بالمكبيوتر لتحديث نظم الملكية فيها - ومع ذلك لم تستطع بعد أن تدمج

قطاعاتها التي لا تتمتع بحماية القانون ولم يعد هذا يدهش أحدا ممن فكروا مليا في أولويات إصلاح الملكية وفي ١٩٩٣، حذر خبير من البنك الدولي من أنه «كان هناك اتجاه لاعتبار إصدار سندات ملكية الأرض مشكلة فنية، فالخرائط ترسم عادة ويتم إجراء المسوح، لكن سندات الملكية لا توضع ولا تصدر بسبب وجود انسداد في النظم أو مشاكل قانونية»<sup>(٣٣)</sup>

وحتى الفنيون يشعرون بالقلق من أنهم ربما قد يكونون قد تجمدوا بدرجة كبيرة بفعل التكنولوجيات الجديدة المذهلة وقد أعرب واحد من أبرز خبراء كندا في نظم الأرض، والمعلومات عن القلق من أن بعض الحكومات تواصل اعتبار رسم الخرائط حجر الزاوية بالنسبة للملكية.

إننا نتعرض حاليا لخطر إدامة هذه الأسطورة بمحاولة اختزال إدارة الموارد إلى مشكلة تتعلق بنظام المعلومات الجغرافية إن التكنولوجيا جذابة، وهي تحقق نتائج ملموسة لكنها ليست سوى جزء من الحل وكثيرا ما يصدر المستشارون ومؤسسات المعونة النظم التي ألفوها (عادة نظمهم أو التي عملوا بها) دون إيلاء اعتبار كاف لحاجات البلد المتلقي وقيوده هناك حاجة إلى تواضع أكبر بين المستشارين المهنيين: هناك حاجة للتسليم أحيانا بأنهم لا يعرفون دوما الإجابة، وأن نظمهم قد لا تكون ملائمة<sup>(٣٤)</sup>

إن برامج خلق الملكية ستستمر في الفشل طالما ظلت الحكومات تعتقد أن خلق الملكية لا يتطلب إلا التعرف على الأشياء المادية - وأنه بمجرد أن تتوفر لهم الصور والمسوحات والقياسات والجرد بالكمبيوتر لأصولهم المادية، تتوفر لهم كل المعلومات المطلوبة لإصدار سندات الملكية لكن ذلك ليس بصحيح ذلك أن الصور وعمليات الحرد تحيط السلطات علما فقط بالحالة المادية للأصول: لكنها لا تحبرها شيئا ممن يملك حقا تلك الأصول، أو كيف نظم الناس الحقوق التي تحكمها إن كافة الصور وعمليات الجرد بالكمبيوتر في العالم لا تستطيع أن تحيط أحدا علما بالقواعد المحلية التي تنفذ هذه الحقوق، أو شبكة العلاقات التي تحافظ عليها وفي مثل أهمية الخرائط والجرد، قياس وتحديد

مكان الأصول المادية التي تقوم عليها الملكية، لكنها لاتحبر الحكومة بكيفية بناء عقد اجتماعي وطني يمكنها من خلق ملكية قانونية واسعة النطاق

لقد أخفى نزوع بعض اللدان إلى ضغط القضايا المتعلقة بالملكية هي إدارات تكنولوجيا رسم الخرائط والمعلومات، الطبيعة الحقيقية للملكية إن الملكية ليست حقا جزءا من العالم المادي: إن موئلها الطبيعي قانوني واقتصادي. إن الملكية تتعلق بأشياء غير مرئية، في حين أن الخرائط أشباه للأشياء المادية في أرض الواقع إذ تعكس الخرائط المعلومات المادية عن الأصول، لكنها تغفل الصورة الكبيرة فبدون المعلومات المؤسسية والاقتصادية ذات الصلة عن الترتيبات غير القانونية، لاتستطيع أن تعكس الواقع القائم خارج الناقوس الزجاجي وبذا تعجز عن أداء وظيفتها الحقيقية، والتي تتمثل في المساعدة في تثبيت الجوانب المتعلقة بالملكية في الأصول في الواقع المادي، للإبقاء على الطابع الافتراضي والمادي متراكبين معا

وإلى أن يتم إزالة العقبات التي تعترض استخدام نظم الملكية الرسمية وإحلال القانون محل الترتيبات التي لاتتمتع بحماية القانون يقل دافع الناس لتقديم المعلومات الضرورية اللازمة للإبقاء على الخرائط وقواعد البيانات مستحدثة لآخر لحظة ويعول عليها إن الناس لايريرون الولوج لداخل نظام الملكية الرسمية لأنهم مثلهفون لرسم خرائط لممتلكاتهم وتسجيلها وفرض ضرائب عليها، وسيضمون للنظام عندما تصبح فوائده الاقتصادية واضحة لهم، وعندما يتأكدون من الاستمرار في حماية حقوقهم

وطالما أن عقدا اجتماعيا لا يتمتع بحماية القانون يحمى هذه الحقوق، فلن يرى الناس مجبرا لإخطار السلطات بأية تغييرات هي ملكية الأصول المملوكة لهم وفقط عندما يحل القانون الرسمي محل الترتيبات التي لاتتمتع بحماية القانون كمصدر لحماية الملكية، سيسلم الناس بمشروعته ويهتمون بتزويد السلطات بالمعلومات المطلوبة للإبقاء على حداثة خرائطها وسجلاتها ويحدد الموضع الذي يحتله العقد الاجتماعي المكان الذي يمكن فيه الإبقاء على حداثة السجلات والخرائط

وليس ت هذه نقطة تاهية إذ تنزع مشروعات إصدار سندات الملكية التي تحركها عوامل فنية إلى التحلل لتتحول إلى نظم لتحديد الرصيد المادي، أو كتب الإحصاءات الإنجليزية التي صدرت في ١٠٨٥ - ١٠٨٦، أو مجرد تذكارات تاريخية. ونتيجة لذلك، تعاني صاعات رسم الخرائط والكمبيوتر إذ يعتمد ميزانيات مشروعاتها، السياسيون الذين يتوقعون أن تؤدي هذه المناهج الجديدة إلى إدماج الفقراء وما إن يدركوا أنها لا تفعل ذلك، حتى تتهاوى منزلة مشروعات رسم الخرائط أو يتم إنهاؤها وقد وجدت أنا وفريقي أن هذا يحدث المرة تلو الأخرى.

والسبب في أن هذه التكنولوجيات تثمر جيدا في البلدان المتقدمة، دون حاجة إلى كثير من الترقيع القانوني والسياسي، هو أن الترقيع كان قد أجرى منذ أكثر من مائة سنة خلت، وأصبح العقد الاجتماعي المتعلق بالملكية والشامل لكل شيء، قائما بثبات في مكانه بالفعل وعندما أصبحت متوافرة خلال الثلاثين سنة الماضية، نظم قواعد البيانات، ونظم المعلومات الجغرافية، والاستشعار عن بعد، ونظم تحديد المواقع العالمية، وكل الأدوات المدهشة لتكنولوجيا المعلومات، تطابقت بصورة محكمة مع بنية أساسية معلوماتية وقانونية متكاملة جيدا وهكذا أمكن تحقيق الاستغلال الجيد لأدوات ومرافق التمثيل المكتوب والبياني، من أجل تخزين واسترجاع ومعالجة أفضل للمعلومات.

ولست أقول إن شركات الهندسة وتكامل الأنظمة وتكنولوجيا المعلومات، وباعة المعدات، ومستشاري التسجيل، وكل الآخرين الذين يقدمون خدمات توثيق الملكية المتخصصين في المسح ورسم الخرائط وتحديث السجلات، غير مهمين لحلق الملكية - العكس تماما ذلك أنه إذا تم تطويرها على نحو ملائم مع عمليات التسجيل الحاشدة ومع العمل في مناح لا يتمتع بحماية القانون، يصبح لا غنى عنها لتحديد المواقع المادية، وكذلك لتجهيز المعلومات وإدماجها معا وسيستهلك ذلك معظم الأموال المنفقة على إصلاح الملكية، لكن فقط بعد حل المشاكل القانونية والسياسية لإدماج القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون

إن قيادة سياسية حقة هي وحدها التي تستطيع أن تنتزع قانون الملكية من شواغله بشأن الماضي ووضعه في إطار التقدير للحاضر، وأن تنأى به عن الانسهار المبالغ فيه بالتكنولوجيا ليصبح مشغولا فقط بمصالح المجتمع وخيره إن السياسيين مطلوبون لأن المؤسسات القائمة تنزع إلى محاباة الوضع القائم وحمايه إذ يعتبر إقناع التكنوقراط بأن يسموا بأنفسهم وأن يساندوا التغيير، مهمة سياسية

كما أن التدخل السياسي ضروري لأن المنظمات الحكومية القائمة داخل الفاقوس الزجاجي ليست مؤهلة بصفة عامة للاضطلاع ببرامج للإصلاح سريعة وواسعة. وعادة يجري تنظيمها كإدارات متخصصة، وهو هيكمل له معنى أكبر في البلدان المتقدمة، حيث التغيير التدريجي وحده هو المطلوب لأن القانون والملكية الرسمية ساريان بالفعل على الجميع إن خلق الملكية لايشبه مطلقا برنامجا للخصخصة، يتضمن بيع دسنة أو ما إلى ذلك من حزم الأصول سنويا ذلك أن هدف إصلاح الملكية هو منع حقوق الملكية في ملايين الأصول لملايين الأشخاص في وقت قصير ويعنى هذا أن نصف المهمة على الأقل يتعلق بالاتصالات ويتطلب الأمر أن يشرح قادة الإصلاح الكيفية التي ستؤثر بها الرأسمالية الشعبية في كثير من مجموعات المصالح المختلفة، وأن يبينوا لها المخاطر التي ستحصل عليها منها، وإقناعها أن تلك ممارسة تفوز فيها جميع فئات المجتمع وبالنسبة للقطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، يتعين على هؤلاء القادة إطلاق سراح طاقاتهم المحبوسة على إنشاء المشروعات، وبيان مزايا الاندماج في قانون رسمي جديد وبالنسبة للقطاع القانوني، ينبغي لهم أن يشرحوا أن الإصلاحات المقترحة لن تضر الحقوق المشروعة والقابلة للإنفاذ، وأنها ستحقق مكاسب شاملة لكل مجموعات المصالح.

إن إقامة نظام للملكية مفتوح للجميع هي في المحل الأول مهمة سياسية، لأن من سيبقى عليها في مسارها الصحيح هم الناس الذين يدركون أن الهدف النهائي لنظام الملكية لايمثل في وضع نظم أساسية رشيقة، والربط بين أجهزة الكمبيوتر البراقة، أو طبع خرائط متعددة الألوان إن هدف الملكية الرسمية هو وضع رأس المال في أيدي الأمة جمعاء.



## الفصل السابع

# من قبيل الخاتمة

أين راحت الحكمة التي ضيعتها في المعرفة  
أين راحت المعرفة التي ضيعتها في المعلومات؟

— تيس، اليوت، مجموعات الكوريس في «الصحفة».

## النادي الخاص للعولة

لأتعاني الرأسمالية أزمة خارج الغرب لأن العولة الدولية فشلت، وإنما لأن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة عجزت عن أن «تعولم» رأس المال داخل حدودها إن معظم الناس في هذه البلدان ينظرون إلى الرأسمالية كنناد خاص، نظام للتمييز لايفيد إلا الغرب والصفوة التي تعيش في النواقيس الرجاجية في البدان الفقيرة

قد تليس أعداد أكبر من الناس في كل أنحاء العالم أحمية ماركة «نايكي»، وتجعل ساعاتها ماركة «كاسيو» تبرق، ولكنهم حتى وهم يستهلكون سلع الغرب، يدركون تماماً أنهم مازالوا متخلفين عند أطراف اللعبة الرأسمالية ومحيطها الخارجى عليهم أن يذلفوا إليها ويشاركوا. وينبغي ألا تكون العولة مجرد ربط بين النواقيس الرجاجية للقلة ذات الامتيازات لقد قام هذا النوع من العولة من قبل ففي القرن التاسع عشر، كانت الاسر الملكية الحاكمة في أوروبا بالمعى الحرفى أسرة واحدة كبيرة، ترتبط بالدم وعلى اتصال مباشر بشأن السياسات والتجارة مع أبناء عمومتهم في اسبانيا وإنجلترا وروسيا

وفرنسا وهولندا وانتصرت الرأسمالية في القرن التاسع عشر، وسادت في كل أنحاء العالم الصناعي إلى أن جاءت الثورة الروسية والكساد الكبير ولكن مثلما أوضح الأسباني أورتيجا وإي جاسيت والناقد الأمريكي وولتر ليبمان، فإن النظام الرأسمالي كان دوماً مكتشوقاً للمخاطر، رغم هيمنته وتقدمه وقد أوضح الاقتصادي الأمريكي ليستر ثورو أنه حتى فترة قريبة ترجع إلى ١٩٤١

كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى أساساً هما البلدان الرأسماليان [الكبيران] الوحيدان الباقيان على سطح الأرض كان باقي العالم كله إما دول فاشية أو شيوعية أو مستعمرات إقطاعية في العالم الثالث وقد وصلت الأزمة النهائية التي نشبت في العشرينيات والكساد الكبير في الثلاثينيات من القرن العشرين بالرأسمالية إلى حافة الانقراض كان يمكن أن تحتفي الرأسمالية التي تبدو حالياً لاتقاوم، ببضع خطوات خاطئة فحسب<sup>(١)</sup>

ولا يقتضي الأمر تذكرة لأهل أمريكا اللاتينية فقد حاولوا أن يصبحوا جزءاً من الرأسمالية العالمية، وفشلوا أربع مرات على الأقل منذ استقلالهم عن إسبانيا في عشرينيات القرن التاسع عشر وقاموا بإعادة هيكلة ديونهم، وتثبيت اقتصاداتهم بمكافحة التضخم، وتحرير التجارة، وخصخصوا الأصول الحكومية (بيع سكرهم الحديدية للبريطانيين مثلاً)، واضطلعوا بمقايضة الديون بالأسهم، وأصلحوا نظم الضرائب لديهم وعلى مستوى المستهلك، استورد أهل أمريكا اللاتينية كل أنواع السلع، من الحطب التويد الإنجليزية وأحذية «تشيرش» إلى سيارات فورد؛ وتعلموا الإنجليزية والفرنسية بالاستماع إلى الإذاعة أو أشرطة التسجيل؛ ورقصوا «الشارلستون» و«لاميث ووك»، ومضفوا لبان «تشيككتس» لكنهم لم ينتجوا أبداً رأسمالاً حياً يثر عائدًا

ربما نستفيد جميعنا حالياً من ثورة الاتصالات، بل وقد يرى البعض أن هناك تقدماً يتمثل في حقيقة أن «أبو الهول» المصري يحملق مباشرة في لافتة بالنيون في محل حاصل على ترخيص مطاعم كنتاكي ومع ذلك، فإن خمسة



وعشرين بلدا فقط من مائتي بلد في العالم، تنتج رأس المال بكميات كافية للاستفادة بصورة كاملة من تقسيم العمل في سوق عالمية أحده في التوسع ليست الإنترنت ومحلات الوجبات الجاهزة هي دم الحياة بالنسبة للرأسمالية إن رأس المال هو دم حياتها. رأس المال وحده هو الذي يوفر الوسائل اللازمة لدعم التخصص والإنتاج والتبادل للأصول في سوق متوسعة. إن رأس المال هو مصدر زيادة الإنتاجية، ومن ثم ثروة الأمم.

ولا تتوافر القدرة على تمثيل الأصول والإمكانات الكامنة، ومن ثم القدرة على إنتاج رأس المال واستخدامه بكفاءة، إلا للدول الغريبة وحبوب صغيرة من الناس الأثرياء في البلدان الغامية والبلدان الشيوعية السابقة. إن الرأسمالية ينظر إليها خارج الغرب بعداء متزايد، باعتبارها نظاما للفصل العنصري لا يستلحق معظم الناس دخوله. وهناك إحساس متنام، حتى بين بعض النخب، بأنه إذا كان لابد لهم من الاعتماد فقط ولابد على عطف رأس المال الأجنبي، فإنهم لن يصبحوا مطلقا لاعبين منتجين في اللعبة الرأسمالية العالمية ويزدادون إحباطا من جراء أنهم ليسوا سادة مصيرهم ولا يتحكمون فيه. وحيث إنهم شرعوا في العولة دون أن يزودوا شعوبهم بالوسائل اللازمة لإنتاج رأس المال، فقد بدأوا يغدون أقل شبها بالولايات المتحدة منهم بأمريكا اللاتينية المركنتالية محشدها الهائل من الأنشطة التي لا تتمتع بحماية القانون<sup>(٢)</sup> ومنذ عشر سنوات مضت، كان قليلون هم الذين يقارنون بلدان الكتلة السوفيتية السابقة بأمريكا اللاتينية. لكنهما اليوم يبدوان متشابهين بطريقة مثيرة للدهشة. اقتصادات سرية قوية، عدم مساواة صارخة، وتفشى أعمال المافيا، وعدم الاستقرار السياسي، وهروب رأس المال وإهمال فاضح للقانون.

وهذا هو السبب في أن المدافعين عن الرأسمالية خارج الغرب يتقهقرون من الناحية الفكرية، فبعد أن علت منزلتهم منذ عقد مضى فحسب، ينظر إليهم الآن وبصورة متزايدة على أنهم مبررون للبؤس والظلم اللذين مارا لا حيحقان بغالبية البشر فعلى سبيل المثال، حذر مجلس الشورى في مصر في ١٩٩٩ الحكومة «من ألا تتخذ بعد ذلك بدعاوى الرأسمالية والعولة»<sup>(٣)</sup> وإن نسي دعاة الرأسمالية قضية الملكية الحاسمة، فقد تركوا أنفسهم للتواجد مع

المدافعين عن الوضع القائم، الذين يحاولون بصورة عمياء إنفاذ القانون المكتوب القائم سواء كان يتسم بالتمييز أم لا.

والقانون في هذه البلدان يمارس التمييز. ومثلما أوضحت في الفصل الثاني، فإن ٨٠ في المائة على الأقل من السكان في هذه البلدان لا يستطيعون أن ينفخوا أنفاس الحياة في الأصول التي يملكونها، ويجعلونها تولد رأس المال لأن القانون يستبعدهم من نظام الملكية الرسمي إن لديهم تريليونات الدولارات من رأس المال غير المنتج، لكنها كما لو كانت مراكب منعزلة تختفي مياهها في الرمال الجرداء، بدلا من أن تشكل كتلة ضخمة من المياه يمكن احتواؤها في نظام واحد موحد للملكية، وإعطائها الشكل المطلوب لإنتاج رأس المال إن الناس يحوزون الأصول ويستخدمونها على أساس حشد كبير من الاتفاقات غير الرسمية غير المترابطة؛ حيث تجري المساملة محليا وبدون المعايير المشتركة التي تجي، بها الملكية القانونية، فإنهم يفتقرون إلى اللغة الضرورية لجعل الأصول المملوكة لهم تتحدث إلى بعضها البعض وليس هناك من جدوى لحثهم على الصبر حتى تتقاطر نازلة على الطريق منافع الرأسمالية فلن يحدث هذا أبدا حتى تتوافر الأسس الراسخة للملكية الرسمية

وعى الوقت نفسه، يتعين على المروجين للرأسمالية، الذين مازالوا يتباهون ويتناولون بانتصارهم على الشيوعية، أن يدركوا أن إصلاحاتهم الاقتصادية الكلية ليست كافية يجب ألا ننسى أن العولة تحدث لأن البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة طفقت تفتح اقتصاداتها التي كانت محمية من قبل، وتثبت عملاتها، وتضع مشروعات الأطر التنظيمية اللازمة لتعزيز التجارة الدولية والاستثمار الخاص كل هذا خير وبركة لكن ما ليس بخير ولا بركة أن هذه الإصلاحات تفترض أن سكان هذه البلدان مدمجون بالفعل في النظام القانوني، ولهم نفس القدرة على استخدام موارثهم في سوق مفتوحة لكنهم ليسوا كذلك

ومثلما أوضحت في الفصل الثالث، فإن معظم الناس لا يستطيعون المشاركة في سوق احدة في التوسع لأنه لا تتوافر لهم فرص الوصول إلى

نظام حقوق الملكية القانونية الذي يمثل الأصول المملوكة لهم بطريقة تجعلها قابلة للتحويل ومنقولة وقابلة للاستبدال على نطاق واسع، مما يتيح تحميلها بالديون ويسمح ملاكها بأن يصبحوا خاضعين للمساءلة وطالما أن أصول الأغلبية لا توثقها البيروقراطية المنعنية بالملكية وتتبعها، فإنها تكون غير مرئية وعقيمة في السوق

إن البرامج الاقتصادية الكلية لدعاة العولة إذ تقوم بالتثبيت والتصحيح «حسب القواعد المقررة»، ترشد بطريقة مثيرة الإدارة الاقتصادية للبلدان النامية لكن نظرا لأن قواعد المقررة لاتعالج حقيقة أن معظم الناس ليس لهم حقوق ملكية، فإنها لم تقم سوى بجزء من العمل المطلوب لخلق نظام رأسمالي شامل واقتصاد سوق إن أدواتها مصممة للعمل في بلدان تمت فيها «عولة» القانون النظامي داخليا، عندما أقيمت نظم حصصية لحقوق الملكية ترتبط بأدوات نقدية واستثمارية كفاء - وهو أمر لايزال يتعين على هذه البلدان تحقيقه

وقد تبني عدد جد كبير من صانعي السياسة نظرة أوليمبية لعملية العولة فمجرد أن قاموا بالتثبيت والتصحيح على المستوى الكلي، مما أتاح الازدهار لمشروعات الأعمال القانونية والمستثمرين الأجانب، وسمح للاقتصاديين المتشددین بالسيطرة على الخزائن، شعروا أنهم أنجزوا مهمتهم ولكن نظرا لأنهم لم يركزوا إلا على السياسات التي تعالج الإجماليات، فإنهم لم يتقصوا ما إذا كان الناس يملكون أم لا الوسائل اللازمة للمشاركة في نظام سوق متوسعة لقد سوا أن الناس هم القوى الفاعلة الأساسية في التغيير ونسوا أن يركزوا على الفقراء لقد وقعوا في هذا الإغفال الفادح لأنهم لم يعملوا ومفهوم الطبقة في أدبهم وعلى حد تعبير واحد من أبرز معلمهم، «لم تكن لديهم القدرة على إدراك كيف يعيش الناس الآخرون، مهما كان ذلك يمثل معضلة»<sup>(١)</sup>

لقد ترك المصلحون الاقتصاديون مسألة ضمان الملكية للفقراء في أيدي مؤسسات قانونية محافظة غير مهتمة بتغيير الوضع القائم ونتيجة لذلك، ظلت الأصول المملوكة لأغلبية مواطنيهم رأسمالا غير منتج، مشدودا إلى القطاع

الذى لا يتمتع بحماية القانون وهذا هو السبب فى أنه بدأ النظر إلى دعاء العولة وإصلاحات السوق الحرة باعتبارهم مدافعين مغرورين عن مصالح الذين يهيمنون على المناقوس الزجاجى

### مواجهة شبى ماركس

ربما يقع معظم برامج الإصلاح الاقتصادى فى الاقتصادات الفقيرة فى الفخ الذى تنبأ به كارل ماركس: إن التناقض الكبير للنظام الراسمالى هو أنه يطلق عوامل زواله، لأنه لا يستطيع تجنب تركز رأس المال فى أيدى قلة وإذ لا توفر هذه الإصلاحات للأغلبية فرص الوصول للأسواق المتوسعة، تترك مجالاً خصباً للمواجهة الطبقيّة. اقتصاد سوق حرة ورأسمالية من أجل قلة من نوى الامتيازات تستطيع تجسيد حقوقها فى الملكية، وفقر نسبي لقطاع كبير يشكو من عدم كفاية رأس المال ويعجز عن استغلال أصوله الخاصة

أما مواجهة طبقيّة فى هذه الأيام وفى هذا العصر؟ الم يتداعى هذا المفهوم مع سور برلين؟ لسوء الحظ، إنه لم يتداعى قد يكون من الصعب على مواطن فى بلد متقدم أن يفهم ذلك، لأنه فى الغرب يعيش الساخطون على النظام فى «جيوب العقر» بيد أن البرؤس فى البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة لا تحفويه جيوب، بل إنه منتشر فى كل أرجاء المجتمع والجيوب القليلة الموجودة فى هذه البلدان هى جيوب الثروة، إن من يصفهم الغرب بأنهم «دون الطبقات» هم الأغلبية هنا وفى الماضى، فإنه عندما لم يتم الوعاء بتوقعاتهم المتصاعدة، فإن هذه الحشود من الفقراء الفاضلين جعلوا الصفوة الراسخة كما يبدو تخرّ راکعة على ركبتها (مثلما حدث فى إيران وفنزويلا وإندونيسيا) وفى معظم البلدان خارج الغرب، تعتمد الحكومات على إدارات مخبرات قوية، وتعيش الصفوة فيها داخل أسوار تشبه القلاع، ولها فى ذلك ما يبرره

واليوم، وإلى حد كبير، فإن الفارق بين الأمم المتقدمة وباقي العالم، هو الفارق بين البلدان التى تنتشر فيها الملكية الرسمية والبلدان التى تنقسم فيها

الطبقات إلى من يستطيعون تثبيت حقوق الملكية وإنتاج رأس المال ومن لا يستطيعون ذلك وإن لم يتم إدماج حقوق الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، فقد تميزت هذه المجتمعات بين اقنصائيهما الثنائيين - بين ما يسمى القطاع الملتزم بالقانون في جانب، والقطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون الذي تم إفقاره في جانب آخر ولكن مع استمرار المعلومات والاتصالات في التحسن، وإذا أصبح الفقراء أفضل إطلاعاً على ما لا يتوافر لهم، فإن المראה من جراء الفصل العنصري القايومي قميئة بأن تتنامى وعند نقطة ما، يجتشد الذين يعيشون خارج النافوس الزجاجي ضد الوضع القائم بتحريض أشخاص لهم جدول أعمال سياسي يزدهر باستغلال السخط يقول كلاوس شواب من المنتدى الاقتصادي العالمي: «إن لم نخترع طرقاً لحمل العملة أكثر شمولا، فسنواجه احتمال انبعاث المواجهات الاجتماعية الحادة التي حدثت في الماضي، متضخمة على المستوى الدولي»<sup>(٥)</sup>

ربما انتهت الحرب الباردة، لكن الخلافات الطبقيّة القديمة لم تختف. وتثبت الأنشطة التخريبية، وتصاعد الصراعات العرقية والثقافية حول العالم أنه عندما يشعر الناس بالسخط لأقصى حد، فإنهم يواصلون تنظيم أنفسهم في طبقات تستند إلى المظالم المشتركة وتلاحظ «الميزويك» أنه في الأمريكتين منذ ثمانينيات القرن العشرين، «كان لكل من هذه الصراعات تاريخه الفريد الخاص، لكن المقاتلين كافة كانوا يدينون نفس العدو الوجه الجديد للرأسمالية أمريكا اللاتينية»<sup>(٦)</sup> وفي مثل هذه الأوضاع، فإن مؤهلات طقم العدة الماركسي لتفسير الصراع الطبقي أفضل من مؤهلات الفكر الرأسمالي، الذي ليس لديه تحليل مماثل أو حتى استراتيجية جادة للوصول للفقراء في القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون وبصفة عامة، ليس لدى الرأسماليين تفسير نظامي لكيف وصل الناس في مرتبة ما دون الطبقات إلى ما هم عليه، وكيف يمكن تغيير النظام لانتشالهم من وهنتهم

ينبغي ألا نبخس تقدير القوة الكامنة للنظرية الماركسية المتكاملة، في وقت تتطلع فيه حشود من الناس الذين ليس لديهم سوى القليل من الأمل إلى وجهة نظر عالمية متماسكة لتحسين أوضاعهم الاقتصادية التي تدعو لليأس وفي فترات

الازدهار الاقتصادي، يكون الوقت المتاح للتفكير العميق قليلا بيد أن للالتزامات طريقة في تحويل حاجة العقل إلى النظام والتفسير إلى هاجس مستحوذ. إن الفكر الماركسي، في أي شكل يعاود به الظهور - وهو سيعاود الظهور - يقدم طائفة من المفاهيم اللازمة لمصارعة المشكلات السياسية للرأسمالية خارج الغرب، أقوى مما يقدمه الفكر الرأسمالي

ومثلما لاحظ جورج سوروس مؤخرا، فإن رؤى ماركس المتبصرة لرأس المال، هي عادة أكثر حداثة وانصافا من رؤى آدم سميث<sup>(٧)</sup> فقد فهم ماركس بوصوح «أن النقود والسلع، في حد ذاتهما، ليستا برأس مال بدرجة اكبر من وسائل الإنتاج وعيش الكفاف وأنهما يرومان التحول لرأس مال»<sup>(٨)</sup> كما أدرك أن الأصول إذا أمكن تحويلها إلى سلع وجعلها تتفاعل في الأسواق، فإنها يمكن أن تعبر عن القيم التي تخفى على الإدراك ولكن يمكن الإمساك بها لإنتاج الربح لقد كانت الملكية بالنسبة لماركس قضية مهمة، لأنه كان من الواضح لديه أن من يستحوذون على الأصول يحصلون على ما يزيد كثيرا على حصائصها المادية ونتيجة لذلك، ترك طقم العدة الفكرى للماركسية أساليب قوية للمعادين للرأسمالية لشرح السبب في أن الملكية الخاصة ستضع الأصول بالضرورة في أيدي الأغنياء على حساب الفقراء

وبالنسبة لمن لم يلاحظوا ذلك، نقول إن ترسانة العداء للرأسمالية، وترسانة العداء للعمولة تتناميان. واليوم، توجد إحصاءات جادة تزود المعادين للرأسمالية بالخبرة التي يحتاجونها لتأكيد أن الرأسمالية هي نقل للملكية من البلاد الأكثر فقرا إلى البلاد الأشد غنى، وأن الاستثمار الخاص الغربى في البلدان النامية ليس سوى استيلاء الشركات متعددة الجنسيات على مواردها بشكل حاشد ربما زادت السيارات التي تخطف الأبصار، والمنازل الفاحشة، ومراكز التسويق التجارية من طرار كاليفورنيا، في معظم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة خلال العقد السابق. لكن الفقراء ازدادوا هم أيضا ويدين البحث الذي أجرته ناسي بيردسال وخوان لويس لوندونو أن الفقر نما أسرع، وأن توزيع الدخل ساء عبر العقد الأخير<sup>(٩)</sup> وحسب «تقرير عن التنمية

البشرية، ١٩٩٩، الذي تصدره الأمم المتحدة، فإن الناتج المحلي الإجمالي في الاتحاد الروسي انخفض بمقدار ٤١ في المائة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٧، مما دفع بالبلادين إلى القطاع غير القانوني وانخفض العمر المتوقع للذكور الروس بمقدار أربع سنوات كاملة - ليصل إلى ثمانين وخمسين سنة - ويلقى التقرير باللوم على الانتقال إلى الرأسمالية وأثار العولة

وتزدنا هذه الجهود في مجال البحث بإشارات تحذير قوية، لكنها تصب أيضا هذائف فكرية مطلوبة لتثبيط مهمة برامج الخصخصة والرأسمالية العالمية. ومن ثم، هناك أهمية حاسمة للتعرف على النماذج الماركسية الكامنة، وبعد ذلك إضافة ما تعلمناه خلال قرن منذ موت ماركس ففي مقدورنا الآن أن نبين أنه على الرغم من أن ماركس رأى بوضوح أن حياة اقتصادية موارية يمكن أن تقوم إلى جانب الأصول المادية نفسها - أن «منتجات العقل الإنساني بدت باعتبارها كائنات مستقلة وهبت لها الحياة»<sup>(١٠)</sup> - فإنه لم يدرك تماما أن الملكية الرسمية لم تكن مجرد أداة للتملك، وإنما كانت أيضا وسيلة لحفز الناس على خلق قيمة مضافة حقيقية يمكن استخدامها وبالإضافة لذلك، لم ير أن الآليات المتضمنة في نظام الملكية نفسه هي التي تضيف على الأصول والعمل المستثمر فيها الشكل المطلوب لخلق رأس المال ورغم أن تحليل ماركس لكيف تصبح الأصول أشياء تسمو على الواقع المادي وتفيد في استخدامات اجتماعية أكبر عندما تصبح قابلة للتداول، أساسى لفهم الثروة، فإنه لم يستطع أن يتبين سلفا الدرجة التي ستصبح بها نظم الملكية القانونية أداة حاسمة لتعزيز القيمة التبادلية

لقد أدرك ماركس على نحو أفضل من أي شخص آخر في عصره أنه في مجال الاقتصاد ليس هناك ما هو أكثر عماء من النظر إلى الموارد فقط من زاوية خصائصها المادية لقد كان جَدَّ مدرك أن رأس المال هو «جوهر مستقل النقود والسلع فيه مجرد أشكال يتحذها، ويتخلص منها بدورها»<sup>(١١)</sup> لكنه عاش في زمن ربما كان لايرال ممكرا فيه تبين كيف أن الملكية الرسمية يمكنها من خلال التمثيل، أن تجعل مفس تلك الموارد تقوم

بوظائف إضافية وتنتج فائض القيمة وبالتالي، لم يستطع ماركس أن يتبين كيف أنه سيكون من مصلحة الجميع توسيع دائرة المستفيدين من الملكية. لقد كانت سندات الملكية هي مجرد القمة الظاهرة لجبل جليد الملكية الرسمية المتنامي وقد أصبح باقي جبل الجليد حالياً مرفقا ضخماً من صنع الإنسان لاستخلاص الإمكانات الاقتصادية الكامنة في الأصول وهذا هو السبب في أن ماركس لم يدرك بالكامل أن الملكية القانونية عملية لا غنى عنها تثبت رأس المال وتنتشره، وأنه بدون الملكية لا يستطيع الجنس البشري تحويل ثمار عمله إلى أشكال منقولة قابلة للاستبدال، سائلة يمكن تمييزها، جمعها، تقسيمها، واستثمارها لإنتاج فائض القيمة ولم يدرك أن نظاماً جيداً للملكية القانونية، مثل سكن الجيش السويسري، لها آليات أكثر كثيراً من مجرد نصل «الملكية الأولى»

لقد تقادم العهد بكثير من أفكار ماركس، لأن الوضع حالياً لم يعد كما كان الحال عليه في أوروبا في زمن ماركس فلم يعد رأس المال المحتمل امتيازاً للقلة وبعد وفاة ماركس، استطاع الغرب في النهاية أن يقيم إطاراً قانونياً أعطى لمعظم الناس فرصة الحصول على الملكية وأدوات الإنتاج ربما كان ماركس سيصدم عندما يجد كيف أن كثيراً من الحشود المتزايدة في البلدان النامية لا تتكون من البروليتاريا المضطهدة قانوناً، وإنما من صفار منظمي المشروعات غير القانونيين المجهورين ممن لديهم قدر هائل من الأصول

ويجب ألا يهيننا الإعجاب بنظم الملكية الجيدة عن حقيقة أن هذه النظم، مثلما لاحظ ماركس، يمكن أيضاً استخدامها في السرقة ذلك أن العالم سيكون دوماً مليئاً بأسماك القرش الخبراء في استغلال أوراق الملكية ليقتصدوا الثروة من الأشخاص حسبي النية ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يعارض نظم الملكية الرسمية لهذا السبب، بقدر ما لا يستطيع نزع أجهزة الكمبيوتر والسيارات لأن الناس يستخدمونها في ارتكاب الجرائم ولو كان ماركس حيّاً اليوم ورأى سوء توزيع الموارد الذي حدث على جانبي الستار الحديدي السابق، لربما وافق على أن النهب يمكن أن يحدث بالملكية أو



بدونها، وإن مكافحة السرقة تتوقف على ممارسة السلطة بأكثر مما تتوقف على الملكية وبالإضافة لذلك، فإنه على الرغم من أن ماركس وضع «لفائض القيمة» تعريفاً محدداً جداً، فإن معناها ليس حكراً على قلمه. ذلك أن الناس انتجوا يوماً فائض القيمة الأهرامات، الكاندرانيات، الجيوش المكلفة، على سبيل المثال من الأمثلة فحسب ومن الواضح أن قدراً كبيراً من فائض القيمة الحالي في الغرب لا ترجع أصوله إلى وقت العمل الذي يصادر بطريقة فاضحة، وإنما إلى الطريقة التي ولدت بها الملكية في الأذهان الآليات التي يمكن بها استخلاص العمل الإضافي من السلع الرئيسية

لقد تأثر ماركس مثلنا جميعاً بالظروف الاجتماعية والتكنولوجيات السائدة في عصره وربما كانت مصادرة وسائل معيشة الكفاف المملوكة لصغار الملاك، وحقيقة أن الحصول على الملكية الخاصة ينبع من سند الملكية الإقطاعي، وسرقة الأراضي المشاع، واستعباد السكان من أبناء البلاد الأصليين، ونهب البلاد التي يتم فتحها، وه الصيد التجاري لذوى الجلود السوداء» من قبل النظام الاستعماري، جميعها شروطاً مسبقة أساسية لأسماء ماركس «التراكم البدائي لرأس المال» ومن الصعب تكرار هذه الظروف حالياً لقد تغيرت المواقف - بسبب كتابات ماركس نفسه إلى حد ليس بالقليل. وليس للنهب والاستعباد والاستعمار حالياً، رخصة حكومية ومعظم البلدان اليوم أطراف في معاهدات مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولها دساتير تنص على الفرصة المتساوية في الحصول على حقوق الملكية باعتبار ذلك من الحقوق الأساسية للجنس البشري

وإضافة لذلك، وكما رأينا في الفصل السادس، لم تكن السلطات في البلدان النامية متحفظة في إعطاء الفقراء حق الحصول على الأصول ربما لتكون الكتلة الأساسية من المباني ومشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون التلقائية في المدن في كافة أنحاء العالمين الثاني والثالث قد منحت سندات ملكية رسمية، لكن الحكومات سلمت (وإن يكن صمناً فحسب) بوجودها وبترتيبات الملكية وقد أعطيت مساحات كبيرة من الأرض للمزارعين الفقراء في كثير من البلدان النامية خلال هذا القرن، كجزء من برامج الإصلاح الزراعي (وإن كان

بدون مستندات تمثيل الملكية الضرورية لحلق رأس المال) كما لم تتحفظ السلطات في هذه البلدان في تخصيص ميزانيات لقضايا الملكية فقد أنفقت مليارات الدولارات على أنشطة تتعلق بتسجيل الملكية

### الملكية تجعل رأس المال « يتفق ومقتضيات العقل »

حاولت في كل هذا الكتاب أن أبين أن لدينا حالياً ما يكفى من الأدلة لتحقيق تقدم كبير في التنمية ويتوافر ذلك بين أيدينا، نستطيع أن نمضي إلى ما وراء المناقشة الجامدة حول الملكية التي تضع « اليسار مقابل اليمين »، ونتفادى خصوص نفس المعارك القديمة مرة أخرى ذلك أن الملكية الرسمية هي شيء أكبر من مجرد التملك ومثلما رأينا في الفصل الثالث، ينبغي النظر إليها باعتبارها العملية التي لا غنى عنها التي تزود الناس بالأنوات اللازمة لتركين فكرهم على تلك الحوالب من مواردهم التي يستطيعون استخلاص رأس المال منها إن الملكية الرسمية ليست مجرد نظام لمنع سندات بالأصول وتسجيلها ورسم خرائطها - إنها أداة للتفكير، تمثل الأصول بطريقة تستطيع عقول الناس أن تعمل بها لتوليد فائض القيمة وهذا هو السبب في أن الملكية الرسمية يجب أن تكون متاحة للجميع ليربط الجميع في عقد اجتماعي واحد حيث يستطيعون التعاون لزيادة إنتاجية المجتمع

وما يميز نظاماً قانونياً جيداً للملكية هو «أنه يتفق ومقتضيات العقل» فهو يجمع وينظم المعرفة المتوافرة عن الأصول المسجلة في أشكال يمكننا التحكم فيها وهو لا يجمع ويدمج وينسق البيانات الخاصة بالأصول وإمكاناتها فقط، بل أيضاً أفكارنا عنها خلاصة القول، إن رأس المال ينتج عن قدرة الغرب على استخدام نظم الملكية لتمثيل موارده في سياق افتراضى وهناك فقط يمكن للعقول أن تلتقي لتحديد وإدراك معنى الأصول بالنسبة للجنس البشرى

ويتمثل الإسهام الثوري لنظام الملكية المتكامل في أنه يحل مشكلة أساسية للمعرفة ذلك أن حواسنا الخمس ليست كافية لنا لمعالجة الواقع المعقد لسوق

متوسعة ناهيك عن سوق تمت عولتها إننا في أمس الحاجة للتوصل إلى الحقائق الاقتصادية عن أنفسنا ومواردنا مختلة إلى الأساسيات التي تستطيع عقولنا إدراكها بسهولة وهذا ما يفعله نظام جيد للملكية - إنه يضع الأصول في شكل يجعلنا نميز بين أوجه التشابه والاختلاف بينها، ونقاط ارتباطها بالأصول الأخرى إنه يثبتها في وثائق تمثيل يتبعها النظام وهي تنتقل عبر الزمان والمكان، وبالإضافة لذلك، فإنه يتيح للأصول أن تصبح منقولة وقابلة للاستبدال بتمثيلها في عقولنا حتى نستطيع أن نجمعها ونقسمها ونحشدنا بسهولة لإنتاج أخلط أعلى قيمة وهذه القدرة للملكية على تمثيل جوانب الأصول في أشكال تسمح لنا بإعادة الجمع فيما بينها لنجعلها حتى أكثر فائدة، هي المحرك الرئيسى للنمو الاقتصادى، حيث إن النمو في جوهره هو الحصول على مخرجات عالية القيمة من مدخلات منخفضة القيمة

إن نظاما قانونيا جيدا للملكية هو الوسيلة التي تتيح لنا أن نفهم بعضنا البعض، وأن نجرى عمليات الربط، وأن نخلق عن طريق التركيب المعرفة اللازمة عن الأصول المملوكة لنا لتعزيز إنتاجيتنا إنها طريقة لتمثيل الواقع تجعلنا نتجاوز قيود حواسنا إن وثائق التمثيل المشتقة جيدا للملكية تمكننا من أن تحدد بدقة الإمكانيات الاقتصادية للموارد من أجل تعزيز ما نستطيع أن نعمله بها إنها ليست «مجرد ورق» إنها أدوات للتوسعة توفر لنا معرفة مفيدة عن الأشياء غير الموجودة بصورة ظاهرة للعيان.

إن سجلات الملكية توجه معرفتنا عن الأشياء نحو غاية ما، ولنستمر كلمات توما الاكويني «تماما مثلما يتحرك السهم بواسطة رامي السهام»<sup>(١٧)</sup> إن وثائق الملكية بتمثيلها للجوانب الاقتصادية للأشياء التي يملكها، وتجميعها في فئات تستطيع عقولنا أن تدركها بسهولة، تقلل تكاليف التعامل بالأصول وتزيد قيمتها على نحو متناسب وهذه الفكرة، القائلة بأنه يمكن زيادة قيمة الأشياء بتقليل تكاليف معرفتها والتعامل بها، هي أحد الإسهامات الكبيرة لرونالد كواس الحاصل على جائزة نوبل فقد حدد كواس في أطروحته «طبيعة الشركة» أن تكاليف إجراء المعاملات يمكن تخفيضها بصورة كبيرة في سياق

شركة خاضعة للتحكم والتنسيق<sup>(١٣)</sup> وبهذا المعنى، فإن نظم الملكية هي مثل شركة كواس - بيئة خاضعة للتحكم لتخفيض تكاليف المعاملات وقد تولدت قدرة الملكية على الكشف عن رأس المال الكامن في الأصول التي نراكمها عن الفصل التقاليد الفكرية عن التحكم في بينتنا من أجل تحقيق الاردهار وطوال آلاف السنين، كان أكثر الرجال لدينا حكمة يخبروننا بأن للحياة درجات مختلفة من الواقع، كثير منها غير مرئي، وأنتا لن نستطيع الوصول إليها إلا عن طريق التوصل لأدوات التمثيل المناسبة. وفي قياس التمثيل الشهير الذي أورده افلاطون، تم تشبيهها بالسجاء المقيدون بالسلاسل في كهف وظهورنا للمدخل، بحيث إن كل ما نعرفه عن العالم هو الظلال الساقطة على الحائط الذي أمامنا والحقيقة التي يبشر بها هذا التصوير أن أشياء كثيرة من التي نسترشد بها لتحديد مصيرنا ليست واضحة بذاتها وهذا هو السبب في أن الحصارا عملت بجد لإقامة نظم التمثيل اللازمة للوصول إلى، وإدراك، الجانب الافتراضى في واقعنا وتمثيله بمقاييس يمكننا فهمها.

ومثلما أوضحت مرجريت بوزن، «كانت النظم التمثيلية الجديدة بعضها من أهم إبداعات البشر وشمل هذا التدوين بعلامات ورموز، مثل الأرقام العربية (ولا تنس الصفر)، والمعادلات الكيميائية، القائمة المستخدمة في المسح، ووحدات وزن والسوائل، الكلمات الصغيرة التي يستخدمها الموسيقيون ولغات برمجة [الكمبيوتر] مثال أحدث لذلك»<sup>(١٤)</sup> وتساعدنا الأنظمة التمثيلية مثل الرياضيات والملكية المتكاملة على تدر وتنظيم تعقيدات العالم بطريقة نستطيع بها جميعنا أن نفهمها، ويتيح لنا هذا الاتصال فيما يتعلق بالقضايا التي لا نستطيع معالجتها بغير ذلك. إنها ما أسماه الفيلسوف دانييل دنت «تعدد اصطناعى للعقل»<sup>(١٥)</sup> ومن خلال التمثيل، فإننا نجسد جواب أساسية للعالم حتى نغير الطريقة التي نفكر بها فيه وقد لاحظ الفيلسوف جون سيرل أننا نستطيع بالاتفاق الإنسانى «أن نطلع منزلة جديدة على ظاهرة ما، حيثما يكون لتلك المنزلة وظيفة مرافقة لا يمكن القيام بها وحدها بحكم السمات المادية الجوهرية للظاهرة المعنية»<sup>(١٦)</sup> ويبدولى هذا جد

قريب مما تفعله الملكية القانونية فهي تخلع على الأصول، عن طريق عقد اجتماعي، منزلة في عالم المفاهيم تتيح لها أن تؤدي وظائف تولّد رأس المال إن هذه الفكرة عن أننا ننظم الواقع في عالم المفاهيم هي مركز الفلسفة على النطاق العالمي فقد أسماها الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو المنطقة المتوسطة، التي توهر نظاما من المحولات (قوانين أساسية) تشكل الشبكة السرية حيث يحدد المجتمع طائفة متسعة دوما من إمكاناته (شروط الإمكان)<sup>(١٧)</sup>. وإنني اعتبر الملكية الرسمية نوعا من ساحة التحويل التي تتيح لنا توسيع إمكانات الأصول التي راكمناها لدى أبعد فأبعد، وفي كل مرة يزيد رأس المال. كما استفدت من مفهوم كارل بوبر عن العالم ٢ - وهو واقع منفصل عن العالم ١ الخاص بالاشياء المادية، والعالم ٢ الخاص بالحالات العقلية - حيث تتخذ منتجات عقلنا وجودا مستقلا ذاتيا يؤثر على الطريقة التي نتعامل بها مع الواقع المادي<sup>(١٨)</sup> وإلى عالم المفاهيم هذا تأخذنا الملكية الرسمية - عالم ينظم فيه الغرب المعرفة عن الأصول ويستخلص منها إمكانات توليد رأس المال.

وهكذا فإن الملكية الرسمية هي شيء غير عادي، يزيد كثيرا على مجرد التملك فالإنسان، وهو حيوان أضعف كثيرا من الناحية الجسدية، على خلاف النمر والذئب التي تكشر عن أنيابها لحماية أراضيها، استخدم عقله لخلق بيئة قانونية - الملكية - لحماية أرضه وبدون أن يدرك أحد ذلك بصورة كاملة، اكتسب النظام التمثيلي الذي وضعه الغرب لتسوية الادعاءات المتعلقة بالأراضي، حياة خاصة به، موفرا قاعدة المعرفة والقواعد اللازمة لتثبيت وتجسيد رأس المال.

### أعداء التمثيل

المفارقة أن أعداء الرأسمالية كانوا على الدوام، كما يبدو، أكثر وعيا بالأصل الافتراضي لرأس المال من الرأسماليين أنفسهم. إنه هذا الجانب الافتراضي

للرأسمالية هو الذى يجدونه جدّ مآكر وخطير وفى كتابها الأكثر مبيعا «الرعب الاقتصادى»، تنهم فيفيان فورستر الرأسمالية بأنها «غزت الفضاء المادى وكذلك الافتراضى» وصادرت الثروة وخبأتها كما لم يحدث مطلقا من قبل، وابتعدتها عن متناول الناس بإخفائها فى شكل رموز وأصبحت الرموز موضعاً لمبادلات مجردة لا تجرى فى أى مكان خارج عالمها الافتراضى<sup>(١٩)</sup> وسواء بوعى أو بدون وعى، فإن فورستر جزء من تقاليد طويلة لعدم الارتياح للتمثيل الاقتصادى للعالم الافتراضى - ومع ذلك فقد كانت «تلك الدقائق الميتافيزيقية» كما اعتقد ماركس ضرورية لفهم الثروة وتحقيق تراكمها<sup>(٢٠)</sup>

وهذا الخوف من الطابع الافتراضى لرأس المال أمر مفهوم ففى كل مرة تتوصل فيها الحضارة إلى طريقة جديدة لاستخدام التمثيل لإدارة العالم المادى، يتشكك الناس فعندما عاد ماركو بولو من الصين، صدم الأوروبيين بأنباء تقول إن الصينى لا يستخدمون نقوداً معدنية بل ورقية، وهو ما رفضه الناس سريعاً باعتباره نوعاً من الدحل وقاوم العالم الأوروبى النقود التمثيلية حتى القرن التاسع عشر كما استغرق قبول الأشكال الأخيرة من النقود المشنقة - النقود الأليكترونية، التحويلات البرقية، وحاليا بطاقات الائتمان الموجودة فى كل مكان - وقتاً طويلاً فمن المفهوم أن يتشكك الناس عندما تغزو وسائل تمثيل القيم أقل إرهافاً وأكثر اتساعاً بالطابع الافتراضى وقد تساعد الأشكال الجديدة لمشتقات الملكية (مثل الأوراق المالية المستندة إلى رهن) فى تكوين رأس مال إضافى، لكنها أيضاً تجعل فهم الحياة الاقتصادية أكثر تعقيداً. ومن ثم ينزع الناس إلى الشعور براحة أكبر تجاه منظر العمال العرقانين الشرفاء على الصور الجدارية السوفيتية والأمريكية اللاتينية، وهم يكدهون فى الحقول أو يقومون بتشغيل آلاتهم، بأكثر مما يرتاحون للرأسماليين الذين يدورون، ويتعاملون فى، الأسهم وسندات الملكية والسندات المالية فى الواقع الافتراضى لأجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم إن الأمر يبدو كما لو كان التعامل مع سندات التمثيل يوسخ يدك أكثر من العمل فى الوسخ والشحم.

وقد رأى كثيرون من المثقفين، في أوراق الملكية أداة للخداع والقهر، مثل كل النظم التمثيلية - من اللغة المكتوبة إلى النقود والرموز الخاصة بقضاء المعلومات وقد شكلت المواقف السلبية تجاه التمثيل تيارات تحتية قوية في صياغة الأفكار السياسية ويذكر الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا في كتابه «من علم النحو» كيف حاجَّ جان جاك روسو بأن الكتابة كانت سببا مهما لعدم المساواة بين البشر إذ يرى روسو أن من تتوافر لهم المعرفة بالكتابة يستطيعون التحكم في القوانين المكتوبة والأوراق الرسمية، ومن ثم في مصائر الناس. كذلك حاجَّ كلود ليفي - شتراوس بأن «الوظيفة الأولى للاتصال المكتوب هي تسهيل الإخضاع»<sup>(٢١)</sup>

وإنني أدرك مثل أي مناوئٍ للرأسمالية كيف استخدمت النظم التمثيلية، خاصة الرأسمالية منها، للاستغلال والقهر، وكيف أنها تركت الكثرة تحت رحمة القلة وقد ناقشت في هذا الكتاب كيف استغلت الأوراق الرسمية في الهيمنة الصراح. ومع ذلك، فإن فن وعلم التمثيل من عارضات تثبيت المجتمع الحديث ولن يؤدي إلى اختفائهما أي قدر من اللوم القاسي والهجوم العنيف الموجه للكتابة والنقود الأليكترونية ورموز قضاء المعلومات وأوراق الملكية بالعكس يتعين علينا أن نجعل نظم التمثيل أكثر بساطة وأكثر شفافية، وأن نعمل بجد لمساعدة الناس على فهمها وبغير ذلك، سيستمر الفصل العنصري القانوني، وستبقى أدوات خلق الثروة في أيدي من يعيشون داخل الناقوس الزجاجي.

### هل النجاح في الرأسمالية مسألة ثقافية؟

لنبحث حالة بيل جيتس، أكثر أصحاب المشروعات في العالم نجاحا وثراء فبعيدا عن عبقريته الشخصية، ما هو القدر من نجاحه الذي يرجع إلى خلفيته الثقافية «وأخلاقياته البروتستنتية»؟ وكم يرجع إلى نظام الملكية القانونية في الولايات المتحدة؟

كم من ابتكارات البرامج الجاهرة كان سيسطيع القيام به بدون وجود براءات تحميها؟ كم عدد الصفقات والمشروعات طويلة الأجل التي كان سيتمكن من تنفيذها لو لم توجد عقود قابلة للإنفاذ؟ ما مقدار المخاطر التي كان سيسطيع تحملها في البداية لو لم يوجد نظام المسؤولية المحدودة وبوالص التأمين؟ كم مقدار رأس المال الذي كان سيتمكن من مراكمته لو لم توجد سجلات ملكية تحدد وتثبت وتخزن رأس المال ذاك؟ ما مقدار الموارد التي كان سيسطيع أن يجمعها بدون وجود تمثيل للملكية المنقولة والقابلة للاستبدال؟ كم عدد الأشخاص الآخرين الذين كان سيسطيع أن يجعلهم مليونيرات لو لم يتمكن من توزيع حقوق الاكتتاب بشراء الأسهم؟ ما مقدار وفورات الحجم التي كان سيتمكن من الاستفادة بها إن كان يتعين عليه أن يعمل على أساس الصناعات الصغيرة المبعثرة التي لا يمكن تجميعها معا؟ كيف كان سينقل الحقوق الخاصة بإمبراطوريته لأطفاله وزملائه بدون الخلافة بالوراثة؟

لا اعتقد أن بيل جيتس، أو أي من منظمي المشروعات في الغرب كان سيسطيع النجاح بدون وجود نظم حقوق الملكية المستندة إلى عقد اجتماعي قوي ومتكامل جيدا، وأقول بتواضع إنه قبل أن يحاول أي مثقف من أبناء الطبقة العليا يعيش في ناقوس زجاجي أن يقنعنا بأن النجاح في الرأسمالية يتطلب سمات ثقافية معينة، ينبغي لنا أولا أن نحاول معرفة ما يحدث عندما تقيم البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة نظما لحقوق الملكية يمكن أن تخلق رأس المال للجميع

لقد خلط الناس طوال التاريخ بين كفاءة أدوات التمثيل التي ورثوها لخلق فائض القيمة، وبين القيم للصيقة بحضاراتهم ونسوا أن ما يمنح مجموعة معينة من الناس قصب السبق هو الاستخدام المبتكر لنظام تمثيلي طورته ثقافة أخرى فعلى سبيل المثال، كان على أهل دول الشمال أن يسخروا المؤسسات القانونية لروما القديمة لتنظيم أنفسهم، وأن يدرسوا الأبجدية اليونانية ورموز الأرقام العربية ونظمها لنقل المعلومات والحساب ولذلك، فإن قلة حاليا هي التي تدرك قصب السبق الهائل الذي أضفته نظم الملكية الرسمية على



المجتمعات الغربية ونتيجة لذلك، توصل كثيرون من الغربيين إلى أن الاعتقاد بأن ما يدعم رأسماليتهم الناجحة هو أخلاقيات العمل التي توارثوها، أو الألم الوجودي الذي خلفته أديانهم - على الرغم من حقيقة أن الناس في كل أنحاء العالم يعملون بجدّ عندما يستطيعون، وأن القلق الوجودي أو الأمهات المتسلطات اللاتي أفرطن في الحمل ليسا احتكارا لكالفن أو لليهود (إنني مهتم بالتاريخ مثل كل أنصار كالفن، خاصة في أمسيات الأحد، ومراهنات سباق الأم التي امرطت في الحمل، لذلك فإني أضع أمي في بيرو مقابل أي امرأة في نيويورك) ولذلك، فإن قدرا كبيرا من جدول أعمال البحوث المطلوبة لتفسير السبب في فشل الرأسمالية خارج الغرب، يظل مطمورا في حشد الافتراضات التي لم تفحص جيدا، أو غير القابلة للاحتسار، والمسماة «الثقافة»، والتي يتمثل تأثيرها الأساسي في إتاحة الفرصة للكثيرين جدا ممن يعيشون في الجيوب المتميزة في هذا العالم للتمتع بالإحساس بأنهم أسمى وستذهب هذه المقولات الثقافية أنراج الرياح ذات يوم عندما تتكاثر الأدلة الراسخة عن آثار المؤسسات السياسية الجيدة، وقانون الملكية الجيد وفي الوقت نفسه، لاحظ فريد زكريا في مجلة «فورين أفيرز»

الثقافة قضية ساخنة ومثيرة ولا أقصد بالثقافة فاجنر والتعبيرية التجريدية. وهاتان مسألتان ساحنتان على الدوام - ولكن أقصد الثقافة كتفسير للظواهر الاجتماعية إن التفسيرات الثقافية مستمرة لأن المثقفين يحبونها إذ تصفى قيمة على المعرفة التفصيلية لتواريخ البلدان، وهو ما يتواءم عرض كثير مه لدى المثقفين. إنها تضيق مظهرا من الفموض والتفقد لدراسة المجتمعات. لكن الثقافة نفسها يمكن تشكيلها وتغييرها وتكم وراء عند كبير من المواقف والأذواق والتفضيلات الثقافية، القوى السياسية والاقتصادية التي شكلتها<sup>(٢٢)</sup>

ولا يعني هذا القول بأن الثقافة ليست مهمة ذلك أن لكل الناس في العالم تفضيلات ومهارات وأنماط سلوك محددة يمكن اعتبارها ثقافة ويتمثل التحدي في اكتشاف أي من هذه السمات هو حقا الهوية الراسخة التي لا تتبدل لشعب ما، وأيها تحدده القيود الاقتصادية والقانونية هل وضع اليد

غير القانوني على العقارات في مصر وبيرو، نتيجة لتقاليد بدوية قديمة يتعذر استئصالها بين العرب وعادات الكويتشواس في زراعة المحاصيل جيدة وذهوباً على مستويات رأسية مختلفة من جبال الأنديز؟ أم أن ذلك يحدث لأن الحصول على حقوق الملكية القانونية للأراضي الصحراوية يستغرق في كل من مصر وبيرو أكثر من خمس عشرة سنة؟ من واقع تجربتي أقول إن وضع اليد يرجع أساساً للأمر الأخير ذلك أنه عندما تتوافر للناس فرصة الوصول لألية منظمة لاستيطان الأرض تعكس العقد الاجتماعي، فإنهم سيسلكون الطريق القانوني، وستصير قلّة فقط على التملك غير القانوني، مثلما يحدث في أي مكان آخر وكثير من السلوك الذي يعزى الآن للميراث الثقافي لا يعد نتيجة حتمية للملامح الإثنية أو المزاجية للشعب، وإنما نتيجة لتقييمه الرشيد للتكاليف والمنافع النسبية للدخول في نظام الملكية القانوني

إن الملكية القانونية تمكّن للأفراد في أي ثقافة من أسباب القوة، وأشك في أن الملكية في حد ذاتها تتناقض بصورة مباشرة مع أي ثقافة كبيرة فلم يجد المهاجرون الفيتناميون والكوبيون والهنود بوضوح مشاكل كبيرة في التكيف مع قانون الملكية في الولايات المتحدة ذلك أن قانون الملكية، إذا فهم على نحو صحيح يمكن أن يصل لما وراء الثقافات ليزيد الثقة بينها، ويقلل في الوقت نفسه تكاليف الجمع بين الأشياء والأفكار<sup>(٣٣)</sup>. إن الملكية القانونية تحدد معدلات التبادل بين الثقافات المختلفة، وبذلك تمنحها أساساً وطبداً للخصائص الاقتصادية المشتركة بينها والتي تتعامل بمقتضاها مع بعضها البعض

### اللعبة الوحيدة في البلدة

إنني مقتنع بأن الرأسمالية ضلت طريقها في البلدان النامية والبلدان الشيوعية السابقة وليس هذا من الإنصاف إنها منبئة الصلة بمن يجب أن يكون أكبر إصهارها، وبدلاً من أن تكون الرأسمالية سبباً يعد الجميع يتوفّر الفرص، فإنها تبدو على نحو متزايد باعتبارها فكرة مهيمنة لطائفة من رجال

الأعمال والتكثيف تخدم بها مصالحها وأمل أن ينقل هذا الكتاب اعتقادي بأنه من السهل نسبياً تصحيح هذا الوضع - بشرط أن تكون الحكومات راغبة في قبول مايلي

- ١ - يتعين توثيق وضع الفقراء وإمكاناتهم توثيقاً أفضل
- ٢ - كل الناس قادرين على الانحار
- ٣ - إن ما يفتقر إليه الفقراء هو نظم الملكية المتكاملة قانوناً، والتي يمكنها أن تحول عملهم ومخدراتهم لرأس مال
- ٤ - إن العصيان المدني وعصابات المافيا الحالية ليسا ظواهر هامشية، وإنما نتيجة لانتقال مليارات من البشر من حياة منظمة على نطاق صغير إلى حياة منظمة على نطاق كبير.
- ٥ - وفي هذا السياق، فإن الفقراء ليسوا هم المشكلة بل الحل.
- ٦ - إن تنفيذ نظام للملكية يخلق رأس المال هو تحد سياسي، لأنه يتضمن الارتباط بواقع الناس، واستيعاب العقد الاجتماعي، وإصلاح النظام القانوني

ويانتصار الرأسمالية على الشيوعية، استنفدت جدول أعمالها القديم لتحقيق التقدم الاقتصادي، وتحتاج إلى مجموعة جديدة من الالتزامات وليس هناك من معنى للاستمرار في الدعوة لاقتصادات مفتوحة بدون مواجهة حقيقة أن الإصلاحات الاقتصادية الجارية لا تفتح الأبواب إلا لنخب صغيرة تمت عولتها، وتستبعد معظم البشرية ففي الوقت الحالي، لا تهتم العولة الرأسمالية إلا بالربط فيما بين النخب التي تعيش في نواقيس زجاجية ولرفع النواقيس الزجاجية والتخلص من الفصل العنصري في الملكية، فإن الأمر يتطلب المضي لما وراء الحدود القائمة لكل من مبادئ الاقتصاد والقانون

لست رأسمالياً عنيداً ولا أعتبر الرأسمالية عقيدة فالأكثر أهمية بالنسبة لي، هو الحرية والتعاطف مع الفقراء، واحترام العقد الاجتماعي، والفرص المتساوية ولكن لتحقيق هذه الأهداف في الوقت الحاضر، فإن الرأسمالية هي

اللغة الوحيدة في البلدة إنها النظام الوحيد المعروف لنا الذي يزودنا بالأنوات المطلوبة لخلق فائض القيمة على نطاق حاشد  
 إنني اعتز بأنني من العالم الثالث، لأنه يمثل تحدياً رائعاً - تحقيق الانتقال إلى نظام رأسمالي يستند إلى السوق يحترم رغائب الناس وعقائدهم وعندما يصبح رأس المال قصة نجاح ليس في الغرب فقط وإنما في كل مكان، نستطيع أن نتحرك لما وراء حدود العالم المادي ونستخدم عقولنا للتخليق إلى المستقبل

# الهوامش

## الفصل الأول

Gordons S. Wood, "Inventing American Capitalism," *New York Review of Books* (June 9, 1994), p. 49.

## الفصل الثاني

Donald J. Pisani, *Water, Land, and Law in the West: The Limits of Public Policy, 1850-1920* (Lawrence: University Press of Kansas, 1996), p. 51.

٢ - تعليق للمهندس المعماري والحبير الحصري البرت مانجوير Albert Mangonese في *Conjonction*, No. 119, February-March 1973, p. 11

Leonard J. Rolfes, Jr., "The Struggle for Private Land Rights in Russia", *Economic Reform Today*, No. 1, 1996, p. 12.

## الفصل الثالث

Adam Smith, *The Wealth of Nations* (London: Everyman's Library, 1997), - ١ former Vol. 1, p. 242.

٢ - المرجع المذكور، ص ٢٩٥

Simonde de Sismondi, *Nouveaux principes d'économie politique* (Paris: Calmann-Lévy, 1827), pp. 81-82

Jean Baptiste Say, *Traité d'économie politique*, (Paris: Deterville, 1819), - ١ Vol 2, p. 429

Karl Marx, Frederick Engels, *Collected Works* (New York: International Publishers, 1996), Vol. 35, p. 82.

Smith, *The Wealth of Nations*, former Vol. 1, p. 242. - ٦

٧ - المرجع المذكور، ص ٢٨٦

Herbert L. Dreyfus and Paul Rabinow, *Michel Foucault: Beyond Structuralism and Hermeneutics* (Chicago: Harvester, University of Chicago, 1982), p. 211.

George A. Miller and Philip N. Johnson-Laird, *Language and Perception*, ٩ (Cambridge: Harvard University Press, 1976), p. 578.

Gunnar Hennsohn and Otto Steiger, "The Property Theory of Interest and Money," unpublished manuscript, second draft, October 1998, p. 22

١١. المرجع المذكور، ص ٤٣

١٢. المرجع المذكور، ص ٣٨

Tom Bethell, *The Noblest Triumph* (New York: St. Martin's Press, 1998), ١٣ p. 9.

Fernand Braudel, *The Wheels of Commerce* (New York: Harper and Row, ١٤ 1982), p. 248.

### الفصل الرابع

"Survey the Internet," *Economist*, July, 1, 1995, pp. 4-5. ١

Jeb Blount, "Latin Trade," *News Finance*, January 20, 1997. ٢

Tony Emerson and Michael Laris, "Migration," *Newsweek*, December 4 ٣ 1995.

Henry Boldrick, "Reaching Turkey's Spontaneous Settlement," *World ٤ Bank Policy*, April-June 1996.

"Solving the Squatter Problem," *Business World*, May 10, 1995. ٥

*Newsweek*, March 23, 1998. ٦

*Economist*, June 6, 1998. ٧

Manal El-Batran and Ahmed El-Kholei, *Gender and Rehousing in Egypt* ٨ (Cairo: Royal Netherlands Embassy, 1996), p. 24

Gerard Barthelemy, "L'extension des lotissements sauvages à usage popu- ٩ laire en milieu urbain ou Paysans, Villes et Bidonvilles en Haiti. Aperçus et reflexions," June 1996, Port-au-Prince, offprint, June 1996.

Blount, "Latin Trade". ١٠

Leonard J. Rolfe, Jr., "The Struggle for Private Land Rights in Russia, Ec- ١١ onomic Reform Today, No. 1, 1996.

Official journal of the *National Geographic Society* (Millennium in Maps), ١٢ No. 4., October 1998.

Donald Stewart, *AIPE*, December 1997. ١٣

Matt Moffett, "The Amazon Jungle Had an Eager Buyer, but Was It for ١٤ Sale?" *Wall Street Journal*, January 30, 1997.

Simon Fass, *Political Economy in Haiti. The Drama of Survival* (New ١٥ Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 1988), pp. xxiv-xxv.

Ahmed M. Soliman, "Legitimizing Informal Housing: Accommodating ١٦ Low Income Groups in Alexandria, Egypt," *Environment and Urbaniza- tion*, Vol. 8, No.1 (April 1996), pp. 190-191

- Reuters, *Financial Review*, May 11, 1992, p. 45. ١٧
- Mavery Zarembo, *Newsweek*, July 7, 1997. ١٨
- Economist*, March 5, 1994. ١٩
- Economist*, May 6, 1995. ٢٠
- "Terrenos de Gamarra valen tres veces más que en el centro de Lima." *El Comercio*, April 25, 1995. ٢١
- Jan De Vries, *Economy of Europe in an Age of Crisis, 1600-1750* (Cambridge: Cambridge University Press, 1976); D. C. Coleman, *Revisions in Mercantilism* (London: Methuen, 1969); J. H. Clapham, *The Economic Development of France and Germany, 1815-1914* (Cambridge: Cambridge University Press, 1963); Eli Heckscher, *Mercantilism*, ed. E.F. Soderland (London: George Allen & Unwin, 1934).
- Joseph Reid, *Respuestas al primer cuestionario del ILD* (Lima: Meca, 1985). ٢٢
- D. C. Coleman, *The Economy of England, 1450-1750* (London: Oxford University Press, 1997), pp. 18-19. ٢٤
٢٥. المرجع المذكور، ص ٥٨ - ٥٩
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, p. 323. ٢٦
٢٧. المرجع المذكور، ص ٢٤٦
- Robert B. Ekelund, Jr. and Robert Tollison, *Mercantilism as a Rent-Seeking Society* (College Station: Texas A&M University Press, 1981), Chapter 1. ٢٨
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, pp. 239-244. ٢٩
- Coleman, *The Economy of England*, p. 74. ٣٠
- Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, p. 244. ٣١
- Clapham, *Economic Development of France and Germany*, pp. 323-325. ٣٢
٣٣. رد جوريف ريد على الاستبيان الثاني الذي قدمه معهد الحرية والديمقراطية مذكرة مكتوبة، مكتبة معهد الحرية والديمقراطية، Vol. ١٩٨٥. Heckscher, *Mercantilism*, Vol. 1, pp. 247, 251.
- Charles Wilson, *Mercantilism* (London: Routledge & Kegan Paul 1963), p. 27. ٣٤
- Coleman, *The Economy of England*, p. 105. ٣٥

### الفصل الخامس

- Francis S. Philbrick, "Changing Conceptions of Property Law," *University of Pennsylvania Law Review*, Vol. 86, May 1938, p. 691. ١
- Bernard Bailyn, *The Peopling of British North America, An Introduction*. ٢ (New York, 1986), p.5

Peter Charles Hoffer, *Law and People in Colonial America* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1998), pp. 1-2.

٤ - المرجع المذكور، ص 11.

٥ - David Thomas Konig, "Community Custom and the Common Law Social Change and the Development of Land Law in Seventeenth-Century Massachusetts," in *Land Law and Real Property in American History: Major Historical Interpretations*, ed. Kermit Hall (New York: Garland Publishing, 1987), p. 339.

٦ - المرجع المذكور، ص 319 - 320.

٧ - المرجع المذكور، ص 320.

٨ - المرجع المذكور، ص 323.

٩ - المرجع المذكور، ص 324.

١٠ - المرجع المذكور، ص 349.

١١ - Hoffer, *Law and People in Colonial America*, p. 15.

١٢ - Ameha C. Ford, *Colonial Precedents of Our National Land System as It Existed in 1800* (Philadelphia: Porcupine Press, 1910), pp. 112-113.

١٣ - المرجع المذكور، ص 114.

١٤ - Konig, "Community Custom," p. 325.

١٥ - المرجع المذكور، ص 325.

١٦ - Aaron Morton Sokolski, *Land Tenure and Land Taxation in America* (New York: Schalkenbach Foundation, 1957), p. 191.

١٧ - المرجع المذكور.

١٨ - Henry W. Tatter, *The Preferential Treatment of the Actual Settler in the Primary Disposition of the Vacant Lands in the United States to 1841*, Ph. D. dissertation, Northwestern University, 1933, p. 23.

١٩ - المرجع المذكور.

٢٠ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 103.

٢١ - المرجع المذكور.

٢٢ - Ford, *Colonial Precedents*, pp. 89-90.

٢٣ - المرجع المذكور، ص 126.

٢٤ - المرجع المذكور.

٢٥ - المرجع المذكور، ص 128.

٢٦ - المرجع المذكور، ص 129.

٢٧ - المرجع المذكور، ص 130.

٢٨ - Tatter, *The Preferential Treatment*, pp. 40-41.

٢٩ - Stanley Lebergott, "O' Pioneers' Land Speculation and the Growth of the Midwest," in *Essays on the Economy of the Old Northwest*, ed. David C. Klingman and Richard K. Vedder (Athens, Ohio university Press, 1987), p. 39.

٣٠ - Ford, *Colonial Precedents*, p. 119.



- Sokolski, *Land Tenure*, p. 192. - ٣١
- المرجع المذكور، ص ١٩٢ - ٣٢
- المرجع المذكور - ٣٣
- Donald J. Pisani, *Water, Land, and Law in the West. The Limits of Policy, 1850-1920* (Lawrence: University Press of Kansas, 1996), p. 51 - ٣٤ ورد في
- Sokolski, *Land Tenure*, pp. 193-194. - ٣٥
- Lebergott, "O' Pioneers," pp. 39-40. - ٣٦
- المرجع المذكور - ٣٧
- المرجع المذكور، ص ١٠ - ٣٨
- Ac XXXIII, March 1642, *The Statutes at Large, Being a Collection of All the Laws of Virginia from the First Session of the Legislature*, ed. William Henning (New York, 1823), p. 134. - ٣٩
- Richard E. Messick, "A History of Preemption Laws in the United States," draft prepared for ILD, p. 7. - ٤٠
- Ford, *Colonial Precedents*, p. 124. - ٤١
- المرجع المذكور - ٤٢
- المرجع المذكور، ص ١٢٢ - ٤٣
- المرجع المذكور، ص ١٣٤ - ٤٤
- ٤٥ - مرسوم لتعديل وتسوية سندات ملكية المدعين في أراضي غير مشمولة ببراءات الملكية في ظل الحكومة الحالية والسابقة، قبل إنشاء مكتب الكومنولث للأراضي. *The Statutes at Large Being a Collection of All the laws of Virginia*, ed. William Henning (Richmond, 1822), p. 40.
- Douglas W. Allen, "Homesteading and Property Rights: or, 'How the West Was Really Won,'" *Journal of Law and Economics* 34 (April 1991), p. 6. - ٤٦
- Richard Current et al., eds *American History. A Survey*, 7th ed. (New York: Knopf, 1987), p. 149. - ٤٧
- Terry L. Anderson, "The First Privatization Movement," in *Essays on the Economy of the Old Northwest*, ed. David C. Klingman and Richard K. Vedder (Athens, Ohio University Press, 1987) p. 63. - ٤٨
- Current, *American History*, p. 150. - ٤٩
- Roy M. Robbins, "Preemption: A Frontier Triumph," *Mississippi Valley Historical Review*, Vol. 18, December 1941, pp. 333-334. - ٥٠
- المرجع المذكور - ٥١
- Ford, *Colonial Precedents*, p. 117. - ٥٢
- Lebergott, "O' Pioneers," p. 40. - ٥٣
- المرجع المذكور - ٥٤
- Messick, "A History of Preemption," p. 9. - ٥٥
- Tattler, *The Preferential Treatment*, pp. 91-92. - ٥٦ ورد في
- Messick, "A History of Preemption," p. 10. - ٥٧
- Act of May 18, 1796, *Public and General Statutes Passed by the Congress of the United States of America 1789 to 1827 Inclusive*, ed. Joseph Story (Boston, 1828). - ٥٨

٥٩. Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 118.
٦٠. ورد في المرجع المذكور، ص ١٢٥.
٦١. Patricial Nelson Limerick, *The Legacy of Conquest: The Unbroken Past of the American West* (New York: Norton, 1987), p. 59
٦٢. المرجع المذكور
٦٣. المرجع المذكور، ص ١٤٠
٦٤. Lebergott, "O' Pioneers," p. 44.
٦٥. المرجع المذكور.
٦٦. المرجع المذكور
٦٧. Richard E. Messick, "Rights to Land and American Economic Development," draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 44.
٦٨. Richard White, *It's Your Misfortune and None of My Own. A New History of the American West* (Norman: University of Oklahoma Press, 1991), p. 146.
٦٩. المرجع المذكور
٧٠. Stephen Schwartz, *From West to East* (New York: Free Press, 1998), pp. ٧٠. 105-110.
٧١. Lebergott, "O' Pioneers," p. 40. ورد في
٧٢. Anderson, "The First Privatization Movement," p. 63. ورد في
٧٣. Paul W. Gates, *Landlords and Tenants on the Prairie Frontier* (Ithaca: Cornell University Press, 1973) p. 13.
٧٤. المرجع المذكور، ص ١٦
٧٥. ورد في المرجع المذكور
٧٦. Gates, *Landlords and Tenants*, p. 24. ورد في
٧٧. Lawrence M. Friedman, *A History of American Law*, 2nd ed (New York: Simon & Schuster, 1986), pp. 241-242.
٧٨. Friedman, *A History of American Law*, p. 242. ورد في
٧٩. المرجع المذكور
٨٠. G. Edward White, *The American Judicial Tradition. Profiles of Leading Judges* (New York: Oxford University Press, 1976), p. 48.
٨١. Ford, *Colonial Precedents*, p. 129 (my emphasis) ورد في
٨٢. Gates, *Landlords and Tenants*, p. 27.
٨٣. *Green v. Biddle*, 8 Wheaton 1 (1823).
٨٤. المرجع المذكور، ص ٣٣
٨٥. المرجع المذكور، ٦٦
٨٦. Gates, *Landlord and Tenants*, p. 37
٨٧. Current, *American History*, p. 149
٨٨. ورد في المرجع المذكور، ص ٣١
٨٩. ورد في المرجع المذكور
٩٠. Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 265.

- Gates, *Landlord and Tenants*, p. 33. ٩١
- Bodley v. Gaither*, 19 Kentucky Reports 57, 58 (1825). ٩٢
- M'Kinney v. Carrol*, 21 Kentucky Reports 96, 97 (1827). ٩٣
- White, *It's Your Misfortune*, p. 139. ٩٤
- Gates, *Landlords and Tenants*, p. 46, *Congressional Record*, 43 Congress, ٩٥  
1 Session, 1603 (February 18, 1874).
- Pisani, *Water, Land and Law*, p. 63. ٩٦
- Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 154. ٩٧
- Gates, *Landlords and Tenants*, p. 44. ٩٨
- Paul W. Gates, "California's Embattled Settlers," *The California Historical Society Quarterly*, Vol. 41 June 1962, p. 113. ٩٩
- Messick, "A History of Preemption," p. 17. ١٠٠
- ١٠٠ ورد في المرجع المذكور
- ١٠٢ المرجع المذكور، ص ١٩
- Act of May 29, 1830, *Public Statutes at Large of the United States of America*, Vol. 4 (Boston, 1846). ١٠٣
- Act of September 4, 1841, *Public Statutes at Large of the United States of America*, Vol. 5 (Boston: Little and Brown, 1856). ١٠٤
- Messick, "A History of Preemption," p. 26. ١٠٥
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 69. ١٠٦
- Allan G. Bogue, "The Iowa Claims Clubs: Symbol and Substance," in *The Public Lands: Studies in the History of the Public Domain*, ed. Vernon Carstensen (Madison: University of Wisconsin Press, 1963), p. 47. ١٠٧
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 53. ١٠٨
- ١٠٩ المرجع المذكور، ص ٦٣
- Bogue, "The Iowa Claim Clubs," p. 51. ١١٠
- ١١١ المرجع المذكور، ص ٥٠
- ١١٢ ورد في المرجع المذكور، ص ٥٢
- Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 276. ١١٣
- Bogue, "The Iowa Claim Clubs," p. 54. ١١٤
- White, *It's Your Misfortune*, p. 141. ١١٥
- Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 280. ١١٦
- Terry Anderson and P.J. Hill, "An American Experiment in Anarcho-Capitalism: The Not So Wild West," *Journal of Libertarian Studies* 3 (1979), p. 15. ١١٧
- ١١٨ المرجع المذكور
- Bogue, "The Iowa Claims Clubs," p. 50. ١١٩
- ١٢٠ المرجع المذكور، ص ٥١
- ١٢١ ورد في المرجع المذكور، ص ٥٤
- White, *It's Your Misfortune*, p. 141. ١٢٢

- Bogue, "The Iowa Claims Clubs," p. 55. ١٢٢
- Tatter, *The Preferential Treatment*, p. 273. ١٢٤
١٢٥. المرجع المذكور، ص ٢٨٧
- John Q. Lacy, "Historical Overview of the Mining Law: The Miner's Law Becomes Law," in *The Mining Law of 1872* (Washington, D.C.: National Legal Center for the Public Interest, 1984), p. 17
- Robert W. Swenson, "Sources and Evolution of American Mining Law," ١٢٧ in *The American Law of Mining*, ed. Matthew Bender (New York: Rocky Mountain Mineral Law Foundation, 1960), p. 19.
- Gates, "California's Embattled Settlers," p. 100. ١٢٨
- Harold Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty in the United States," ١٢٩ draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 2
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 52. ١٣٠
- Limerick, *Legacy of Conquest*, p. 65, also see White, It's Your Misfortune, p. 147.
- Pisani, *Water, Land, and Law*, p. 69. ١٣٢
١٣٣. المرجع المذكور
- Gates, "California's Embattled Settler," p. 100. ١٣٤
١٣٥. المرجع المذكور، ص ٢٢ - ٢٦
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 26. ١٣٦
- Charles Howard Shinn, *Mining Camps. A Study in American Frontier Government* (New York: Knopf, 1948), p. 107
١٣٨. *Gore v. McBreyer*, 18 Cal 582 (1861). ورد في المرجع المذكور، ص ٢٢
١٣٩. المرجع المذكور، ص ٢١.
١٤٠. المرجع المذكور، ص ٢٤ - ٢٥
١٤١. ورد في المرجع المذكور، ص ٢٤
١٤٢. المرجع المذكور، ص ٢٩
١٤٣. المرجع المذكور، ص ٣٠
١٤٤. المرجع المذكور
- Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty in the United States," draft prepared for the Institute of Liberty and Democracy, p. 3.
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 35. ١٤٦
١٤٧. 14 Stat. 252 (1866).
- Swenson, "Sources and Evolution," p. 37. ١٤٨
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," p. 36. ١٤٩
- Krent, "Spontaneous Popular Sovereignty," p. 3
١٥٠. ورد في 3
- Lacy, "Historical Overview of the Mining Law," pp. 37 38; 17 Stat. 91. ١٥١
- 30 U.S.C. §§ 22-42.
- Jennison v. Kirk*, 98 U.S. 240, 243 (1878). ١٥٢
- Swenson, "Sources and Evolution," p. 27. ١٥٣

- Messick, "Rights to Land and American Development," p. 45. ١٥٤  
 White, *It's Your Misfortune*, p. 143. ١٥٥  
 ١٥٦. المرجع المذكور، ص ١٤٥  
 Gordon S. Wood, "Inventing American Capitalism," *New York Review of Books*, June, 9, 1994, p. 49. ١٥٧  
 White, *It's Your Misfortune*, p. 270. ١٥٨  
 White, *The American Judicial Tradition*, pp. 48-49. ١٥٩  
 Philbrick, "Changing Conceptions of Property Law," p. 694. ١٦٠

### الفصل السادس

- C. Reinold Noyes, *The Institution of Property* (New York: Longman's. ١ Green, 1936), pp. 2 and 13.  
 ٢. للاطلاع على مناقشة بليغة وحديثة جدا حول الموضوع، انظر William M Landes and Richard A Posner, "Adjudication as a Private Good," *Journal of Legal Studies*, Vol. 8, March 1979, pp. 235-284.  
 ٣. Noyes, *The Institution of Property*, p. 20.  
 John C Payne, "In Search of Title," Part 1, *Alabama Law Review*, Vol. 14, No. 1 (1961), p. 17.  
 ٤. Andrzej Rapaczynski, "The Roles of the State and the Market in Establishing Property Rights," *Journal of Economic Perspectives*, Vol. 10, No. 2 (Spring 1996), p. 88.  
 ٥. Robert C. Ellickson, *Order Without Law: How Neighbors Settle Disputes* (Cambridge: Harvard University Press, 1991). انظر  
 ٦. إثارة للاهتمام عن كيف تحكم التطبيقات خارج القانون علاقات الملكية في الولايات المتحدة  
 ٧. Richard A. Posner, "Hegel and Employment at Will. A Comment," *Cardozo Law Review*, Vol. 10, March-April 1989  
 ٨. Harold J Berman, *Law and Revolution: The Formation of the Western Legal Tradition* (Cambridge: Harvard University Press, 1983), pp 555-556.  
 ٩. المرجع المذكور، ص ٥٥٧  
 ١٠. Robert Cooter and Thomas Ulen, *Law and Economics. An Economic Theory of Property* (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1997), p. 79.  
 ١١. Margaret Gruter, *Law and the Mind* (London. Sage, 1991), p. 62.  
 ١٢. Bruce L. Benson, *The Enterprise of Law* (San Francisco: Pacific Research Institute for Public Policy, 1990), p. 2.  
 ١٣. للاطلاع على تقرير عن كيف حاولت المنظمات غير الرسمية التحول إلى القطاع الرسمي، انظر Hernando de Soto, *The Other Path: The Invisible Revolution*

in the Third World (New York: Harper & Row, 1989), especially Chapters 1-4.

Bruno Leoni, *Freedom and the Law* (Los Angeles: Nash, 1972), pp. 10-11. ١٤  
Robert Sugden, "Spontaneous Order," *Journal of Economic Perspectives* ١٥  
Vol. 3, No. 4 (Fall 1989), especially pages 93 and 94. Also see F.A.  
Hayek, *Law, Legislation, and Liberty*, Vols. 1-3 (London: Routledge and  
Kegan Paul, 1973).

Payne, "In Search of Title," p. 20. ١٦

John P. Powelson, *The Story of Land*, (Cambridge, Mass.: Lincoln Institute of Land Policy, 1988). انظر ١٧

Richard Pipes, *The Russian Revolution* (New York: Vintage Books, 1991), ١٨  
p. 112.

Samar K. Datta and Jeffery B. Nugent, "Adversary Activities and Per Capita Income Growth," *World Development*, Vol. 14, No. 12 (1986), p. 1458. ١٩

S. Rowton Simpson, *Land Law and Registration* (London: Cambridge University Press, 1976), p. 170. ٢٠

Peter Stein, *Legal Evolution: The Story of an Idea* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), p. 53. ٢١

٢٢ المرجع المذكور، ص ٥٥

Lynn Holstein, "Review of Bank Experience with Land Tiling and Registration," Working papers, March 1993, p. 9. ٢٣

J.D. McLaughlin and S.E. Nichols, "Resource Management: The Land Administration and Cadastral Systems Component," *Surveying and Mapping*, Vol. 49, No. 2 (1989), p. 84. ٢٤

## الفصل السابع

Lester Thurow, *The Future of Capitalism* (New York: Penguin Books, 1996), p. 5. ١

Hernando de Soto, *The Other Path: The Invisible Revolution in the Third World* (New York: Harper & Row, 1989). ٢

"Side Effects of Egypt's Economic Reform Warned," *Xinhua* (CNN), February 4, 1999. ٣

George F. Will, *The Pursuit of Virtue and Other Tory Notions* (New York: Simon & Schuster, 1982). ٤

Klaus Schwab and Claude Smadja, "Globalization Needs a Human Face," *International Herald Tribune*, January 28, 1999. ٥

Tim Padgett, *Newsweek*, September 16, 1996. ٦

George Soros, *The Crisis of Global Capitalism: open Society Endangered* - V (New York: Public Affairs, 1998), p. xxvii.

Eugene Kamenka, ed., *The Portable Marx* (New York: Viking Penguin, - A 1993), p. 463.

Nancy Birdsall and Juan Luis Londoño, "Assets in Equality Matters," - ٩ *American Economic Review*, may 1997

Kamenka, ed., *The Portable Marx*, p. 447, -١٠

Karl Marx, "Capital," *Collected Works*, Vol 28, p. 235 -١١

Thomas of Aquinas, *Summa Theologica*, Part I of Second Part Q 12., Art -١١ 4 (London: Encyclopaedia Britannica, 1952), p. 672

Ronald H Coase, "The Nature of the Firm," *Económica*, November 1937 -١٢

Margaret Boden, *The Creative Mind* (London: Ahacus, 1992), p 94 -١٤

Daniel C Dennett, "Intentionality," in *The Oxford Companion to the Mind*, -١٥ ed. Richard L. Gregory (Oxford: Oxford University Press, 1991), p. 384

John R.Searle, *The Construction of Social Reality* (New York: Free Press, -١٦ 1995), p. 46.

Michel Foucault, *Les Mots et les choses* (Saint Amund: Gallimond, -١٧ 1993).

Karl Popper, *Knowledge and ihe Body-Mind Problem* (London: Rout- -١٨ ledge, 1994).

Viviane Forrester, *L'Horreur économique* (Paris: Fayard, 1996), p. 61, -١٩ (ترجمتي)

Karl Marx, in Kamenka, ed., *The portable Marx*. pp. 444-447 -٢٠

Claude Lévi-Strauss, *Tristes tropiques* (Paris: Pion, Terre Humaine/Poche, -٢١ 1996), p. 354.

Fareed Zakaria, "The Politics of Port," *State Magazine*, Internet, March 16, -٢٢ 1999.

Francis Fukuyama's *Trust* (New York: Free Press, 1995) -٢٣  
مرجعاً حاسماً عن ظاهرة الثقة والتعاون الاجتماعي





## شكرو وتقدير

لم يكتب أحد مطلقا كتابا بمفرده فقد استندت من المعلومات والآراء والتشجيع والدعم المقدم من أشخاص كثيرين - كثيرون في الواقع إلى حد أنه يستحيل شكر كل منهم على حدة ولكن هناك عدة أشخاص لولاهم ما طهر هذا الكتاب على ما هو عليه. وأود أن أسجل عرفاني لهم كتابه:

أولا، هناك زملائي من «معهد الحرية والديمقراطية» في ليما، بيرو، الذين كانوا رفقاؤى الدائمين في سعيينا لإقامة نظام للسوق لا يقوم على التمييز، حيث يساعد القانون الجميع على أن تتوافر لهم فرصة للازدهار. والأفكار الواردة في هذا الكتاب تدعمها الحقائق والأرقام التي ترصل إليها ميدانيا فريق المعهد في مشروعاتنا التي قمنا بها في كافة انحاء العالم. إننى حقا أقف على أكتافهم وقد استخدم مانويل مايورجا لاتور، مسؤول التشغيل الرئيسى في فريقى، خبرته الطويلة كمهندس في مشروعات محطات الكهرباء لتخطيط وتنظيم كل مشروعاتنا، يوما بعد يوم، بصورة سليمة عبر مسيرتنا الحاسمة وأشرف لويس موداليس بايرو، وهو كبير الاقتصاديين في المعهد، على البحوث وتحليلات التكاليف والمنافع في البلدان التي عملنا فيها وعمله حاسم لنجاحنا في تحديد التكاليف المستترة للقانون والمؤسسات وقد ساعد لويس، جالاتيتى، وسانده عند الضرورة، ميتوريو كورفو.

وعلى الحائب القانوني، كان هناك زميلاي المصوبان والجديران بالثقة على مدار خمسة عشر عاما أنا لوتشيا كامبيدا التي أدارت الفريق القانوني للمعهد، وكانت مسؤولة عن تجميع الصورة القانونية كلها معا وساعدتها عن كلب ماريا ديل كارمن ديلجادو، كثيرة المحللين القانونيين لدينا إن لبيهما اذكى العقول التي عرفتھا في مجال التعددية القانونية فهما لا يفهمان القانون وحده، وإنما أيضا تداعياته. وقد ساند عملهم رجال قانون كثيرون في المعهد، كان الابطال الرئيسيون منهم، فيما يتعلق بهدف هذا الكتاب، جوستافو ماريني، جاكلين سيلفا، لويس الياجا، وجويلرمو جارسيا مونتوفار وكار المعاون الفني الرئيسي لنا هو دانييل هيرنسيا، الذي اقام فريقه المكون من حافيير رويلسى وديفيد كاستيللو، نظم الكمبيوتر الخاصة بنا في الميبدان وتولت إلسا خو إدارة المعهد، وساعدتها باقتدار محاسبتها الرئيسية إليانا سيلفا وباقي طاقم موظفيها

ثانيا، هناك من قدموا الأساس الفكري الذي سمح لي بمعالجة المعلومات التي حصلت عليها ولم يكن أحد اقرب لي خلال ملحمة كتابة هذا الكتاب من دنكان ماكدونالد، صديقي القديم والمرشد العالمي من اسكتلندا لقد كان دنكان هو الذي قدمني إلى علم المعرفة، خاصة البحوث التي تجري فيما له علاقة بنظرية العقل. ومن دواعي سروري، أن استطعت استخدام ما قرأته لتحليل نتائج على في الميدان. لقد تعلمت بالفعل من عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي دوجلاس أوزل عن جدوى مهارة عالم الأنثروبولوجيا «في الملاحظة القائمة على المشاركة» في عملي، وأستاذ القانون في جامعة جورج تاون، وارن شوارتز الذي علمني كيف أستطيع تطبيق مبادئ الاقتصاد لتحليل القانون لكن دنكان كان هو الذي أوضح لي كيف أن فلاسفة العقل يستطيعون مساعدتي على إبراز الصلات التي كنت أبحث عنها بين الملكية والتنمية وكانت مناقشاتنا حول كيف يستطيع البشر تحويل بيئاتهم إلى تعديد لعقلهم، حاسمة في فهمي لكيفية خلق رأس المال الحديث وعندما كانت الأمور تحتل علي، أو عندما كنت أوضع في مأزق فكري، أو اتخط في الظلام، كان دنكان هو الذي يتقدمي

واود أيضا أن اشكر الفيلسوفة الألمانية دوروثي كرويتزر التي قامت خطاي خلال دهالير دعاة ما بعد البنيوية الفرنسيين، خاصة جاك دريدا وميشيل فوكو وقد

تعلمت من ديدا أنك تستطيع أن تستخدم مقولات من ثقافة ما لوصف ثقافة أخرى بطريقة يستطيع الجميع فهمها - دون انتهاك الطابع الفريد للثقافة - ومن ثم أصبحت في وضع أفضل قدرة على منهم كيف كنا ندمج بجراح تربيّات الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون في قانون الملكية الرسمي وتعلمت من فوكو أساسيات «المعمار السري» الذي يربط غير المرئي بالمرئي، واستخلصت أيضا من كتاباته كيف يزيد نظام جيداً للتمثيل شروط الإمكان للجنس البشري كله، بل لقد زاد بدرجة أكبر إحساسى بالقوة والدلالة الاقتصادية للتمثيل، نتيجة لقراءتي في علم العلامات أساساً أعمال أومبرتو إيكو وفريدريش دي سوسير، وفلسفة العقل، خاصة عمل جون سيرل ودانييل دنيث

لكن زميلي وصديقي ماريانو كورينهو هو الذي كمل لأفكاري احتياز امتحان «لاندفول» القاسي فمهما كانت عبقرية ورشاقة فكرة ما، فإنه لم يكن يسمح لها بأن تدرج في مشروع للمعهد إلا إذا أوفت بشرطيه الأوليين، أن تجدى، وأن يستطيع أى شخص عادى تطبيقها وعندما أكون على صواب، كان يتسم ببساطة ويخبرنى باننى تعلمت فيما هو واضح («ليس هناك مشكلة، ليس هناك مشكلة») وعندما أكون على خطأ، كان يقودنى إلى الاتجاه الصحيح

وهناك أولئك الذين بدون إلهامهم وتشجيعهم ومساندتهم لم أكن لأصبح مطلقا في وضع يمكننى من كتابة هذا الكتاب فبعد اثني عشر عاما من الشراكة، أصبح ستيفان شميد هايمي صديقا عزيزا وقد أسهم ستيفان وهو مثقف ومحسن، وكذلك رجل أعمال ناجح لأقصى حد، بعدة طرق في نجاح المعهد فقد دعم جهودنا للتوصل إلى طرق لإتاحة الفرص للذين حرموا منها ظالما كما دعم إيماننا بأن الأسواق العالمية تغدو خطيرة بدون قوانين عالمية لكن الطريقة الأساسية التي أثر بها ستيفان في عمل المعهد هي بإصراره على الحاجة إلى الواقعية فإن لم تكن المثالية شبيهة بمشروعات الأعمال، فستظل المثل مجرد مثل وليس لها نفع لن نخرنا أنفسنا لمساعدتهم ولورنس تشيكرنج صديق مهم وعزيز آخر، وهو مثقف لامع من سان فرانسيسكو، ساعد المعهد في البدء في مشروعات ومغامرات كثيرة في مجال العقل، في حين عاونى شخصيا باستمرار بمشورته «الرابعة» المتعاطفة

ولا يمكن أن أنسى أصدقائى في وكالة التنمية الدولية بريان اتوود، نيك ماكال، جيم ميتشلز، نورما باركر، آرون ويليامز، باولا جودارد، وخاصة الأشخاص

الرابعين في إدارة أمريكا اللاتينية والكاريبي، مارك شنيدر، كارل ليونارد، مايكل ديل، تيموثي ماهوني، ويليام ب. بوكوم، دويالد درخا، وجولين سانداك فلم يزوبوا المعهد مدعهم وتشجيعهم طوال سنوات عديدة فحسب، وإنما أتاحوا لنا فرصا عديدة وعندما كنت أصايف مشكلة تنظيمية، كان صديقي القديم جون سوليفان الذي يدير مركز المشروع الخاص الدولي، يشرح لي كيف تعالجها المؤسسات في الولايات المتحدة كما علمني كيف تستطيع المجموعة الصحيحة من المؤسسات أن تحول المواقف المتصاربة إلى حلول قابلة للتطبيق ومريحة. وقد تعلمت من صديقي بوب ليتان من مؤسسة بروكيتجنز، ليس فقط كيف يؤثر القابون على السلوك الاقتصادي، وإنما أيضا أن هناك دروسا قيمة لباقي العالم عن كيف زادت الثورة المالية في الولايات المتحدة، تكوين رأس المال وفي أحد أيام شهر يونيو ١٩٩٩، جاء بوب إلى منزلي في ليما وقال، «لقد توصلت إلى عنوان عظيم لكتابتك - سرّ رأس المال». ولهذا أيضا أشكره

وتستحق مؤسسة سميث ريتشاردسون شكرا خاصا، لأنها دعمت كثيرا من العمل الذي تم من أجل هذا الكتاب في شكل منحة سخية والمؤسسة صديق قديم ومحلى، زودنا عندما كان يجري قصف المعهد بالفنابل وإطلاق النيران عليه في أوائل تسعينيات القرن العشرين، معربة مضادة للرصاص، مما مكنا من مواصلة عملنا

كما أدين بالامتنان لهارولد كرنيت، ساؤل ليفمور، ريك ميسيك، توم روميرو، ولاري سنای على جهودهم الجبارة في بحث تاريخ الملكية في الولايات المتحدة كما اتوجه بشكري للأصدقاء في «سجل أراضي جلاله الملكة» في لندن - خاصة جون مانثروب وكريستوفر ويست - لإرشادي إلى الكتب التي ساعدتني على فهم تطور الملكية البريطانية وقد ساعدتني مونيكا برحماير وكلاوس يواكيم هريجوالت على تقصى أصول الملكية الألمانية، وساعدني هانز - أوبرس ويلى الذي عرفني على أصول الملكية السويسرية، وأوضع لي تحول القانون الرومانى في التقاليد السويسرية والألمانية من نظام جامد من القواعد إلى نظام صديق للناس وقد أسهم بيتر شافير، صديقي في واشنطن العاصمة، بأفكاره وملاحظات ومذكراته، وقدمدني إلى آخرين لديهم نظرات متبصرة قيّمة بالنسبة لعملنا.

وقد ساعدتني ميران فان دير تارك على تقصى العلاقة بين حقوق الملكية وتنمية

المرافق العامة وعلمني أوسكار بيسلى كيف أحدى التأمين على السندات وتحويل الأصول العقارية لأوراق مالية وعمق روبرت فريدمان معرفتي الضحلة بالماركسية وكانت «لى» والكسندرا بنهام مفيتين لأقصى حد فى مراجعة المسودات الأولى لهذا الكتاب

كما استفاد هذا الكتاب من دعوات كثير من الحكومات والمنظمات غير الحكومية لتصميم وتنفيذ مشروعات فى بلدانها الأصلية، ترمى إلى رسمة الفقراء ومعا ساعدنى على أن أجعل هذا الكتاب مهما لمعظم البلدان فى العالم، الفرصة التى أتيت لى لجمع المعلومات، وتحليل المؤسسات والتشريعات، والحوار مع المشاركين فى كل من القطاعين الخاص والعمومي، والسرى عمليا فى كل قارة وفى هذه المرحلة، أستطيع أن أشكر علانية الزملاء فى أربعة فقط من البلدان التى نعمل فيها حاليا وفى مصر، أدين بالشكر لأصدقائي ونظرائي فى «المركز المصرى للدراسات الاقتصادية»، أحمد جلال، هشام فهمي، طاهر حلمي، وجمال مبارك والعاملين معهم وكان شريف الديوانى مفيدا طوال عمل المعهد فى مصر كذلك كانت مساندة رئيس الوزراء عاطف عبيد، ووزير المالية ممدوح حسنين، ووزير الاقتصاد يوسف بطرس غالى، ووزارة الشؤون الاجتماعية ميرفت القلاوى، حاسمة وفى هايتى، أدين بالشكر للمساعدة المستمرة من الرئيس رينيه بريفال، والرئيس السابق جان برتراند أرسيتيد والعاملين معهم كما أدين بالعرفان «المركز المشروع الحر والديمقراطية»، خاصة جورج ساسين، ليوبيل ديلاطور، برنار كران وجان مورييس بوتو وفى المكسيك، أدين بالعرفان للرئيس المنتخب فيسانت فوكسى، والذين دعمونا بأمر منه، ومن بينهم ادواردو سوخو، حوان هيرنانديز، فاوستو الزاتى، الفونسو جاليندو، اميليو دوهالو، وباحثين مهرة كثيرين وفى الفلبين، كانت المساعدة التى حصلنا عليها من الرئيس جوزيف استرادا، والسكرتير التنفيذي رونالدو زامورا حاسمة لتقديمنا وقد اكتملت بحوثنا بفضل جهود ومساندة فيك تايلور، إلى جانب أرسيتو جاريلا، خوسيه ب ليفستي، أرتورو ألفنديا، أليكسى ميلتشور، وكثيرين آخرين

ولم يكن محطوط هذا الكتاب ليرى النور مطلقا بدون إيريس ماكنزى، التى صويت لغنى الإحصائية فى عدد لا يحصى من المسودات. وباعتبارها القارئة الأولى لى، والفائز بالصياغة، كانت إيريس هى التى توجهنى باستمرار نحو توحى

الوضوح وأود أن أشكر مساعدتي ميريام جاجو لمساعدتنا على جعل المخطوط مناسباً في عيون الناشرين في كل أنحاء العالم ولكن الأكثر أهمية، إشرافها الكفء على حياتي وعلى المكتبي، مما أتاح لي أن أمضى أوقاتاً طويلة من الزمن بعيداً عن مكتبي أضاع هذا الكتاب

وأخيراً، أود أن أقدم شكرى وعرفانى لأشخاص عديدين ساعدوني على تحويل بصم أفكار جيدة إلى كتاب فقد كان وكيلى أندرو وايلى مصدراً أريباً للحكمة فى كيفية جعل الكتاب نابضاً بالحياة بالنسبة لجمهور دولى من القراء. لقد وضع معياراً عالياً، ولم يسمح لى مطلقاً بأن أقل عنه وبمجرد أن أصبح لدى المخطوط أصبح صديقى ديفيد فروم وميركو لاور هما المهندسين المعماريين له؛ وخلال عشر أيام، أخذنا المسودة القائمة، وقلناها رأساً على عقب، وعلى حد تعبير فروم، «عصر منها الماء»، وشكلناها فى هيكلها الحالى ولإعداد المخطوط النهائى للقاء من الناشرين المحتملين، كنت محظوظاً بأن يكون إلى جانبي ابوارد تيفنان وباعتباره صحفياً ومؤلفاً، جعلته رسالة الدكتوراه فى الفلسفة التى حصل عليها مشجعاً للأفكار ملتزماً بالمواعيد النهائية، أمضى تيفنان خمسين يوماً معى فى ليما، يعيد صياغة الكتاب كله، جملة بعد جملة

وقام بل فروشت، محررى الأمريكى، بعمل رائع فى إعداد الكتاب للنشر. وساعدنى فى توضيح كثير من النقاط مما حسّن الكتاب كثيراً وكانت سالى جامينارا محررتى البريطانية ولم يتفوق على موهبتها التحريرية إلا عبقريتها وإبداعها من أجل نشر هذا الكتاب والترويج له.

إن نجاح المنتج النهائى يرجع لكل من سبق ذكرهم أما أوجه القصور فيه

فترجع إلى يهدى







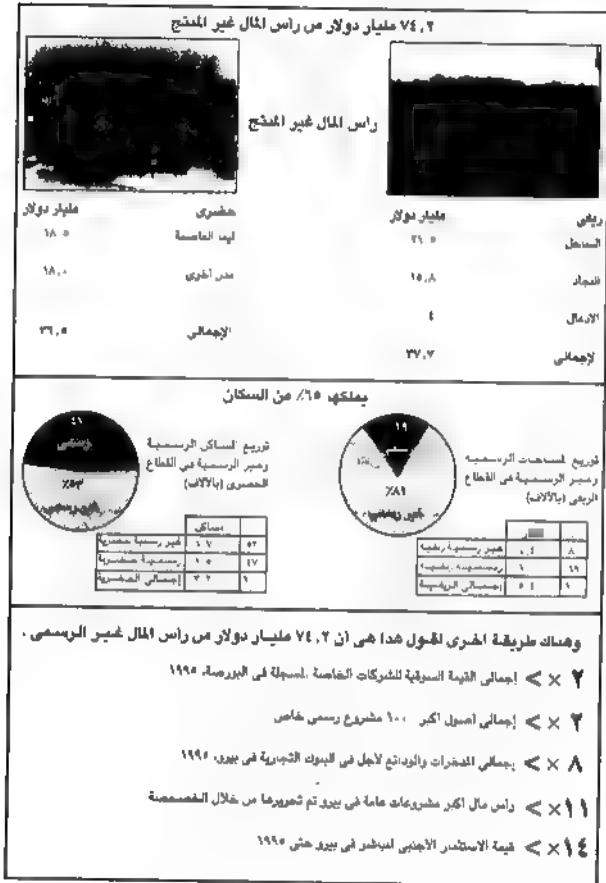
## التذيلات



شكل (١٠١) الفلين ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



شكل (٢-١) بيرو - ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟

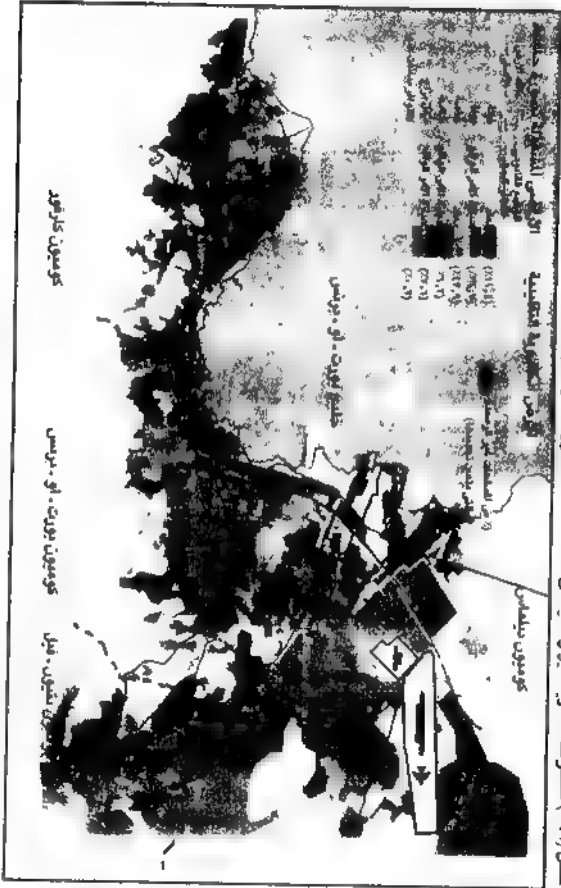


شكل (١-٣) هاييتي : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟



شكل (١ - ٤) مصر : ما مقدار رأس المال غير المنتج ؟





شكل (٥،٠) مستوطنة بشرية غير رسمية في منطقة العاصمة بورت - أو - ترانس

(١٠) نسبة التربة الملائمة للزراعة المسطحة المستوية وأراضي المساحة المسطحة غير الرسمية للزراعة الأريفة

شكل (١ - ٦) أنواع الإنشاءات الحضرية غير الرسمية في بورت - أو -  
دريس ومدن أخرى في هابيتي





شكل (١-٧) أمثلة من وحدات الإسكان الحضرية غير الرسمية في جمهورية مصر العربية



شكل (١-٨) أنواع الإشباعات الحضرية غير الرسمية في مصر



## فهرس

الأصول الجمعة، ٦٠	( ١ )
إدمج المعلومات، ٥٢-٥٤	دم سميت، ١١
انظر أيضاً مجموعات الملكية	والأسواق السوداء، ١٠
إزالة الأكواخ في بيجلاديش، ٧٠	مفاهيم لم يبيها سلف، ٤١، ٦٥
أساس فائض القيمة	عن منافسة مشروعات الأعمال، ٩٥-٩٦
رأس المال، ٤٠، ٢١٦	عن رأس المال، ٤٢، ٤٣، ٢١٤
تحويل الأصول، ٤٥	عن تقسيم العمل، ٤١-٤٢، ٧١
نظام الملكية، ٤٨، ٥١، ٧١، ٧٣، ٢١٨	إسب
نظم التمثيل، ١٥٧	الأصول المملوكة للأطفال ومهراتهم، ٥
أسباب عدم المساواة	إزالة الأكواخ في بيجلاديش، ٧٠
اللغة المكتوبة، ٢٢٣	رأس المال غير المنتج في المقارنات، ٣٦
القواميس المكتوبة، ٢١٠	( جدول )
اسماديا	النمو لاقتصادى المفروض بالقوة، ٢
استقلال أمريكا اللاتينية ( عشرينيات	إندونيسيا، ٧١، ٩١، ١٦١-١٦٢، ٢١٢
القرب ١٩)، ٢، ٢٠٨	انظر أيضاً الصين. اليابان
فى القرن التاسع عشر ٢٠٧=٢٠٨	الآن بوج، ١٣٧، ١٣٩
الاستثمار لأجسمى المباشر، القيمة السببية، ٥،	الآن جارسيد، ١٩٠-١٩١
٢٣، ٢٤، ٣٥، ٨٦	اتفاقية لأمى الدولية (١٨٩٩)، ١٦٥
لاستثمارات	الأحور، ٧١، ٨٠، ٩٣
التعليمية، ١٨٨، ٨١، ١٩٥	« لأحلافات البروتستنتية، ٢٢٤
توحيدها، ٦٤، ٢١٠	إدارة المحاطر
استبعاد الفقر المسمى فيها، ٤	أدوات التمنين، ٦٠، ٦١
الأسواق الملكية، ٥٢، ٥٤	نظام المسؤولية المحدودة، ٢٢٤
«أصدقاء الأرض»، ٨٥	

- إصلاحات الاقتصاديات  
لبنج ويابنج، ٦٩  
الاقتصادات المفتوحة، ٢٢٧، ٢١٠  
انظر أيضا العملة  
الأصول  
تحويلها لرأس مال، ٧-٨، ٤٠، ٤٦-٦٢  
قابليتها للتبدل والاستبدال، ٥٦-  
٥٨ ٦٣ ١٨٧، ٢١١، ٢١٩  
- الحيدة، الموارية، ٦، ٣٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٥  
قابليتها للتحويل، ٤٦، ١٨٧، ٢١١  
القيمة المضافة، ١٤٦، ٢١٩  
أصول، تحذرف الحكومة  
أخذلة بصورة غير قانونية، ٣١، ٧٠، ٧٧  
الحصصة ٢، ٢، ١٨٨، ٢٠٨  
القيمة المضافة، ٣٤، ٣٣  
انظر أيضا الشخصية  
مادة ميكة الدين، ٢٠٨  
في أعقاب الحرب الباردة، ١-٢، ٦٥-٦٦  
في أعقاب الحرب العالمية الثانية، ٨٠، ١٥٦  
- إعلان العالمى لحقوق الإنسان، ١٦٥، ٢١٧  
إفريقيا  
الأصول المملوكة للفقر، ومهراتهم، ٥  
رأس المال غير المنتج في المقدرات، ٣٦  
(جدول)  
جمع الأمور الإسلامية، ٩١  
جنوب إفريقيا، ٧٧-٧٨  
القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون فى  
رامبيا، ٦٩  
الاقتصاد الشائى انظر القطاع الذى لا يتمتع  
بحماية القانون  
اقتصاد السوق  
أدافعون عنه، ٢١٢  
افتراضات عن السكان، ٢١١  
لمستند إلى رأس المال، ٤١، ٦٣
- الانتقال الأوروبي إليه، ٩٩-١٠٠  
ونظام الملكية الرسمية، ٤٧، ٧٢، ١٩٥  
الأسواق الحرة، ٣، ٢١٢  
الأسواق المفتوحة، ٢، ٦٦، ٢١٠  
عدم تساوى فرص الوصول إليه، ٢١١  
٢١٢  
الاقتصادات السرية، ٩، ٦٩، ٢٠٩  
انظر أيضا القطاع الذى لا يتمتع بحماية  
القانون  
البريتو فوجيمورى، ١٩٠  
ألمانيا  
القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، ٩٩  
سجلات الملكية، ٥٤، ١٨  
حقوق الملكية الضامنة، ١٨٧  
أمريكا اللاتينية  
أصول المملوكة للقراء ومهراتهم، ٥  
محاولات لإقامة الراسمالية، ٣، ٨، ٢-٢٠٩  
البرازيل، ٢١، ٧٦، ٨٥، ٨٦  
كولومبيا، ٢  
البرعة الاستهلاكية ٢٠٨-٢٠٩  
رأس المال غير المنتج في المقدرات، ٣٦  
(جدول)  
الإكوادور (جوديا كويل)، ٦٩  
القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩،  
٧٤ ٧٥-٧٦، ٨٥  
التقاليد القاسية التاريخية، ٧٥  
الاستقلال عن أسبانيا (عشرينييات القرن  
١٩)، ٣، ٢٠٨  
انكسيتن، ٣، ٤، ٢٨، ٣٠-٣٢، ٧١، ٧٨، ٨٦  
الحصصة، ٨، ٢  
تقوى الملكية، ١٦٥  
سحق فئة ما دون الطبقات، ٢١٢-٢١٤،  
٢١٥  
مرويللا، ١، ٢١، ٨٦، ١١٢

الطونف البحرية، ٩٧-٩٨، ١  
 الحصرة، ٩٢، ٩٥  
 القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون في  
 أوروبا الغربية ٩٥-١٠٦  
 انظر ايضاً بندان فرادى البلدان القريبة  
 اوكرانيا، القطاع الذي لا يتمتع بحماية  
 القانون، ٦٩  
 اوليفر ويندس هولر ١٠٨، ١٥٣  
 برون، الموجهة الطبقة فيها ٢١٣  
 ابي هكشر، ٩٥، ٩٦  
 (ب)  
 البرريل  
 سكان عابث الاماري، ٨٥  
 المشروعات التي لا تتمتع بحماية القانون،  
 ٧٦  
 العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٢١،  
 ٨٥، ٨٦  
 برنامج الإصلاح الروابي، ٧٩، ٨٠، ١٦٧  
 ١٦٨، ١٧٦، ٢١٧-٢١٨  
 برامج تمويل المشروعات الصغيرة جداً، ٧٠  
 برمارد بايلي، ١١٠  
 بريطانيا  
 النعام الراسمالي، ٢٠٨  
 قانون الاراضي المعتد، ١٦، ١٠٥، ١٤٤،  
 ١٦٤  
 الثورة الصاعدة، ٧١، ٩٣، ١٦٤  
 في القرن التاسع عشر، ٣٠٧-٣٠٨  
 سجلات الملكية، ٦٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٤  
 صناعة الغزل والفسيج، ٩٦، ١٠١  
 انظر ايضاً البندان العربية  
 التحالفات الائتمانية، ٢٢٢  
 نكن، تدفق المهاجرين إليها ٦٩، ٧٧

انظر ايضاً هاييتي بيرو  
 امكانيات الاصول الكامنة، ٤٤-٤٦  
 تحديده وتثبيتها، ٤٢، ٤٥، ٤٧-٤٨، ٤٩-  
 ٥١، ٦٠  
 اوضاع تمت مراكمتها، ٥٧، ٥٨  
 غير المؤثرة، ٦، ٣٢، ٧٦، ١٩١، ٢١١، ٢٣٧  
 لاعم المتحدة  
 توصيات خاصة بالعملة الاجنبية ٥  
 «تقرير عن التنمية البشرية»، ٢١٥  
 «ملياً فور» ١١٦، ١١٣  
 «نيل انقصر» (بيل)، ٦٤  
 إنتاجية  
 وراس امال، ٤٢، ٤٩، ٢٠٩  
 عوائق اصمها، ٧١، ١٠١  
 اندرو جاكسون، ١٢٣  
 اندريه رنارياسكي، ١٧٠  
 اندونيسيا  
 لمراجعة الطبقة، ٢١٢  
 القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون،  
 ١٦١-١٦٢  
 والثورة الصاعدة الجديدة، ٧١، ٩١  
 انجودو مرنيل جويريرو، ٧٨  
 الإنجاز  
 معتمد على الصنوع، ٥٩  
 غير الفعال، ١٧٠  
 لائتمانات الرهن، ٦١  
 خدمات الشرطة، ١٩٦  
 اوتو شتايجر ٦٤  
 الوراق المالية استندة إلى رهن، ٦، ٣٢٢  
 أوروبا  
 رأس امال غير منتج في أوروبا الشرقية  
 ٣٦ (جدول)  
 حكاهما في القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨  
 سيماسيو «الطريق الثالث»، ٣

- البلدان الشيربية السابقة  
مشاريتها بالأمريكا اللاتينية، ٢٠٩  
أزمة في الرأسمالية، ٦، ٢٠٧  
روح تنظيم المشروعات، ٤  
الفقر النسبي في استونيا، ٤  
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢٩، ٦٩، ٨٢، ٨٤  
جورجيا، ٦٩  
مهباز نظام الملكية، ٨٢  
روسيا، ١، ٣٩، ٦٩، ٧٤، ٣١٥  
أوكرانيا، ٦٩  
الحضرة، ٨٢  
انظر أيضا البلدان العامية  
البلدان الغربية  
رأس المال المستخدم بكفاءة، ٣٠٩  
الهجرات العاشدة، ٤، ٧٣، ٩٣-٩٦  
إصلاحات قانون الملكية ٩، ١٦٥، ١٧٢-  
١٧٤، ١٨٦  
نظم حقوق الملكية، ٤٦، ٤٨، ٥١، ١٨٩،  
٢٢١، ٢٢٥  
انظر أيضا أوروبا الثروة الصناعية  
البلدان النامية  
مصادرة الأصول، ١٦٦-١٦٧، ١٩٦، ٢١٥،  
٢١٦  
الصفوة فيها، ١٧، ١٦٦-١٦٧، ١٩١، ١٩٥،  
١٩٧، ٢١٢  
عدم المساواة الصرخ، ٩، ٢٠٩  
موزيع النعم ٢١٥  
الثروة الصبعية الجديدة ١٢، ١٧-١٨،  
٧١-٧٣، ٨٦  
ممثل وفيات الأطفال الرضع، ١٧، ٨٠  
العمر المتوقع عند الولادة، ١٧، ٣١٥  
احصاء النعم، ١
- مسح المدن، ٣٠-٣٢  
نقص الرسمة، ٦، ٢٨، ٢١٢  
قيمة العقارات التي لا تتمتع بحماية  
القانون، ٣٥  
انظر أيضا رأس المال غير المنتج القطاع  
الذي لا يتمتع بحماية القانون، الحضرة  
البنك الدولي، ٣، ٣٤، ٣٥، ٢  
البوك  
المركية، ٦٤  
التجارية ٣٤، ٦٤، ٨٦، ١٩٥  
عدم الثقة في الضمانات، ٩١  
البنية الأساسية الحضرة  
التي شيدتها المقيمين، ٨٩  
البلدان الغربية، ١٩٤  
انظر أيضا امداف العامة  
بوب ميتكاف، ٧٢  
بورث - أو - برنس  
في مسح المدن، ٣٠-٣٢  
المستوطنات البشرية غير الرسمية، ٢٥٥-  
٢٥٦ (شكل)  
المعاملات العقارية، ٣١  
قيمة العقارات، ٣٣  
البورصات  
بورصة القاهرة، ٣٤  
في البلدان المتقدمة، ٣٥  
بورصة ليما ٣٣  
بورصة القليبي، ٣٤  
الولايات المتحدة، ٢، ٢، ١٠٧  
بورصة القليبي، ٣٤  
بول جيتس، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٤  
بيز  
التعاونيات الزراعية، ٣١  
الكويتشواس في جبال الأنديز، ٢٢٦  
مصادرة أصول، ١٦٦، ١٦٧

- مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون، ٧٦، ٨٣، ٩٢
- تقضى مشروعات الأعمال، ١٨، ٢٠، ١٥٤-١٥٥
- جامارا، ٩٢
- قانون الأراضي التاريخي، ١٤٤
- عـ مقدار رأس المال غير مستج ٢٥٢٩ (شكل)
- بيد، ٣٠-٣٢، ٣٣، ٩٢، ١٨٩-١٩٠
- برصة ليما، ٣٣
- الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣٦، ٣٣، ٣٤، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ١٦٨، ٢٢٦
- قيمة الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٨٧، ٣٣
- تقنين الملكية، ١٩ (شكل)، ٣٩، ١٩٠، ١٩٢-١٩٣ (شكل)، ٢٢٦
- إضفاء الطابع الرسمي على نظم الملكية، ١٨٩-١٩٥
- عن الآخر، ١٨٩
- «منظمة التقييمات التقنية»، ٩٢
- بيروقراطيات سجلات الملكية، ٦٩، ١٠٥، ١٢٤، ١٨٢، ٢١١-٢١٢
- انظر أيضا المنظمات التي لا تتمتع بحماية القانون
- بيل جيش، ٢٢٣، ٢٢٤
- ( ت )
- تبادل الأصول
- المستند لرأس المال، ٤١، ٢٠٩، ٢١٥
- الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦، ٧١، ٨٣-٨٤، ١٦٧-١٦٨
- فيما قبل الرأسمالية، ١٨٠-١٨١
- المفيد والراكد، ٣٢
- التجارة في حقوق الأرض المدعى بها، ١٣٩
- انظر أيضا المعاملات
- تثبيت العملة، ٣، ٦٦، ١٨٨، ٢١٠
- التجارة الدولية
- سبب للحصيرة، ٧٩، ٩١
- التحجير، ٨، ٢
- ورعاية الإنتاجية، ٤٢
- وهم مشروعات الأطر التنظيمية، ٢١٠
- علاج للارمة للاقتصادية، ٣
- المهربين، ٩٧
- الحواجز الجمركية، ١
- تحصيل الديون، ٦، ٥١
- تحصيل الضرائب، ٩، ٥١، ٦٠، ٩٧، ١٠٠، ١٩٥
- التخصص
- الدعم الرأسمالي له، ٤١-٤٢، ٢٠٩
- تقسيم العمل، ٦٣، ٧١، ٧٥، ١٦٣
- ريادة الإنتاجية، ٤١-٤٢
- تحفيض تكاليف المعاملات، ٥٨، ٢١٩-٢٢٠
- تراكم رأس المال
- «البذائي»، ٥٥، ٢١٧
- والتخصص، ٤١-٤٢
- تركيا
- الزرازال (١٩٩٩)، ٧٠
- المحضرة والجيسيكوبوس، ٧٧
- تشارلس هوارث شبي، ١٤٣
- التحذية القيدوية، ٥٣، ١٢٩، ١٧٥
- تغريب الدرعة الاستهلاكية
- تراجيح مطاعم الوجبات السريعة، ٢، ٦٦، ٢٠٨، ٢٠٩
- الإنتزمت، ٢، ٩، ٢٠٩
- أجدية «مايكي» وساعات «كاسيو»، ٢٠٧
- تر حيش محلات الفيديو، ٢، ٦٦

- «تقرير عن التنمية البشرية» ( الأمم المتحدة )،  
٢١٥
- التكنولوجيا  
وسم الملكية الرسمية، ٧٦-٧٢  
البرعة التكنولوجية غير الرسمية، ١٦، ٧، ٤،  
٨٦
- تكنولوجيا الأسطة، ٤  
توارث الميراثية الوطنية، ١  
التوجه نحو السوق، ٤  
توم بيغل، ٦٤  
توماس جيفرسون، ١٢٩-١٣٠، ١٨٧  
توماس بول، ١٧٤
- ( ث )
- الثروة  
حلقها، ٤١-٤٢، ٩٦، ١٦٣  
عدم الإنصاف فيها، ٤، ٩  
والإنتاجية، ٤٩، ٢٠٩  
في مميزات الفقراء، ١١، ٥، ٣٣، ٣٤، ٣٧،  
٤٧-٤٨  
الافتراضية، ٢٢٢  
انظر أيضا فائض القيمة  
ثروة الأمم، ٤١، ٢٠٩  
الثقافة، والراسمالية، ٤-٥، ٩، ٢٢٣-٢٢٦  
ثروة الاتصالات، ٨٠، ١٨٠، ٢٠٨-٢٠٩، ٢١٣  
الثروة الأمريكية، ١١٤، ١٢٠، ١٢٥  
الثروة الروسية، ٩٩، ١٩٥، ٢٠٨  
الثروة الصناعية، ٤١، ٧١، ٧٥، ٩٣، ١٠٠،  
١٠٢، ١٦٤  
الثروة الصناعية الجديدة  
والمن العملات، ٧١  
مع الخصخصة، ١٢، ١٧-١٨، ٧٠-٧١، ٧٣،  
٨٦
- الثورة الفرنسية، ٩٦، ٩٩، ١٩٥  
ثورة الملكية  
تحديد واستمالة الصفوة، ١٩١، ١٩٥، ١٩٧  
حتميات القيادة، ١٨٩  
الرعية الشعبية فيها، ١٩٠  
ثورة رجال القانون والحكام، ١٩٧، ٢٠١
- ( ج )
- ج إدوارد هوبز، ١٤٩  
جورج ضد بيبل (١٨٣٢)، ١٢١-١٢٤  
جنوب إفريقيا، ٧٧-٧٨  
جيسون ضد كيرت، ١٤٧  
جوايا كويل (الإكوادور)، ٦٩  
جور ضد ماكبرايس، ١٤٣-١٤٤  
جورج سمورس، ٢١٤  
جورج ميلر، ٦٣  
جورج واشنطن، ٩، ١٠، ١١٧، ١٢٠، ١٢٣  
جورج، القطاع الذي لا يتمتع بحماية  
القانون، ٦٩  
جورين وود، ١٠، ١٤٨  
جوريف ستوري، ٩، ١٢٩  
جوريف شومبيتر، ٦٤  
جوستافوس اولفوس، ملك السويد، ٩٨  
جون ب ياواسون، ١٨٥  
جون س باي، ١١٤، ١٨١-١٨٢  
جونا هينز، ٦٤  
جيرارد مارثيلمي، ٧٨  
جيفري ب توجت، ١٩٨
- ( ح )
- الحداثة، ١٨، ٨٠، ٨١، ١٨٧  
الحرب الأهلية، ٧، ١٤٥



- الحرب الكسبكية الأمريكية (١٨٤٨)، ١٢٦، ١٢٥
- ١٢٥
- الحصنة، ٧٧، ٩٢
- آسياها، ٨٠
- الصبي، ١٧، ٦٩، ٧٧
- الإكوادور، ٦٩
- مصر، ٦٩، ٧٨
- أوروبا ٩٢-٩٥
- ه.بيشي، ٦٩، ٧٨
- الهند، ٧٢
- الفلبي، ١٧، ٦٩
- هدم الوعي السياسي بها، ١١-١٢
- جرب إفريقيا، ٧٧
- الكتلة السوفييتية السابقة، ٨٧
- تركيا، ٧٧
- الولايات المتحدة، ٧٣
- المضرة في الفبين، ٢٠
- حقوق الاكتتاب بشراء الأسهم، ٢٢٤
- حقوق المساهمين، ٥١
- حقوق الملكية
- الخلافه بالورثة، ٥٧، ٢٢٤
- عقبات أمام التقنين، ١٩ (شكل)، ٣٠، ٣١، ٤٧، ١٦٦
- المقد الاجتماعي كاساس، ٢٢٦، ٢٢٤
- ٢٢٦
- فرض الحصول الشامل عليها، ١٦٥، ١٨٧
- انظر أيضا القطاع الذي لا يتمتع بحماية
- القانون: قانون الملكية
- الحكومات
- قبول القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون.
- ٨٣، ٨٩-٩٠، ١٧٦-١٧٨، ٢١٧
- إدارة التنمية ٧٢
- النقط العمياء لديها، ٧٣-٧٤، ٧٥-٩٣
- الرشاوى/ العمولات ٨٣، ٩٨، ١٠٠، ١٥٥، ١٩٦
- ١٩٦
- مركز السلطات، ٨١
- العسدة، ١٠٠-١٠١، ١٠٢، ١٥٥
- في الانتقد الاقتصادي، ١٥٨-١٥٩
- إدارات، لمخبرات ٢١٢
- برامج تمويل لمشروعات الصغيرة جد، ٧٠
- المعاهيم الحاطة، ١٥٤
- الوكالات العامة، ٦٦، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٨
- ترخيصات لها، ٧٥، ١٥٨-١٥٩، ١٦٨، ٢٢٧
- نقص القدرة، ٨٦-٨٧
- انظر أيضا أصول تديرها الحكومة
- صانعو السياسة
- حماية براءات الاختراع، ٤، ٧٠، ٨٣، ١٩٨، ٢٢٤
- حملات إصدار سندات الملكية، ١٩٦

( خ )

- الخصخصة، ٢، ٣، ١٨٨، ٢٠٨
- الخصم للمساعدة، قطاع لا يتمتع بحماية
- القانون فردي، ٢١٠-٢١١
- نظم ملكية الرسمية، ٥١، ٥٤-٥٦، ٥٩
- الصلابة بالورثة، ٥٧، ١١١، ١٩٦، ٢٢٤
- خلق الائتمان، ٦٤
- خلق رأس المال
- القوى البشرية الفعالة فيه، ١٩٧-١٩٨
- مرتبط بحقوق الملكية، ٦، ٤٦-٤٧، ١٤٩، ١٨١، ٢١٥-٢١٦، ٢١٨، ٢٢٦
- عجز الدول غير الغربية عنه، ٥، ٣٥، ٤٠
- حوار لويس لونينور، ٢١٤-٢١٥

( د )

- الدرب المصنوع، ٣٤
- الدستور الأمريكي، ٢٢٤

- دمج رعاويتج، ٦٩  
«دويتشه مورجان جريقل»، ٧٦  
دوبالديسانى، ١٣٦، ١٤١  
دوبالديستوارت، ٨٥  
ديفيد توماس كويج، ١١٢
- ( و )
- رأس المال  
تعريفه، ٤١  
إنتاجه واستخدمه بكفاءة، ٢٠٩  
فى أبهى القلة، ٦٧، ٢٠٧، ٢١٢، ٢٢٧  
باعتباره «جوهرًا مستقلًا»، ٢١٥  
«يثقف ومقتضيات العقل»، ٢١٨-٢٢١  
اسراره، ١١-١٣  
علاقته بالنفوذ، ١١، ٤٣، ٤٤، ٦٣  
كمصدر للثروة، ٤١-٤٢، ٦٦، ٢٠٩  
انظر أيضا رأس المال غير منتج، فائض القيمة  
رأس المال غير المنتج  
الأصول المستعملة غير المحققة، ٦، ٣٢، ٧٦  
١٩١، ٢١١، ٢٢٧  
عدم قابلية الأصول للتحويل، ٦، ٣٥، ٤٧-٤٨  
٤٨  
التبادل غير الرسمي للأصول، ٦، ٣١، ٧١، ٢١  
٢١  
العصر عن توليد رأس المال، ٥، ٣٢، ٣٥، ٢١٠، ٢١٣  
عملية الوسيلة، ١٥٩-١٦١، ١٦٠ (شكل)  
صمامات للفروض، ٦، ٩١، ١٥٥  
فى الصفارات على المناطق المالية، ٣٦  
(جدول)، ٢٥١-٢٥٨ (أشكال)  
انظر أيضا القطاع الذى لا يتمتع بحماية القانون
- الرسامالية  
كنظام للفصل العنصرى، ٢٧، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٧  
٢٢٣، ٢٢٧  
تفاصيلاتها (مركب)، ٢١٢  
فى أزمة، ١-٢، ٨، ٢٠٧، ٢٠٨-٢١٢  
الجواب الثقافية، ٩، ٢٢٣-٢٢٦  
شريان الحياة بالنسبة لها انظر رأس المال  
فى القرن التاسع عشر، ٧-٢٠، ٢٠٨  
حصولها انظر العدا للرسامالية  
العمل على مستوى اللاوعى، ٦٥  
انظر أيضا الرسامالية فى البلدان النامية:  
العولة  
الرسامالية فى البلدان النامية  
رأس المال المستخدم بكفاءة، ٧٥، ٢٠٩  
الجوانب الثقافية، ٤-٥، ٩، ٢٢٣-٢٢٦  
التحديث الاقتصادى، ١  
صناديق الاسواق الناشئة، ٣  
استثمروا الأجانب، ١، ٣، ٦٧، ٢١١، ٢١٤  
الوجود عند الأطراف أو المحيط الخارجى، ٢٠٧  
القطاع الخاص، ٣٠، ٣٣، ٣٤  
الموجون لها، ٢٠٩، ٢١٠  
انظر أيضا المستثمرون الأجانب، العولة  
«الربح الاقتصادى» (فورستر)، ٣، ٢٢٧  
الرهونات، ١٦، ٦١، ١٩٥  
روبرت ايكلويد، ٩٧  
روبرت تولىسون، ٩٧  
روبرت كوتر، ١٧٤  
روح تنظيم المشروعات  
الكتلة الشيوعية السابقة، ٤  
لدى الفقراء، ٣٠، ٣٤  
العالم الثالث، ٢٨، ٣٥، ٣٧، ٨٥  
الغربية، ١، ٧١  
أوروبا الغربية، ٩٩

البريطانية، ١٠٥، ١٠٦، ١٤٤  
سلسلة سندات التملك، ١٨٢، ١٨٤ (شكل)  
التي لا تتمتع بحماية القانون، ١٨٣، ١٨٥  
وظائفها، ٤٦-٤٧  
غير الكافية، ٦، ١٦٦  
اليابانية، ١٠٥، ١٥٦  
لغافيم الحائنة المتعلقة بها ١٥٦-١٥٧  
سقوط سور برلي، ١  
سندات الملكية  
الوثائق الرسمية، ٤٧، ٤٨، ٦٤، ١٨٢  
الوثائق غير الرسمية، ١٨٣، ١٨٤ (شكل)  
السفال، مدينة نوبا، ٩١  
سوق السلع الأساسية، بورصة شيكاغو، ٦٢  
السويد، القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٩٨  
سويسرا، ٤، ٥٤، ١٧٢-١٧٣، ١٨٧  
السياحة الشعبية، ١٤٦  
سهيون فاس، ٨٩  
(ش )  
الشركات  
المالية، ٥٨-٦١، ٦٧  
التنظيمية ٧٢  
الشرق الأوسط  
الأصول المملوكة للفقراء ومختراتهم، ٥  
رأس المال غير المنتج في المقاربات، ٣٦  
(جمل)  
المعرفة التاريخية بالسوق، ٤  
قناة السويس وسد أسوان، ٥  
انظر أيضا مصر  
شركات التأمين، ٦٠، ١٩٥  
الشيوعية، كفيدولوجية، ٢٠٨

انظر أيضا مشروعات الأعمال، التي لا  
تتمتع بحماية القانون  
روسيا  
الراسمالية في أرملة، ١  
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢٩،  
٦٩، ٧٤، ٢١٥  
الناتج المحلي الإجمالي، ٦٩، ٧٤، ٢١٥  
ملكية الأرض، ٢٩  
احداث العمر المتوقع عند الولادة، ٢١٥  
روبالد هـ كواس، ١٥، ٢٢٠  
ريشارد باييس، ١٩٥

## ( ز )

زامبيا، القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩  
الزراعة، ٨٠، ١٩٦-١٩٧  
انظر أيضا برامج الإصلاح الزراعي  
زيادة عمل الإنتاجية  
حقوق الملكية الرسمية، ٧٥، ٢١٨-٢١٩  
التخصص، ٤٦، ٧٥  
التجارة، ٤٣

## ( س )

س . ر سمبسون، ١٩٩  
س . راينولدسون، ١٥٨، ١٦٢  
سامارك داتا، ١٩٨  
سجلات وتاريخ الائتمس  
الأصول كسمن، ٦، ٣٩، ٥١، ٦٠، ٨٤  
فقد الفطلية، ٥٥  
سجلات الملكية  
وثائق الإصلاح الزراعي، ٢١٨  
اساس للنبة لاساسية، ٦، ٥١

( ص )

( ع )

- صانعو السياسة  
دعاة الإصلاح الاقتصادي، ٢١١-٢١٢  
رؤساء الدول، ١٨٨-١٨٩، ١٩٠، ١٩١  
، اختيار رجال نقابون، والمجاصي، ٢٠٠  
٢٠١  
الحفاظ على الوضع انقاسم، ٨٣  
١٨٨، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١١ - ٢١٢،  
٢١٣  
انظر ايضا الحكومات  
الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤  
حكوك الملكية، ٧، ٩٠  
صناديق اساعدة لانمانية، ٣٥  
الصناعات الصغيرة، ٢٨، ٢٢٤  
«صندوق النقد الدولي»، ٣  
الصبي  
بكم ٦٩، ٧٧  
راس المال هير لنتج في الصفارات ٣٦  
(حدول)  
اصلاحت نتج ريوبيج، ٦٩  
القطر انذى لا يتمتع بحماية القانون، ٦٩  
٧٧، ٧٤  
الفقر المسمى، ٤  
الحضرة، ١٧، ٦٩، ٧٧  
(ضى)  
المراتب المحصلة من الشركات القاويو،  
١٥٤ ١٥٥  
(ط)  
«طبعة الشركة»، (كواس)، ٢٢  
العالم الثالث  
الثورة الاقتصادية (خمسينيات القرن ٢٠)،  
١٦، ١٧  
روح تنظيم المشروعات: ٤، ٢٨، ٣٥، ٣٧،  
٨٥  
لستعمرات الإقطاعية، ٢٠٨  
انظر ايضا البلدان الدمية  
العالم الثاني، ٢١٧  
«عجلات التجارة» (برودل)، ١  
العداء للراسمالية  
وفش الراسمالية، ٣٠-٣١، ٢١٤  
أعداء التمثيل، ٢٢٢-٢٢٣  
عدم الامتقرار السياسي، ٢، ٩، ٢٠٩  
عدم المساواة  
البلدان النامية، ٩، ٢٠٩  
الفصل العنصرى لاقتصادي، ٦٧، ٢٠٩  
٢١٣، ٢٢٣، ٢٢٧  
«عقارات التي لا تتمتع بحماية القانون»، ٢٠-  
٣٥  
الفايفلا البراربية، ٢١، ٨٥، ٨٦  
الصبي، ٧٧  
تشبيدها ٧٦، ١٩١، ١٩٤  
مصر، ١٦، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٩، ٢٢٦،  
٢٥٧-٢٥٨ (شكل)  
هايبستى، ٢٥، ٢١، ٢٣، ٧٨، ٢٥٥-٢٥٦  
(شكل)  
اندونيسيا، ١٦١-١٦٢  
المكسيك، ٧٨، ٨٦  
الإسكان العسكري، ١٧٦  
بيسرو، ٢٣، ٢١، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ١٦٨  
٢٢٦  
العلم، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٧٧

- ( غ )
- جنوب إفريقيا، ٧٧
- السويد، ٩٨
- الولايات المتحدة، ٩-١٠، ١٦-١٧، ١٠٥-١٠٦
- ١٥٩
- الراشدين الفرونية، ٨٦
- «الصواني» في غربي أوروبا، ٩٤، ٩٥-٩٩
- انظر أيضا رأس المال غير المنتج؛ مغل
- الأكواخ واضعو اليد
- العقد الاجتماعية
- أساس لحقوق الملكية، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦
- إيرك الحكومات لها، ١٨٧، ٢٢٧
- الوطنية-١٥٧-١٥٨، ١٦١، ١٧٣-١٧٤
- ١٧٩، ٢٠٢، ٢١٨
- العقد الاجتماعية التي لا تلتزم بحماية
- القانون ١٧١-١٨٠
- البلدان النامية، ٢٨، ٨٧-٨٨، ١٠٣، ١٥٦-١٥٧
- ١٥٧، ١٦٢
- مفاهيمها، ١٨٠
- المفاهيم الماطنة تجاهها، ١٥٤
- الأمريكية، ١١٦-١١٧، ١٣٦، ١٤٥-١٤٦
- البلدان الغربية، ١٠٦
- العملات الورقية، أصلها، ٦٣، ٢٢٢
- العلة
- الفصل المصري / المصرية فيها، ٣٠٧-
- ٢٢٧، ٢١٣
- اقتراضاتها، ٢١٠-٢١١
- عولة الراسمالية، ١٨٩، ٢٠٧-٢٢٧
- أسبابها، ٢١٠
- الاعتماد المتبادل، ٧٠
- السياسات الاقتصادية الكلية، ٦٦، ١٠٣، ١١٥، ٢١١
- انظر أيضا البرقة الاستهلاكية: التجارة
- الفصل العنصري القانوني، ٦٧، ٨٢-٨٤
- ١٨٨، ٢١٣، ٢٢٣
- الاستثمار في الولايات المتحدة، ١١٠-
- ١١٣
- الفقر
- تخفيف عبث، ٧٥
- معدل النمو، ٢١٤-٢١٥
- «الدولي»، ٣٥
- المستوى «العادي» له، ٧٥-٧٦
- «جيوية»، ٢١٢
- النسبي، ٤
- سقط فئة ما دون الطبقات، ٢١٢-٢١٤، ٢١٥
- فقراء الناس
- الأصول المصادرة، ١٦٦-١٦٧
- الأصول المملوكة للفقراء ومعدلاتهم، ٥
- ١١، ٤٨-٤٧، ١٧٠، ٢٢٧
- عملية الرسالة، ١٨٨
- والفهم الطبقي، ٢١١، ٢١٣-٢١٤
- العقد التعاونية، ١٩٠

- السيطرة على التجارة، ٣  
تيميشهم، ٦٦، ٧٥-٧٦  
منظورهم، ١٨٩-١٩١، ١٩٣-١٩٦  
الفقر النسبي، ٢٨-٣٠، ٢١٢  
كحل لمشكلة رأس المال، ٢٧، ٢٢٧  
البراعة التكنولوجية، ٤، ٧، ١٦  
الإمكانات غير المكتشفة، ٦، ٣٢، ٧٦، ١٩١، ٢١١، ٢٢٧  
قيمة الملكية التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣٠-٣٢، ٤٧-٤٨  
انظر أيضا القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون: الفقر  
الطبيعي  
العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٣١، ٣٣، ٢٤  
صا مقدار رأس المال غير المنتج، ٩، ٢٥١ (شكل)  
مانيفلا، ٣٠-٣٢، ٣٣، ٧١  
تضمن الملكية، ٢٠، ٢٢-٢٣ (شكل)  
فسويلا  
لرأسمالية في أزمة، ١  
المواجهة الطبقة، ٢١٢  
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢١، ٨٦  
فيرناند بوبل، ١، ٦٦-٦٧، ١٥٣، ١٥٦  
فيليبين فورستر، ٢٢٢  
(ق)  
قانون التملك للسوق، ١٤٤  
قانون الملكية  
الوظائف والكويات، ١٥٧-١٥٩، ١٧٩  
فشل القانون الإلزامي، ١٦٤-١٧١  
انظر أيضا النظم القانونية
- قانون ميتكالف، ٧٢  
القاهرة  
رأس المال غير المنتج، ١٦  
العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٢٠-٣١، ٣٣  
الإشادات الحضورية غير الرسمية، ٢٥٨ (شكل)  
القرن العشرين  
تصديت للرأسمالية، ٣، ٢٠٨  
البلدان الرأسمالية العظمى، ٢٠٨  
«قصة الأرض» (باولسون)، ١٨٥  
القطاع الإجرامي  
مهرمو المخدرات، ٢، ٧٠، ١٩٦-١٩٧  
رجال الحسابات، ٣٠، ٧٠، ١٠٧، ١٧٩، ١٩٦  
المايفلا، ٩، ١٥٥، ٢٠٩، ٢٢٧  
المهربون، ٩٧  
القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون؛  
الأسواق السوداء، ١٠، ٢٠، ٧٦، ١٢٦  
النمو الأسّي، ١٧٨  
القبول الحكومي له، ٨٣، ١٧٧-١٧٨، ٣١٧  
الإسكان انظر العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون  
الذي تم إفقاره، ٨٩، ٢١٣  
العادي، ليس الهامشي، ٣٠، ٨٦  
عقبات أمام التقدم، ١٩ (شكل)، ٣١، ٤٧، ١٦٦  
الذي تم تسوية وضعه رسمياً، ٥٣، ١٠٢، ١٠٦-١٠٨، ١١٥، ١١٩-١٢٠، ٢١٣  
الانتقال منه، ١٠٦، ١٥٤-١٥٥، ١٥٨-١٦١  
الاقتصادات الصرية، ٩، ٦٩، ٢٠٩  
انظر أيضاً مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون: واضعوا اليد، الحضورية

- القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون في  
محطة الكاريبي، ٦٩  
القلل الاجتماعية  
المصيان المدني، ٩٥، ٩٨، ٢٢٧  
الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤  
الصراعات العرقية والثقافية، ٢١٣  
حوادث التفتيش بشأن الطعام، ٣  
الاحتجاجات ضد صندوق النقد الدولي /  
البنك الدولي، ٣  
عدم الاستقرار، ٢  
المستوى الدولي، ٢١٣  
المعرضون السياسيون، ٣، ٧٠، ٢١٣  
الحركات الثورية، ١٠٩  
الاحتجاجات ضد منظمة التجارة العالمية  
(سياتل)، ٣
- { ك }
- كارل بولاتاي، ٣  
كارل ماركس، ١١  
مفاهيم لم يتيبها سلفا، ٦٥، ٢١٥-٢١٦  
تحول الأصول إلى شيء متعال، ٤٣، ٢١٤،  
٢١٥  
عن تراكم رأس المال، ٤١-٤٢  
عن الصراع الطبقي، ٢١٢، ٢١٣-٢١٤  
عن النظم التنشيلية، ٢٢٢  
عن فائض القيمة، ٢١٧  
كاليفورنيا  
الفقر المسمى في ياجا، ٤  
النجاح الاقتصادي، ٤  
هوجة الذهب، ١٤٠-١٤٧  
المر الحضرى فى لوس انجيلس، ٧٣  
سلطة قضائية للملكية (١٨٤٩)، ٥٢  
الكساد الكبير، ٢٠٨، ٢
- كلوس شواب، ٢١٣  
كمبيالات الدين، ٦٣  
الكمبرتر  
ومشتقات الملكية، ٢٢٢-٢٢٣  
تكنولوجيا رسم الخرائط، ١٥٦، ١٥٧،  
١٥٨، ١٦٩  
كندا، الملكية الرسمية، ١٦٥
- { ل }
- لائحة الأجور، ٥٧، ١٠١  
لوبيها، سندات ملكية الأراضي القبلية، ٩٠  
ليستر ثور، ٢٠٨
- { م }
- ماريو فارغاس لوزا، ١٩٠  
المافيا، ٩، ١٥٥، ٢٠٩، ٢٢٧  
ماليزيا، أزمة الرأسمالية فيها، ٣  
مانيللا، ٣٠-٣٢، ٣٣، ٧١  
مايكل ميلكن، ٧  
المؤسسات  
تكيفها، ٧١  
عدم كفايتها، ٧٣  
استيعاب المؤسسات القانونية، ٦٦  
الاحتجاج عليها، ٢  
المنظورة جيدا، ٧٣  
مؤشر داو جونز الصناعي، ٢، ١٠٧  
محاضر محمد، ٢  
الحامون ورجال القانون، ٦٧، ١٩٠، ١٩٧-  
٢٠٩  
المحكمة العليا للولايات المتحدة، ١٣١-١٣٣،  
١٣٤، ١٤٧  
محكمة كاليفورنيا العليا، ١٤٢

المستثمرون المحليون	المحركات
ملكية رأس المال. ٦٧	الاجسول المملوكة للفقراء. ٥، ١١، ٤٧-٤٨
انظر أيضا المستثمرون الاجانب	ترهصيات. ٢٢٧
مشروعات الأعمال التي لا تتمتع بحماية القانون. ٢٨-٣٠	مسن الاكواخ
صناعة التشييد في البرازيل. ٧٦	بمجلاديش. ٧٠
منطقة الكاريبي. ٦٩	هايتي. ١٨، ٧٨، ٨٦
ورش صغيرة تدفع أجور منخفضة وتسودها ظروف غير صحية بالعين. ٦٩، ٧٤	المقامة على الأراضي الحكومية. ٣٦، ٧٠.
صعوبة تحديد المواقع. ٦	٧٧
العمالة فيها. ٣٦، ٢٨-٢٩، ٦٩، ٧٤	بيرو. ١٨٩
منظمو المشروعات. ٢٨، ٧٤، ٧٩، ٨٤، ٢١٦	تركيا. ٧٧
هايتي. ١٨	انظر أيضا العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون
الصناعة اللحويلية. ٩٢، ٩٦-٩٩	المس الملافة. ٧١
المكسيك. ٢٨، ٧٨	المراقب العامة
طبقات التشغيل. ٨٣، ١٥٥	المقدمة على العنوان. ٥٩، ٥٩، ١٩٥
بيرو. ٧٦، ٨٣، ٩٢	إبشازها. ٦، ١٩٤-١٩٥
روسيا. ٦٩، ٧٤	اضطراب الحكومة فيها. ٥٩، ١٧٤
الدول السوفيتية السابقة. ٢٩، ٦٩	عدم كفايتها. ١٨، ٥٦، ٧٣، ٧٧
ورش صغيرة تدفع أجورا منخفضة وتسودها ظروف غير صحية. ٦٩، ٧٠، ٧٤	الصرف الصحي. ١٨، ٧٣، ١٨٥
النقل العام. ٢٨، ٧٠، ٧٩، ٨٩	الضمان الفدية / المالية. ٥٩-٦٠
التي تشكو نقصا في رأس المال. ٦، ٢٨، ٢١٢	سرقة الخدمات. ٢٨، ٢٩، ٥٩، ٦٠، ٧٠
لا تتحد شكل شركات. ٦، ٧، ١٥٥	مرجريت بون. ٢٢٠
الساعة. ١٨، ٢٨، ٧٠، ٧٩، ٩٦، ١٧٩	مرجريت جرور. ١٧٥
فرويل. ٢١	مرسوم هومستود. (الولايات المتحدة (١٨١٢).
أوروبا الغربية. ٩٥-١٠١	١٠٧-١٠٨، ١٤٧
زامبيا. ٦٩	مركز الدراسات الاقتصادية للقطاع الخاص. ٧٨
انظر أيضا روح تنظيم المشروعات	الركنتالية. ١٧، ٩٤، ٩٩، ٢٠٩
مشروعات الأعمال القانونية	المستثمرون الاجانب
ياعتها قطاعا يلتزم بالقانون. ٢١٢	احتفاظهم خلال الكساد. ٣
عقبات أمام دخولها. ١٨، ٢٠، ١٥٤-١٥٥	تعزيزهم. ١، ٢١١
	الذين لهم صلات بأهل الداخل. ٦٧
	الشركات متعددة الجنسيات. ٢١٤
	ملكية رأس المال. ٦٧



- القضاح الخاص، ٢٠، ٣٣، ٢٤
- مصدر
- الاستكثارية، ٩٠
- الأصول المملوكة للفقراء ومدهراتهم، ٥
- القاهرة، ١٦، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٢٥٨ (شكل)
- بيروسة القاهرة، ٢٤
- الراسمالية، ٢٠٩-٢١٠
- رأس المال غير منتج، ١٦، ٢٥٤ (شكل)
- عقبات أمام التنظيم، ٢٠-٢١، ٢٤-٢٥ (شكل)
- العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ١٦
- ٣١، ٣٣، ٣٤، ٩٠، ٢٣٦، ٢٥٧-٢٥٨ (شكل)
- الحضرة، ٦٩، ٧٨
- المعاملات
- حمايتها، ٦١
- انظر أيضا تبادل الأصول
- المعاملات التي لا تتمتع بحماية القانون
- مغارمها، ٤٧، ٧١، ٨٧، ١٦٣
- غير الرسمية، والمحصنة، ٣٩، ٧٤
- الأنواع المسجلة فيها، ٨٨
- غير القابلة للإنفاذ، ١٦، ٨٣
- معدلات التبادل، ٢٢٦
- معلومات الملكية
- خدمات وصف الأصول، ٦١-٦٢
- المتكاملة، ٥٢-٥٤، ١٦٢
- التميلية، ٥٣، ٥٧-٥٨
- المتاحة للكافة، ٥٣
- مصدر القدافي، ٩٠-٩١
- «معهد الحرية والديمقراطية»، ١٦١
- «المعهد الوطني المكسيكي للإحصاء»، ٢٩
- المفهوم الطبقي، ٢١١-٢١٢
- مكافحة التضخم، ٢٠٨
- المكتب العام للأراضي، الولايات المتحدة، ١٢٤-١٢٥، ١٤١
- المكسيك
- القضاح الذي لا يتمتع بحماية القانون، ٢٨
- ٧٨، ٨٦
- النتائج المحلي الإجمالي، ٧٨
- المعرفة التاريخية بالأسواق، ٤
- الغلاقل الاجتماعية، ٢
- مكسيكوسيني، ٢٨، ٣٠-٣٢، ٧١
- الملكية
- رأس المال / النقود كوسيط، ٦٢
- مفهرمها، ٤٩-٥٠
- مشتقاتها، ٢٢٢-٢٢٣
- انظر أيضا النظم الثنائية
- ملكية الاستثمار، ٥٧، ٦٧، ٨٦-٨٧
- ممارسة حوس امتلاكات، ١٨٧
- من يعيشون خارج النافوس الزجاجي، ٧٥-
- ٩٢، ٢١٢، ٢١٣
- من يعيشون داخل النافوس الزجاجي
- معادلة برونز، ١، ٦٦-٦٧
- المخدمون ورجال القانون، ١٩٠، ١٩٧-٢١٠
- أراء عن الثقافة، ٢٢٤-٢٢٥
- القلة ذات الامتيازات، ٦٧، ١٥٣، ١٨٨،
- ٢٠٧، ٢١٢، ٢٢٣، ٢٢٧
- المنافسة ومشروعات الأعمال في أوروبا
- الغربية، ٩٥-٩٦، ٩٩
- «المنتدى الاقتصادي العالمي»، ٢١٢
- منظمات القطاع الذي لا يتمتع بحماية القانون
- البلدان النامية، ٨٧-٨٩، ١٤٩، ١٧٤، ١٧٧
- ١٧٨
- أنواعها المسجلة، ٨٧-٨٨
- جمعيات الحقوق المدعى بها في أمريكا،
- ١٣٦-١٤٠
- منظمات الفائزين بالتمهيد الأمريكية، ١٣٦-
- ١٣٧، ١٤٠-١٤٨
- «منظمة التجارة العالمية»، ١٨٦، ٣

- منظمة العمل الدولية، ١٦٥، ٦٩  
 مهريو المخدرات، ١٩٦-١٩٧، ٧٠، ٢  
 الميليشيات، ٢
- ( ن )
- نانسي بيريسال، ٢١٤  
 النظام المصرفي :  
 دور الملكية، ٦٣  
 الثقافة في الممارسات المصرفية، ٣  
 نظام الملكية بالولايات المتحدة، ١٥٦-١٥٥  
 المنازعات، ١٠٩-١٠٨، ١٦-١٧، ١١٤، ١٢٦-١٢٧  
 النظام الرسمي، ٥٣، ١٠٥، ٢٢٤، ٢٢٦  
 دمرسوم هومستيد، ١٠٧-١٠٨، ١٤٧  
 للتكامل، ٥٣، ١٤٥-١٤٩  
 سلطات قضائية (١٨٤٩)، ٥٣، ١٤٠-١٤١  
 قوانين شغل الأراضي، ١٢٠-١٢١، ١٣٤-١٣٥  
 النظام الأساسي لحق التشفعة، ١١٩-١٢٠، ١٣٥، ١٤٠  
 انظر أيضا المنظمات التي لا تتمتع بحماية  
 القانون: نظم الملكية الرسمية  
 النظام النقدي، ٦٣  
 نظم تسجيل الأصول، ٤٦-٤٧  
 خدمات الوصف، ٦١-٦٢  
 الجسدة في سندات ملكية، ٤٧، ٤٩-٥٠  
 معايير التشغيل، ٤٧، ٦٢  
 للنظم التمثيلية :  
 الغائبة في البلدان النامية، ٦-٧  
 انفصالها عن الأشياء، ٤٩-٥١، ٥٦  
 اليونانية / الرومانية، ٢٢٤  
 إدماج المعلومات، ٥٢-٥٣  
 خصومها، ٢٢١-٢٢٤
- أدوات التخطيط الاستراتيجية، ٥٨  
 أدوات للسرقه، ٢١٦-٢١٧  
 التوثيق الغربي، ٦-٧  
 اللغة المكتوبة، ٢٢٢  
 نظم سندات الملكية، ١٦٦-١٦٧، ١٦٩  
 جوانبها الفنية، ٢٠٢، ٢٠٤  
 النظم القانونية :  
 الفاسدة، ٩٩-١٠٠  
 عدم احترامها على نحو فاضح، ٩٠، ١٠٠  
 ١٧٥، ٢٠٩  
 العداء للمهاجرين، ٨٢  
 الدولية، ١٦٥  
 القدرة على دفع ائتاب للماعين، ٦٧  
 وتكوين الشبكات، ٧٢  
 إصلاح النظام القانوني الموحد به، ٧٥، ٢٢٧  
 الرومانية، ٥٣، ٦٢، ١٨٠، ٢٠٠  
 الانتقال إليها، ١٥٧-١٥٨، ١٦١-١٦٤  
 ١٨١-١٨٧، ٢١٠-٢١١  
 العالم الغربي، ٢١٦  
 انظر أيضا قانون الملكية  
 النظم القانونية التي لا تتمتع بحماية القانون :  
 حل الشفرة / إعادة البحث، ١٨١-١٨٧  
 البلدان النامية، ٥٩، ٧١، ٨٤، ٨٧، ١٧٥-١٧٦  
 ١٧٦  
 «قانون الناس»، ١٦٢، ١٧٣، ١٨٦  
 الولايات المتحدة، ١٢٩، ١٣٦-١٤٨  
 انظر أيضا التنظيمات التي لا تتمتع بحماية  
 القانون: العقود الاجتماعية التي لا تتمتع  
 بحماية القانون  
 نظم الملكية الرسمية، ٢٠٧-٢١٨، ٢٢٢-٢٢٦  
 حماية الأصول / الملكية، ٤٦، ٦٧، ١٥٨  
 وخلق رأس المال، ٦، ٣٥، ٤٦، ٢١٥-٢١٦، ٢١٨، ٢٢١

استراتيجيات المدخلات / المخرجات، ٣١٩  
ونظام الملكية المتكامل، ٥٣، ١٥٠  
تأثير المحامين ورجال القانون، ١٩٨

(هـ)

هارولد بيرمان، ١٧٢

هارولد ديمستز، ٦٤

هايبوش :

الأصول المملوكة للقراء ومخبراتهم، ٥  
مضروعات الأموال التي لا تتمتع بحماية  
القانون، ١٨  
ما مقدار رأس المال غير المنتج، ٢٥٣  
(شكل)

الاستقلال عن فرنسا (١٨٠٤)، ٥

عقبات أمام التقنين، ٢١، ٢٦-٢٧ (شكل)

بروت، أو. برانس، ١٧، ٣٠-٣٢، ٦٩،  
٢٥٥-٢٥٦ (شكل)

وثائق حقوق الملكية، ١٨٣

العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٢٥،  
٣٦، ٧٨، ٢٥٥-٢٥٦ (شكل)

قائمة المقارنات التي لا تتمتع بحماية  
القانون، ٣٣، ٨٧

مدن الأكواخ، ١٨، ٧٨، ٨٦

الحضرة، ٦٩، ٧٨

هروب رأس المال، ٩، ٢٠٩

الهند :

بومباي، ٩٢

نمو كالكتا، ٧٣

النمو في دلهي، ٧٣

هنري يونليريك، ٧٧

هولندا في القرن التاسع عشر، ٢٠٧-٢٠٨

مجلسنة من أجل نوى الاستيانات، ٦٧،  
٣١٤، ٣١٢

المستوى، ١٦٥، ١٦٦، ٢١٧

الجوانب الثقافية، ٢٢٢-٢٢٦

العقود القابلة للإنفاذ، ٥٥-٥٦، ٥٩، ١٩٨،  
٢٢٤

للتداعيات، ٢١٥-٢٢٣

المتكاملة، ٥٣، ١٤٥-١٥١، ١٥٧-١٥٩،  
١٨٧، ١٦٣

فقد الغلبة، ٥٢-٥٥

المناصرة السياسية لها، ١٨٧-٢٠٥

وسجلات الملكية، ٤٦، ٤٧-٤٢٤

توصيات، ٧٥، ٢٢٧

وتحديد معدلات التبادل، ٢٢٦

أثارها السنة، ٤٩-٦٢، ٦٦

الانتقال إليها، ١٦٣-١٦٤، ١٧٢-١٧٤،  
١٨١-١٨٧

انظر أيضا ثورة الملكية، نظام الملكية  
الأمريكي

النفوذ :

أصل العملات، ٦٣، ٢٢٢

النفوذ المشتقة، ٢٢٢-٢٢٣

ملاذات دولية لها، ٢

غير التوضيحية، ٦٥

افتراض الملكية سلفا، ٦٤

العلاقة برأس المال، ١١، ٤٣-٤٤، ٦٣

انظر أيضا العملة

نمط ما قبل الرأسمالية :

انهيار المجتمع، ١٠٢

تثبيت السعر / الأجر / الدخل، ١٠١، ١٧٦

قانون الحكم الابتدائي، ١٦٤

النمو الاقتصادي :

الغرض بالقوة في آسيا، ٢

( و )

واضعو اليد :

- البلدان النامية، ٨٦، ١٥٦، ١٧٦-١٧٧، ١٩٦  
تسوية وضعهم رسمياً، ٧٠، ١٧٤، ١٧٧  
جنوب إفريقيا، ٧٧  
الولايات المتحدة، ١٦-١٧، ٥٣، ١٠٧، ١١٣-  
١١٩، ١٢٢-١٣٦  
وقوانين شغل الأراضي في الولايات  
المتحدة، ١٣٠-١٣١، ١٣٤-١٣٥  
وصف الأصول، انظر معلومات الملكية  
وقورات الحجم، ٨٣، ١٥٥، ٢٢٤  
الولايات المتحدة :

- القانون البريطاني للأراضي، ١٦، ١١٠-  
١١٦، ١١٩، ١٤٤  
كاليفورنيا، ٤، ٥٣، ٧٣، ١٤٠-١٤٧  
بلد راسملي، ١٢، ٨-٢  
النمو الاقتصادي، ٥٢  
موجات الهجرة، ١٠٧، ١١٠  
تملك الأرض بمساحات واسعة، ١٢١

- سياسة إصدار مستندات بقطع صغيرة من  
الأرض، ١٢٥-١٣٦  
الحرب الأوسط، ١٣٦-١٤٠  
قانون الشمال الغربي، ١٢١-١٢٢  
معدل نمو السكان، ١٣٢  
السكك الحديدية عبر القارة، ١٣٦-١٣٧  
العقارات التي لا تتمتع بحماية القانون، ٩-  
١٠، ١٦-١٧، ١٠٥-١٥١  
البورصات، ٢، ٢  
الحضرة، ٧٣  
انظر أيضاً واضعو اليد، الولايات المتحدة:  
البلدان الغربية

( ع )

اليابان :

- التاريخ الاقتصادي، ٣-٤  
نظام الملكية المتكامل، ٥٣، ٥٤، ١٠٧، ١٠٩  
سجلات الملكية، ١٠٥، ١٥٦  
النمو الحضري في طوكيو، ٧٣  
يوجين هيجور، ١٧٢-١٧٣، ١٨٧

